علم اللغة الاجتماعي

عند العرب

الدكتور هادي نهر

ساعدت الجامعة المستنصرية على طبعه

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

- الاهداء -

الى التي قاسمتني عناء الكلمة، ونصب الكفاح الى (زوجتي) والى (سيف) الرابع في ابجدية الاقمار التي تعزز النور في ذاتي.

فانا لا املك إلا حبي وهذه السطور.

ـ المحتوى ـ

ـ مقدّمة ـ

ـ أ ـ

لا شك في أنّ العلاقات بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، وتأثر اللغة بالعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي في زمان ومكان معينين قائمةٌ منذ أنْ وُجدت اللغة ووجدت الحياة الاجتماعية، فجوهر الإنسان انّما يكمنُ في لغته وحساسيته وحياته الاجتماعية.

والنظر في هذه العلاقات قديمٌ لا ريب، غير أنّه لم يستوِ كمّاً، ونوعاً وتنظيراً، ومنهجاً، وروّاداً إلا في عصرنا الحاضر في ظلّ علم جديد من علوم اللغة أُطلق عليه (علم اللغة الاجتماعي) Sociological Linguistics. او Sociolinguistics.

وبين يدي القارىء الكريم بحثٌ في هذا العلم حاولت فيه التعريف به والوقوف على ملامحه الاولى في الدراسات الانسانية، متدرجاً مع تطور الافكار التي تصبّ في مصبّه، مستعرضاً اياها في نموها، وارتقائها، وتعددها بتعدد اصحابها، وتنوّع مشاربهم الفكرية؛ وهو أيضاً محاولة لرصد ما في تراثنا العربي في مجلى من مجالاته المتعددة التي يمكن أنْ نستنبط من خلالها ما يمكن أنْ يُعزى الى هذا الدرس اللغوي الاجتماعي للوقوف على ما قدّمه اللغويون العرب في هذا الميدان.

وعلى الرغم من أنّي لا أُريد أنْ اطلبَ من التراث ما لم يكن من شأنه أ

يوجد فيه، أو أنْ اتبنّى عبر هذا البحث موقفاً منحازاً مع التراث أو ضـدّه، إلا أنّي ألحّ على أنّ العودة الى معارف الماضي قد تكون من افضل السبل لدخول احدث العلوم، بما يوقفنا على أنّ كثيراً أو قليلاً مما هو حديث، انّما هو جزء من الاكداس المبعثرة من معطيات الاسلاف، يمكن أنْ نخلع على بعضها شيئاً من التصوّرات المحدثة، والمفاهيم القائمة يعزز قيمتها العلمية، ويؤكّد فعلها في معطيات الحاضر، فالعلوم أيّة علوم لا تتعلق كالرعد في السماء الصافية؛ ويؤكّد ايضاً عدم جواز الفصل بين الماضي والحاضر إذ ليس للأول وجود مستقلّ خارج وعينا به، وفهمنا اياه، فالماضي لا يوجد إلّا في الحاضر وبه، والتراث قبل كلّ شي شيء من الذات لا يمكن خلعه أو تبديله بسهولة.

ولا أريد ايضاً الزعم بانّ مثل هذا البحث -على امتداد زمانه ومكانه- يخوّلُ لي القول بأنّ اللغويين والمفكرين العرب قد أرسوا أسس هذا العلم قديماً أو أنهم ابتكروه، وكوّنوا له منهجاً مستقلّا لنظرية لغوية خاصة كما هو حال هذا العلم اليوم، فتلك مغالطة موضوعية لا أريد السقوط فيها، ولكنّي عزمت على اخضاع التراث العربي الى محاكمة موضوعية علمية في مجال موضوعي علمي من المجالات التي كان لاسلافنا فيها نظر، وعطاء، ومن خلال مفاهيم يقبلها ذلك التراث، آخذاً بمبدأ «النسبية» في مقابلة معطياته مع «الكليّات» التي تمخّضُ عنها علم اللغة الاجتماعي المعاصر، مع عدم اغفال المنطق الداخلي الخاص للتراث من وجهة، وعدم التعامل معه بمعزل عن الوعي المعاصر من وجهة اخرى، كلّ ذلك من أجل الدعوة الى ضرورة الاعتراف بأنّ لبعض لغوينا ومفكرينا القدماء، وفي مواطن معلومة من الدرس اللغوي الاجتماعي، ومن خلال أفضل ما كتبوه، أو استقرؤوه -على الأقل- قصب السبق في تلك المواطن والمجالات.

وبتأكيد هذه الحقيقة يزداد وعينا المعاصر باشياء كثيرة مما يخصّ هذا العلم، ويثري معارفنا فيه، ويضع امام المستعربين مدخلًا جديداً للدرس اللغوي عند العرب كانوا قد تجاهلوا قيمه الفكرية والموضوعية لأسباب معلومة..!

وعلى الرغم من أنّ ما تفتقت عنه أذهان العرب القدماء من نتاج لم يسعفه المنهج المتكامل، ولا الوسائل العلمية الدقيقة التي توافرت لدي المعاصرين، ولم يصدر بعضه عن فكر منظم، يضبط مجالاته في بناء عقلاني متماسك، إلّا إنّ فيه ما يوازي آخر ما جاءت به النظريات اللغوية المعاصره. والكشف عن هذا هو أدنى ما يُمجّد به الاولون، ويشهر بالبرهان أنّ العقل العربي ليس عقلّا اسطورياً أو غيبياً، وانما كان فيه للعلم والتجريب ميدان مبدع خلاق، وانّ الافكار التي خرجت عن اللغويين والمفكرين العرب جديرة فعلّا بأن تذكر في كلّ موسوعة تعالج تاريخ الفكر اللغوي الانساني، وعلينا أن ندرس التراث العربي في هذا المجال باعتباره وثائق تحكي قصة الجهد العلمي الفذّ الذي بذله العرب سعياً وراء ادراك كيفية دوران اثمن أدواته، ونعني باثمن ادوات الانسان (اللغة).

- ب -

ولكي انهض بما عزمت عليه سلكت في اعداد بحثي منهجاً وصفياً تاريخياً عُنيت خلاله بشيئين اساسين يمثلان اطاره الكلّي.

الاول: هو التعريف بالموضوع اللغوي الاجتماعي على وفق ما تمخّض عنه في الدراسات المعاصرة.

والثاني: ربط هذا بملامحه الاولى عند اللغويين والمفكرين العرب القدماء بما لا ينفي أن تكون لمعطيات الحاضر آثار سبقت نشأتها، مما يمكّن الباحث المنصف من بلورة «نظرية» في خلود اسلافنا وقدرها في تحريك السواكن، والاثارة، وعلى احداث ردّ الفعل الذي يبقيه دائماً متجدداً باطراد من غير أنْ يأتي عليه البلى، ومن غير أن يدّعي مدّع غير معتبر، وبلا سند علمي أنّ كل ما قيل ويقال في عصرنا الحاضر في هذا الضرب من الدرس انّما هو مُلْك

اشاعه الغربيون المعاصرون ليس فيه ما يوصله بمنبع أو مشرب من مشارب التراث العربي الخالد. توزع البحث على اربعة عشر مبحثاً تتدرج في فصول خمسة.

اما الفصل الاول فكان المبحث الاول فيه مقصوراً على التعريف بعلم اللغة الاجتماعي بمعنييه الخاص والعام، والعوامل التي ساعدت على نشوئه.

أما المبحث الثاني فمسوق من اجل بيان تاريخ هذا العلم وتطوره عبر الزمان، بما يؤكّد نزعة تكامل المعرفة اللغوية، وامتدادها عبر فسيح من الزمان، واتساعها موضوعاً ومنهجاً.

وكان المبحث الثالث في بيان اهمية علم اللغة الاجتماعي سواء أكانت علمية أم عملية ذات نفع كبير على اللغات وعلى الجماعات، وعلى الامم.

اما الفصل الثاني فكان عن اللغة مفهوماً، وظيفة، وطبيعة. حاولت في المبحث منه تحديد الاسباب الكامنة وراء نشوء اللغة، ووظيفتها من وجهة نظر لغوية اجتماعية، وبيان قدم هذه القضية، وارتباطها بالانسان باعتبار أنّ اللغة حادثة عنه ومن اجله، وما كان فيها من تعدد الاقوال وتنوّعها. وتباينها عند العرب وغيرهم من الاعاجم. اما المبحث الثاني فقد اشرت فيه الى مسألتين: اولاهما حقيقة اللغة بين الغريزة والاكتساب، وثانيهما العلاقة بين اللفظ ودلالته من وجهة نظر لغوي اجتماعي.

وانطوى الفصل الثالث على دراسة مستفيضة لجمع اللغة واستقرائها من لدن اللغويين العرب، والسبل التي انتهجوها في هذا العمل.

وقد حاولت في المبحث الاول من هذا الفصل أنْ اكشف عن ابعاد المنهج الذي سلكه اللغويون العرب في جمع اللغة، من اعتمادهم المنطوق، واحكامهم الحدود الزمانية والمكانية التي يجب أنْ تحيط بلغة الاحتجاج. وبيّنت في هذا المبحث ايضاً الخصائص الموضوعية التي يقرّها الدرس اللغوي الاجتماعي المعاصر في ذلك المنهج.

أما المبحث الثاني فقد كان في العوامل التي تساعد على تطور اللغة على وفق ما فهمه اللغويون العرب القدماء.

وكان المبحث الثالث في (الصراع اللغوي) باعتباره أحد العوامل الفاعلة في تطوّر اللغات سلباً أو ايجاباً، وما اهتدى اليه اللغويون العرب من مظاهر القرابة بين العربية وغيرها، ووعيهم لتأثير العربية وتأثرها بغيّرها من اللغات واسباب هذا التأثر والتأثير.

وقصدت في الفصل الرابع الى دراسة وسائل التواصل غير اللغوية، فعرّفت في المبحث الاول منه بالفروق بين الاشارة اللغوية المنطوقة وغيرها من وسائل التواصل الاخرى. وعرضت في المبحث الثاني للاشارات والحركات الجسمية المصاحبة.

اما الفصل الخامس فقد اوقفته على استجلاء العلاقة بين اللغة والمستويات الاجتماعية، متأمّلاً خلاله دور العرب في بيان نظرية السياق.

فكان المبحث الاول في استحضار العلاقات الكافية بين البنية الاجتماعية بابعادها ومظاهرها المتعددة، والبنية اللغوية.

ولحظت في المبحث الثاني ما توصّل اليه اللغويون العرب في نطاق دراستهم المستويات اللغوية، والمواطن التي رايت أنّهم قد حققوا فيها نوعاً من السبق على غيرهم من الاعاجم.

اما المبحث الثالث فدار في الاشارة اللغوية ومدى تأثّرها بالمواقف الكلامية المختلفة، ملمحاً الى اثر الموقف في الاصوات والمفردات، ومفيضاً في درس (الدلالة اللغوية)، وبيان وظيفة هذه الدلالة داخل التركيب المعين.

أمّا المبحث الرابع فقد وسمته بـ (لغة السلوك وقواعد التصرف الاجتماعي) قاصداً فيه بيان الافعال المادية الدّالة، وما يقتضيه الفعل اللغوي المعين من مقاييس اللياقة، وعدم اللياقة في المجتمع الكلامي الواحد. مستدعياً في ذلك كلّه معطيات اللغويين العرب القدماء.

ولست ازعم أنّي بهذه الصفحات قد استقصيت آثار اللغويين العرب في مجال الدرس اللغوي الاجتماعي كلها، أو أتيت على ما تناثر في كتبهم من ذلك ـ وهو كثير ـ فتلك مهمة أعسر على الفرد، واليق بالجماعة، ولكن « ما لا يُدرك كلّه لا يُترك جلّه » فوقفت على جلة من ذلك باسطاً في بعض المسائل، وقاصداً بالشرح بعضها الاخر.

وخليق بي في هذا المقام أنْ اشير الى ان الطريق الذي سلكته قد سار فيه من قبل غيري، وانّي وإن كنت اجلّ اعمال اساتذة افاضل في ميدان العلم اللغوي الاجتماعي من امثال الدكاترة: محمود السعران، وتمام حسان، وعلي عبد الواحد وافي، وعبد الرحمن ايوب، ونهاد الموسى، وابراهيم السامرائي، ورضا السويسي، وحسن ظاظا، وفاطمة محجوب وغيره من الاساتذة الذين احتوت آثارهم قائمة مراجعي. إلا انّي قصدت مقصداً آخر زيادة على ما قصدته، وهو استدعاء ما في تراثنا العربي القديم من هذا الضرب من الدرس، موازناً ايّاه مع المعطيات المعاصرة، محاولًا أن ادلّ بالبراهين الواضحة، والدلائل الناطقة على أنّ كثيراً مما بين ايدينا من حقائق علمية قد تضمنته آثار السابقين.

واني مع ادعائي التقصير، فانما فتحت لغيري باباً جديًّا خليقاً بكلّ غيور على العربية وتراثها الخالد، وآمل أن يلتفت اليه غيري وينظر فيه؛ وليس للمرء إلا ما استطاع.

واخيراً اتقدّم بالشكران والعرفان لكل مَن تعاون معي على الخير، وانجاز هذا البحث بالراي والمشورة والكلمة الطيبة واخص بالذكر الاساتذة الافاضل الدكتور عبد الامير السفار والدكتور عبد الباقي الصافي، والدكتور احمد نصيف الجنابي والله الموفق

والحمد لله اولًا واخيراً

بغداد في ١٩٨٥/١١/٢٠

ـ الفصل الاول ـ

(علم اللغة الاجتماعي)

ماهيته، وموضوعه، وتاريخه، واهميته

ـ المبحث الاول ـ
علم اللغة الاجتماعي. ماهيته وموضوعه.

إنّ اعظم اكتشاف عرفه الانسان على مرّ العصور هو اللغة، فهي ابرز ما يميزه عن غيره من الحيوانات، ومن حسن الصنيع أنْ نعرّف الانسان بانّه الحيوان القادر عى الخلق البشري.

إنّ الانسان لسان «وشكراً للغة التي صار فيها الانسان انساناً» كما يقول (ويلهم همبولت)[1]، شكراً للغة التي لم تتفتح انسانية الجنس البشري تفتحها العجيب إلّا عندما تمكن الناس من التعبير عن اختلاجاتهم بهذه الاداة المثلى التي بها يفكّرون وينطقون، وصاروا بفضلها اجتماعيين فاعلين ومنفعلين.

لقد كانت اللغة وما زالت وستظلّ احدى القوى التي ساعدت الكائنات البشرية على الخروج من العالم الحيواني والانضواء في جماعات، وتطوّر القدرة على التفكير، وتنظيم الحياة الاجتماعية، وتحقيق درجة التقدّم التي عليها الانسان اليوم؛ لانّ الكلام «يفتح العالم المغلق في حياتنا الداخلة، ويسمح لنا بالخروج عنه، إنّه مبدع، وصانع الحياة الاجتماعية»[2].

ولهذا يتحتم على من يريد دراسة الانسان ان يعكف على درس لغته، إذ لا

(١) اللغة بين الفعل والمغامرة.. د. مصطفى مندور الاسكندرية ١٩٧٤ ص١٩.

(٢) Vendrys Joseph. Langage Oral et Langage par le Geste. en Grammaire psychologis. Paris. 1950. p. 5.

يمكن التعرّف على هذا الكائن خارج الحقل اللغوي؛ إنّ كلّ ما يحدث في هذا العالم، شئنا أم أبينا مرتبط باللغة. «فقد نأت مع نشوء العمل وتطورت معه، من دونها لن نحسن عملنا، ولن يتقدّم علمنا وفننا، ولن تتقدم حياتنا ولن تكون لنا حضارة»[٣] فاللغة احدى اهم وسائل نشاطنا العلمي والفكري والاجتماعي.

ومن هنا لا يمكن فهم اللغة، وقوانين تطورها بمعزل عن حركة المجتمع الناطق بها في الزمان والمكان المعينين، لانّ فيها من الانسان فكره، وطرائقه الذهنية، وفيها من العالم الخارجي تنوّعه والوانه.

وقد مضى على الانسان حين طويل من الدهر نجهل تحديده تعامل فيه مع اللغة تعامله مع الهواء والماء، فلم يكلّف نفسه عناء البحث عن مكوناتها، ولم يشغل باله في معرفة كنه وسيلته الابلاغية المثلى، ثم جاء زمن بدأ فيه الانسان يصرف جهداً من اجل الوقوف على سرّ سلوكه التواصلي اعني (الكلام)، او اثراء نظام هذا السلوك اعني: (اللغة).

ولكنْ ما زال الانسان يجد أن معرفته باللغة على النحو الذي يطمح اليه بحاجة الى مزيد من الدرس والبحث، ويؤكّد (براتراند راسل) ضآلة معرفتنا بالكلام واللغة ويدعو الى طريقة سلوكية دقيقة في البحث اللغوي قائلاً: «إنني اظنّ انّ المعنى لا يمكن أنْ يفهم إ اذا عالجنا اللغة على اساس انها عادة جسمية... والميدان الصحيح لعلم اللغة هو دراسة ما يقوله الناس، وما يسمعونه وسط المحيط والتجارب التي يعملون فيها الاشياء»[٤].

ويؤكّد (فيرث) هذه النظرة الاجتماعية الى اللغة بقوله: «لنبدأ بأن نعتبر الانسان ليس مفصولاً عن العالم الذي يعيش فيه، إنّه ليس إلّا جزءاً منه، إنه ليس موجوداً ليفكّر فيه، ولكنْ ليعمل ما يناسب، وذلك يقتضيه أ يمتنع عن

(٣) انظر: علم اللسان. د. رضوان القضماني. بيروت ١٩٨٤ ص٨.
(٤) مقدمة لدراسة فقه اللغة. محمد احمد ابو الفرج بيروت ١٩٦٦ ص٢٨.

العمل في الوقت المناسب ايضا، وهذا ينطبق على اهم نشاط اجتماعي للانسان، ونعني به دفع الهواء، وآذان الآخرين الى الاضطراب بواسطة ما ينطقه. فكلامك ليس مجرد تحريك للسان، أو اهتزاز في الحنجرة، او اصغاء، انه اكثر من ذلك نتيجة لعمل العقل في تأدية وظيفته كمدير للعقلات لتحفظ عليك سيرك في المحيط الذي تعيش فيه»[٥].

إنّ هذا الارتباط بين اللغة والانسان يخولنا أنْ نؤكّد «إنّ الانسان لغة، ويلزم عن هذه المقولة انّ اللغة من كيان الانسان، فلا انسانية بدون لغة»[٦]، والانسان بدون لغة لا يتمتع بالانسانية الكاملة، ولو كان عقله وافكاره في مستوى اعلى بكثير من المستوى الحيواني، وقد اثبتت الابحاث التي قام بها العلماء «أنّ العقل لا يبلغ نموّه إلا بعد أن يتمكن الانسان من النطق كلّ التمكن»[٧].

فاللغة قطعة من الحياة، نشأت فيها، وسارت معها، وغذّت بغذائها، ونهضت بنهوضها، وركدت بركودها، وكان تاريخ اللغة وسيظل مجالّا رحباً نتصفح من خلاله تاريخ الحضارات الانسانية، ففي كلّ مجتمع مهما كانت طبيعته وحجمه تلعب اللغة دوراً ذا اهمية أساسية باعتبارها من اقوى الروابط بين اعضاء ذلك المجتمع، وهي في الوقت نفسه رمز لحيواتهم المشتركة، وضمان لها «فما الاداة التي يمكن أنْ تكونْ اكثر كفاءة من اللغة في تاكيد خصائص الجماعة؟ اذ هي في مرونتها، ويسرها، وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعاني تصلح لاستعمالات متشعبة، وتقف موقف الرابطة التي توحّد اعضاء الجماعة، فتكون العلامة التي بها يعرفون، والنسب الذي اليه ينتسبون»[٨] فلا يمكن أن تعرف شيئاً عن نظم العرب في عصر ما قبل الاسلام مثلاً، إلّا اذا نظرنا

(٥) نفسه: ص٢٩.
(٦) تأملات في اللغو واللغة. محمد عزيز الحبابي. ليبيا – تونس ١٩٨٠ ص١١.
(٧) اللغة والفكر. بول شوشار. تر.: صلاح ابو الوليد باريس ص٨٧.
(٨) اللغة. فندريس. تر.: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص. القاهرة ١٩٥٠. ص٧.

في لغة العرب آنذاك نظرة فاحصة من حيث دلالات الالفاظ، وتقلبها، أو ثباتها، وما تدلّ عليه كلّ كلمة منها من نظام عربي قديم بعينه؛ ويكفي أن نقرأ قوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بَحِيرةٍ ولا سائبة ولا وصيلةٍ ولا حام﴾ (٩). حتى نبدأ في فهم العادات العربية المتعلقة بهذه العادات، أو أن نقرأ قوله تعالى: ﴿وانْ تستسقموا بالازلام﴾ (١٠)، أو ﴿وما اكل السَّبع إلا ما ذكيتم وما ذُبح على النُّصب﴾ (١١) أو ﴿قل احلّ اليكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلِّبين﴾ (١٢) أو قول (الاعشى) (١٣):

فاني وما كلّفتموني وربِّكم ... ليعلمَ من أمسى أعقَّ وأحربا
لكالثور والجنّي يضرب ظهره ... وما ذنبُهُ إنْ عافتِ الماءَ مشربا
وما ذنبه إنْ عافت الماء باقِرٌ ... وما تعافُ الماء الا ليُضربا

ومما عاب به النقاد اللغويون على الشعراء استعمالهم اوصافاً تفتقر الى الدقّة لما فيها من مجانبه للعرف الاجتماعي، فقد جعل الاعشى مثلًا المرأة خرّاجة ولّاجه في قوله:

كأنّ مشيتها من بيت جارتها ... مرّ السحابة لا ريث ولا عجل

ومن هنا ذمّه (الاصمعي) قائلًا: «هلا قال كما قال الآخر:

ويكرمها جاراتها فيزرنها ... وتعتلّ عن اتيانهنّ فتعذر

وعاب (الاصمعي) ايضاً قول عوف بن عطية:

رفعت له ناري فلما اهتدى بها ... زجرت كلابي أنْ يهرّ عقورها

بقوله: «فقد فَضَحَهُ وصفُهُ لكلابه، واساء الى نفسه من حيث اراد لها الذكر، ذلك انه لو كان الضيفان يكثرون اتيانه أنست بهم كلابه» (١٤).

فهذه النصوص وغيرها كثير تشير الى عادات جاهلية هي من صلب الحضارة العربية، ولا نستطيع أنْ نفهم العربي الذي عاش فيما قبل الاسلام إلا اذا عرفنا له هذه العادات، ومظاهر السلوك الاجتماعي التي كانت من الأهمية بدرجة جعلتها ترد في نصوص عربية ذات خطر.

فاللغة على هذ الاساس ليست عنصراً من عناصر الحضارة فحسب، بل انّها اصل لكلّ انواع النشاط الحضاري، ومن ثم فهي «اقرب الادلة واقواها عند استقصاء الملامح الخاصة لاي مجتمع» (١٥)، واننا لا يمكن أن نتعرف على ايّ نشاط انساني إلّا من خلال اللغة وباللغة. فعالم اللغة هو «العالم الوحيد الذي حقق العناصر الاساسية لموضوع البحث» (١٦).

ولم يجمع الباحثون والمفكرون على تصور حقيقة العلاقة بين اللغة والمجتمع الناطق بها، اذ نجد أنّ هذه العلاقة تكتسب اهمية كبرى واصيلة لدى الباحثين الامريكيين في اللسانيات البنائية، ونجد في لقاء معهم الوظيفيين

---

(٩) من سورة المائدة: ١٠٣. والبحيرة التي يمع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس. والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شي. والوصيلة: الناقة البكر تبكر في اول نتاج الابل بانثى، ثم تثنّي بعد بانثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت احداهما باخرى، وليس بينهما ذكر. والحامي: فحل الابل يضرب الضراب المعدود فاذا قضي ضرابه ودعوه للطواغيت واعفوه من الحمل فلا يحمل عليه شي، وسموه الحامي. انظر: تفسير الجلالين: السيوطي والمحلي. القاهرة ١٩٦٦ ص١٢٤.

(١٠) من سورة المائدة: ٣. والازلام جمع (زَلَم) وهو قطع من الخشب مسواة، تصلح أن تكون سهماً. وكان العرب في الجاهلية يقترعون بالازلام، يكتب على احدها: امرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي، ويكون الثالث غُفْلًا لا كتابة عليه، فاذا خرج ما عليه الامر فعلوا واذا خرج ما عليه النهي امتنعوا، واذا خرج الغفل اجالوا المزلام مرة اخرى. وقيل: الاستقسام بالازلام هو لمعرفة مقدار الانصبة في الميسر. انظر: معجم الفاظ القرآن الكريم. مجمع اللغة العربية ط ٢ القاهرة ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م. ٥٤٢/١.

(١١) من سورة المائدة: ٣. والنصب هنا ما كانوا يذبحون عليه من الاوثان.

(١٢) من سورة المائدة: ٤. ومكلبين: حال من كلبّت الكلب بالتشديد اي: ارسلته على الصيد.

(١٣) ديوان الاعشى الكبير. ميمون بن قيس. شرح وتعليق: محمد حسين. الاسكندرية ١٩٥٠. ص١١٥. زعموا أن البقر اذا عافت الشرب وانصرفت عنه اخذوا ثوراً فضربوه حتى يرد الماء فتتبعه البقر.

(١٤) الموشح: المرزباني. القاهرة ١٣٤٣ هـ. ص٢٨. وانظر: النقد عند اللغويين في القرن الثاني. سنيه احمد محمد. بغداد ١٩٧٧ ص٢٨٨.

(١٥) اللغة بين المعيارية والوصفية. د. تمام حسان القاهرة ١٩٥٨. ص٥.

(١٦) International Encyclopedia of Soc. Sciences. Vol. D.X. art. Language written by William Bright. p. 18.

والكوسماتيين (١٧)، وبعض البنائيين من امثال (انطوان مايبه) يدافعون عن استقلال مادتهم ليس فقط عن الفلسفة، او علم النفس، ولكن عن علم الاجتماع كذلك، ويحاولون عقد صلة وثيقة بين البنى الاجتماعية والبنى اللغوية، نجد من جانب آخر فريقاً من البنائيين يرى في هذا الموقف عبثاً، ومن رأيه عدم وجود علاقة ضرورية بين القانون اللغوي والسياق (الاجتماعي الثقافي) الذي يستعمل فيه هذا القانون. وقد كتب (سوميرفلت) A. Sommerfelt يقول: «إن اللغة ظاهرة اجتماعية، والتغيرات التي تعرفها هي ايضاً ذات طابع اجتماعي، لكنّ هذا لا يعني أنّ هناك تقابلًا بين البنية اللغوية والمجتمع الذي يستخدم هذه البنيات وسيلة للتواصل، إنّ البنيات الصرفية للغة معينة يمكن أن تبقى هي هي دون تغيير رغم التغيرات الثورية التي تحدث في البنيات الاجتماعية التي تتكلم هذه اللغة» (١٨).

وعلى الرغم من هامشية هذا الرأي، اذ لم يوضح فيه (سوميرفلت) المقصود بالتغير اللغوي، وما الجوانب اللغوية التي تتغير، واذا كان يعتقد بانّ التغير يكون عنيفاً وسريعاً كالتغيرات السياسية مثلًا، فهذا غير مقبول ولا يمكن أنْ يقصده اي لغوي مهتم بمسألة التغير اللغوي، الذي يحدث ببطىء غير ملحوظ آنياً على الرغم من حصوله في كل فترة من حياة اللغة، دون أن يظهر للعيان إلا عبر قرون من الزمن، وقد يشمل اصوات اللغة دون نحوها، أو صرفها، أو معجمها، أو العكس. اقول على الرغم من ذلك فان (بنفنست) E. Benveniste، يؤكد نفي العلاقة بين البنى اللغوية والبنى الاجتماعية، ومن رأيه أنه يمكن أن توجد لغات مختلفة تحمل حضارة واحدة، ويمكن أن يُعبّر

(١٧) من ابداع (ل. هلمسليف). وهذه الكلمة اليوم عنوان لنظرية لسانية تتوافق مع تعليات (سوسور) التي تقول في مجلها: إنّ اللغة هدف لذاتها وليست وسيلة. انظر تفاصيل ذلك في: البنائية في اللسانيات. د. محمد الحناش. الدار البيضاء ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ ص١٦٥ وما بعدها.

(١٨) البنائية في اللسانيات. ص١٤٧.

عن حضارات عديدة بلغة واحدة.

وفي رأي بنفست هذا اصرار من جانب فريق من البنائيين على الفصل بين البنى اللغوية والاجتماعية. وهو ما يرفضه آخرون كما بيّنا، والثابت لدينا أنّ علاقة جدلية قائمة بين اللغة والمجتمع، ذلك امر يجب على عالم اللغة، وعالم الاجتماع الاعتراف به، اذ أنّ المجالين غير متناقضين «انهما متمايزان ومتكاملان في الوقت نفسه» (٢٠) وادراكاً من اغلب المفكرين والباحثين لتلك العلاقة الحتمية الثابتة، فقد تضافرت جهود متواصلة لعلماء الاجتماع الالمان ومن اشهرهم (ديركايم) الذي كانت نظرياته التي قدّمت في مجال علم الاجتماع تحوّلًا حقيقياً في دراسة الحقائق الاجتماعية (Social. Facts) لما لها من تأثير مباشر على الدراسات اللغوية، حيث تحول مفهومه لمجال علم الاجتماع من الحقائق الاجتماعية الى الحقائق اللغوية (Lingual. Facts) على يد (دي سوسور) وانتقل تمييزه بين الفردي (Individual)، والاجتماعي (Social) الى تمييز سوسور بين فردية الكلام Individuality of Speech، والطبيعة الاجتماعية للغة Social Nature of Language، وتحديده استقلالية علم الاجتماع وعمليته الى تحديد سوسور استقلالية علم اللغة وعلميته (٢١).

وقد اجتهد علماء اللغة من امثال: سوسور، ومايبه، وفندريس، وفيرث، وهاليداي، ومالينوفسكي، ويسبرسن، وفلمور، وفيربواس، وهاريس، وكاردنر، وغيرهم على انشاء فرع جديد من فروع علم اللغة، اخذت اصوله تتضح وتستقر في السنوات الاخيرة. وتشغل اذهان الباحثين وتفهم تفكيرهم بالدراسة والبحث، اطلق على هذا الفرع (علم اللغة الاجتماعي)

(١٩) انظر: علم اللغة العام سوسور تر. د. يوئيل يوسف عزيز ص٢٧ و٣٢ والبنائية في اللسانيات. ص١٤٨.

(٢٠) نفسه: ١٤٧.

(٢١) انظر: الاثنوميثودولوجيا. ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة. محمد حافظ دياب مجلة فصول. المجلد الرابع - العدد الثالث. القاهرة ١٩٨٤ ص١٦٠.

Sociolinguistics ، ويطمحّ اصحاب هذا العلم الى اكتشاف الاسس او المعايير الاجتماعية التي تحكم السلوك اللغوي، مستهدفين اعادة التفكير في المقولات والفروق التي تحكم قواعد العمل اللغوي، ومن ثم توضيح موقع اللغة في الحياة الانسانية.

وهذا العلم بمعناه الواسع يعني ايضاً بدراسة الواقع اللغوي في اشكاله المتنوعة باعتبارها صادرة عن معان اجتماعية وثقافية مألوفة وغير مألوفة، ويشمل ايضاً كل ما يتعلّق بالعلائق بين اللغة والمجتمع، مدخلًا في الاعتبار كل الميادين التي نعثر عليها مع علم الاعراف البشرية Ethnology ، الذي يدرس اللغة لا لذاتها وانما باعتبارها تعبيراً عن سلالة معينة، عن شعب، وعن حضارة. وكذلك تلك المحاولات التي يمكن أن تُلحق بعلم اللغة، ومنها طرق التكلّم، وموقف المتكلم والمخاطب، واللهجات المحلية، وصور الانشطة المحكومة بقواعد استخدام اللغة، ومشكلات الاتصال اللغوي، والموضوعات التي تهتم بالتغيرات اللغوية على المستوى الجغرافي والاجتماعي والثقافي للغات المختلفة، او داخل اللغات، وعلم اللهجات المشتمل على الجغرافية اللغوية، وتحديد مواطن اللهجات ضمن المجتمع الواحد مع وضع الاطالس اللغوية لها، ويمكننا أن نضع الى جانب علم اللهجات البحوث المتعلقة باختلاف اللغات، او قضايا التعدد اللغوي.

ويدخل ضمن علم اللغة الاجتماعي بمعناه الواسع ايضاً ميادين اخرى كتحليل الخطاب السياسي او الادبي او الديني او الاعلامي... الخ، مع الاعتماد على (سوسيولوجيا) ظاهرة الكلام التي لا تتعرض للمعطيات اللسانية إلا كوسيلة اجتماعية.

ويمكن الاستناد الى التصنيف الذي تقدّم به (هاليداي) لحصر مواطن اهتمامات اللسانيات الاجتماعية، وهو كالآتي[٢٢] :

(٢٢) انظر: من النظرية اللسانية الى تنظير الواقع. الاستاذة ليلى المسعودي من بحوث الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات. تونس ١٩٨٥ ص٥-٦.

- الازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي، وتعدد اللهجات.
- التخطيط والتنمية اللغوية.
- ظواهر التنوع اللغوي.
- علم اللهجات الاجتماعي (المتنوعات غير المعيارية).
- اللسانيات الاجتماعية والتربية.
- الدراسة الوصفية للاوضاع اللغوية (طريقة واسلوب الكلام).
- السجلات والفهارس الكلامية والانتقال من لغة الى اخرى.
- العوامل الاجتماعية في التغير الصوتي والنحوي.
- اللسان والمجتمع والتواصل الحضاري.
- النظرية الوظيفية والنظام اللغوي.
- تطور اللغة عند الطفل.
- اللسانيات العرفية (الاثنو منهجية).
- دراسة النصوص.

اما علم اللغة الاجتماعي بمعناه الضيق[٢٣] ، فانّه يهتم بالخطوط العامة التي تميّز المجموعات الاجتماعية من حيث انها تختلف وتدخل في تناقضات داخل المجموعة اللسانية العامة نفسها، والوقوف على القوانين التي تخضع لها الظاهرة اللغوية في حياتها وتطورها وما يعتورها من شؤون الحياة، ومبلغ تأثرها بما عداها من الظواهر الاجتماعية التي لها تأثير على اختيار الناس اللغة، وما تحمله هذه اللغة من طوابع الحياة التي يحياها المتكلمون، وطرائق الاستعمال اللغوي التي يكتسبها الانسان من المجتمع.

ولما كانت اللغة تنفذ الى كلّ جوانب الحياة فهي نشاط اجتماعي يخدم ما

(٢٣) انظر: Essai d'une Thérie des Langues Spéciales dans une Société. (Revue des Etudes) Etnographiques et Sociologiques. V. Van Geme p. Juin - Juillet Paris. 1908.

- R. Jakebson. Fundament als of Language. The Itague: Mouton, 1956.

- اللغة والمجتمع: د. علي عبد الواحد وافي مصر ١٩٧١ البنائية في اللسانيات. ص٩٠ وما بعدها.

يسميه (سابير) بالتشارك الاجتماعي Communion، وهي التي تفصح عن العلاقات الشخصية والقيم الحضارية والاجتماعية، بل لعلها الوسيلة الوحيدة للافصاح عن هذه العلاقات، وتلك القيم، فقد وجّه علماء اللغة الاجتماعيون جهودهم لدراسة هذا الجانب المهم في اللغة فاعتبروا اللغة جزءاً من الحضارة Culture، ونعني بالحضارة مجموع انشطة الحياة من مأكل وملبس، ومأوى، وعقائد، وعادات، واعمال وابتكارات وغير ذلك من ظواهر النشاط الانساني[٢٤] التي تنعكس على اللغة ومفرداتها، وتعابيرها الاصطلاحية.

ومما شجع على نشوء هذا العلم وتطوره قناعة تكوّنت لدى عدد كبير من الباحثين مؤادها «إنَّ اللغة استعمالات متنوعة، فهي وسيلة تعبير اجتماعي وعلمي، وسياسي، واقتصادي، مما يحتم دراسة خصائص هذه الاستعمالات المختلفة، ومعرفة ابتعاد التكيف اللغوي مع مختلف الاغراض والمواقف»[٢٥].

فلغة الشخص تحددها عوامل كثيرة منها المستوى التعليمي، والمستوى الاقتصادي، ومنها التقويم الذاتي، والرغبة الخاصة، والحالة الصحية، وغير ذلك مما يكوّن اسساً كافية لتحديد موضوع علم اللغة الاجتماعي، ومجالاته، ووسائل الانتفاع بعلوم المجتمع الاخرى في مناهجه.

وعلى الرغم من مناداة اللغويين باستقلال هذا الدرس إلا انهم لا ينفون اعتماده على علوم اخرى كعلم الاجتماع، والجغرافية، وعلم النفس والانتربولوجيا[٢٦]، والاحصاء، والفيزياء، وغيرها.

(٢٤) The New Encyclopedia Britanica, V. 5 p. 364-365.

(٢٥) اللغة العربية في اطارها الاجتماعي. مصطفى لطفي. بيروت ١٩٧٦ ص٤٤.

(٢٦) الانتروبولوجيا كما عرّفها العلماء في باديء الامر هي علم دراسة الانسان. الا ان المعنى قد تطور وتشعّب بمرور الزمن، واخذ يعني دراسة الطبيعة الفيزيولوجية والسيكلوجية للانسان. وأمكن تقسيم الدراسات الانتروبولوجية الى اقسام عديدة فهناك الطبيعية، والاجتماعية، والفلسفية، وعلم الاثار، والحضارة المادية.
انظر: معجم علم الاجتماع. تحرير البروفسور دينكن ميشيل تر. د. احسان محمد الحسن. بغداد ١٩٨٠ ص٢٦. وانظر ايضاً: Ardener Edwin. Social Anthropology and Languge Tavistock Publications London. 1971.

- المبحث الثاني -
(تاريخ علم اللغة الاجتماعي)

يعود إتصال البحث اللغوي بعلوم المجتمع الى السؤال الذي طرحه الفلاسفة والمفكرون في القرن الثامن عشر عن العلاقة بين اللغة والشعب الذي يتكلم بها؛ ومن هؤلاء (يوهان ڤوتغيرد) و(هلدر) و(جينس) فقد رأى (هلدر) أنّ اللغة ذات شكل داخلي خاص، وهي مُنظمة للعالم الخارجي للجماعة الناطقة، وانّ مفهوم الجماعة اللغوية يتضمن عنده مفهوم الامة[١].

أمّا (جينس) فقد نشر عام ١٧٩٤ كتابة الموسوم بـ (المقارنة بين اللغات مع تقويم فلسفي ونقدي لأربع عشرة لغة قديمة وحديثة) ليثبت أنّ طبيعة الانسان الفكرية والاخلاقية تتجلى كاملة في اللغة على نحو ما. مثل رهافة الحس التي تظهر في اليونانية والفرنسية، والنزعة الفلسفية الواضحة في اللغة الالمانية الخ...[٢].

وفي هذا الاتجاه شاهدنا تعدد النظريات التاريخية والنفسية في نشأة اللغات، وتعود معظم تلك النظريات والمحاولات الى آراء الفلاسفة في المقام الاول، وعلى رأسهم الفيلسوف (كوندياك) سواء في بحثه الموسوم بـ (نشأة

(١) انظر: Encyclopedie Larousse, Jean – Baptiste Morcellesi la Linguistique par un Nombre de Professeurs Universitites 1977.

(٢) انظر: تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين. جورج مونين. تر.: د. بدر الدين القاسم. دمشق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ ص١٥٢

الاحاسيس) عام ١٧٥٤ أم في بحثه الموسوم بـ (اصل المعارف الانسانية) عام ١٧٤٦، أم في بحثه الموسوم بـ (المذاهب الفلسفية).

وتدهشنا اليوم بعض ومضات فكرية لكوندياك من نحو قوله: «لا يستطيع البشر تبادل الاشارات ما لم يكونوا مجتمعين»[٣] و«ان اللغة هي اوضح مثل للعلاقات التي نكونها بصورة ارادية»[٤] ولم يوجد بازاء (كوندياك) مفكر يضاهيه في هذا الموضوع، وانْ عثرنا وقتئذٍ لدى فلاسفة القرن الثامن عشر على آراء جديرة بالاهتمام كآراء (ديدرو) حول اعتباطية الاشارة اللغوية على نحو ما تراه عند (سوسور)، وعنايته القصوى بتعليم الصم-البكم، والتهذيب الكلاسيكي الفرنسي الذي يأنف من استعمال المفردات الوضيعة، وبعض الآراء التي تصبّ في علم اللغة الاجتماعي على نحو ما سيعرض له هذا العلم فيما بعد.

إن هذه الآراء في مجملها قد امتدّ فعلها الى القرن التاسع عشر وأثّرت في رجل مثل (غليوم دي همبولت) Cullaume de Humbolat (١٧٦٧-١٨٣٥). الذي دفع بالايديولوجية الرومانسية التي انتشرت في ميادين الثقافة والفلسفة والسياسة الى حدودها القصوى، ولجان الالمان في هذا القرن قد اندفعوا الى ابحاث تاريخية في الماضي الجرماني رغبة منهم في اعلان شأن القيم القومية والاشادة بها، بما في ذلك اللغة الالمانية وتاريخها.

وكان من رأي مفكري الالمان آنذاك إن الشعب مصدر كلّ ثروة ثقافية بما فيها اللغة «وانّ التطور الذي قطعته اللغة الالمانية كان يصاحب تطوراً آخر في المجتمع فدرسوهما معاً، وقد أيّدوا الفكرة القائلة بأنّ لكلِ لغة بنية خاصة بها، وكلّ لغة تعكس بصدق وامانة نوعية التفكير عند الشعب الذي يعبّر بها، ومن هنا تقوّت في منهجهم الرابطة بين اللغة والوطن فلكل وطن لغة تعبّر

(٣) المصدر السابق: ص١٥٣.
(٤) المصدر السابق: ص١٥٤.

عنه، ولا بُدّ لدراسة تاريخ هذا الوطن من دراسة كلّ مقوماته ومن ضمنها اللغة»[٥].

وقد كانت اللغة عند (همبولت) «الوسيلة التي يتكوّن بها التفكير، أي أنها تعبّر عن الروح القومية، وكذلك تكوّن هذه الروح في كلّ خصائصها، وتشير الى تلك النظرة الكونية الشاملة التي تنفرد بها جماعة من الجماعات، وليس تنوع اللغات إلا دليل على تنوع العقليات، ومنه نشأت اهمية التحليل الدقيق المفصّل لعضوية كل لغة لكي تتم المقارنة بين مزايا بنياتها ومزايا بنيات اللغات الاخرى»[٦].

ذلك أنّ تفوق البنية اللغوية برهان اكيد على تفوق الذهنية والعرق. هذه هي خلاصة الدراسة العرقية المقارنة التي قام بها (همبولت) وكان حين انشائها ممزقاً بين حنينه الى وحدة الفكر الانساني، وبين تنوع اللغات، محاولًا اثبات تفوق العنصر الجرماني من خلال تفوق لغته هذا التفوق المزعوم، مما حدا بالنقاد ان يطلقوا على آراء (همبولت) وجماعته اسم (المدرسة اللغوية العنجهية)[٧] Jingoistic Lingustics.

وقد سلك (راموس راسك) Ramus Rask (١٧٨٧-١٨٣٢) مسلك (همبولت)، اذ عكف على دراسة الماضي الاسكندنافي، وكان ينزع نزعة رومانسية على الطريقة الالمانية وللاسباب ذاتها التي دفعت معاصريه الى مثل هذا العمل.

ومن المعروف لدينا أنّ الالمان مسبوقون بمثل دعواهم، فقد كان اليونانيون القدماء يرن أن لغتهم افضل اللغات «لان سائر اللغات على راي جالينوس انما تشبه إما نباح الكلاب وإما نقيق الضفادع»[٨] وما اللغة اللاتينية

(٥) البنائية في اللسانيات: ص٧٥.
(٦) نفسه: ص١٩٨.
(٧) أمدني بهذه المعلومة مشكوراً الاستاذ الدكتور عبد الامير السفار.
(٨) انظر: محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية. اميل الخولي، القاهرة ١٩٥٨، ص٦٤.

بالنسبة لمن لا يعرفها فيسمعها الموضع الذي ذكره (جالينوس). وقد كذّب اليهود حين زعموا أن اللغة العبرية هي اللغة التي اوحي بها الى الانبياء، وانها افضل اللغات لانها «لغة اول انسان خلقه الله» وغير ذلك من الإدعاءات[9] التي لا تستند الى حقائق علمية مقبولة. لقد كان من نتائج التيار الرومانسي الالماني في القرن التاسع عشر أنْ نشطت الدراسات اللغوية التي تعمل على تصنيف اللغات الى عائلات بما يدلّ على تطبيق روح المنهج التطوري الذي لم يكن تطبيقهُ مقتصراً على مجالات الدرس اللغوي كما اسلفت، بل كان عاماً على جميع العلوم كما كان يشمل جميع التقاليد البشرية، بل والانسان نفسه. وبذلك كان الالمان رواد فقه اللغة المقارن بمفهومه العلمي الحديث. وقد اقترن شيوع الدراسات المقارنة مع اكتشاف اللغة السنسكريتية بين (١٧٨٧–١٨١٦)، مما شكّل منعطفاً كبيراً بالنسبة الى الدرس اللغوي عموماً، وازال عنه ذلك التفكير الطويل المشوش. فالاتصال بين اوربا والهند قد اظهر بوضوح باهر قرابة اللاتينية والسنسكريتية، واللغات الجرمانية والسلافية والسلتية، وبذلك انقطع الافتنان باللغات ذات الاصل الآلهي او الفلسفي، فقام عهد جديد للتفكير في شأن اللغات، وانْ بقي بدوره بادئ الأمر لحل المشكل نفسه الذي أخذ من جهد القدماء كثيراً وهو: اصل الكلام. ومع هذا «فقد شُرع إذاك في اقتباس المبادئ والمناهج التي حققت في العلوم الطبيعية، واعتبرت اللغات كيانات حيّة، تولد وتنمو، وتموت»[10].

زيادة على هذا كله فانّا نجد لدى (همبولت) ملاحظات يبرز خلالها ما يسمّى بـ(قطبيات اللغة)، بمعنى ان اللغة «انتاج فردي واجتماعي في آن واحد، وهي شكل ومضمون، وهي آلة وموضوع، وهي نظام ثابت وسيرورة متطورة، وهي ظاهرة موضوعية، وحقيقة ذاتية»[11].

(٩) انظر: الصهيونية واللغة. د. فاروق محمد جودي، القاهرة ١٩٧٧، ص١٩، ٢٥، ٢٧.

(١٠) مفاتيح الالسنية: جورج مونين. عرّبه وذيّله بمعجم عربي-فرنسي: الطيب البكوش، تونس ١٩٨١، ص٣٢.

(١١) تاريخ علم اللغة: ص١٩٩.

وقد كانت آراء (همبولت) هذه وغيرها محور نقاش وجدل بين لغوي ذلك العصر، فاستشهدوا بها، وفسّروها في ضوء نظريات لاحقة منها ما يؤيد (همبولت)، ومنها ما يعارضه، من ذلك ما أثاره الايطالي (كروك) Croce حول عبارة (همبولت) القائلة «بانّ اللغة ليست نتاجاً بل هي قدرة فاعلة» كي يبعث نظرة (ڤيكو)[12] Vico (١٦٦٨–١٧٤٤) التي تزعم أن اللغة ابداع فردي، وانّ علم اللغة يتّصل بعلم البديع، أي انّه فصل من فصول علم الجمال، بما يساعد على تجنّب بعض القضايا التي اثارها التأويل الاجتماعي للغة[13].

ومنها ما اثاره (شلايشر) Schleicher (١٨٢١–١٨٦٧) الذي يعدّ اول لغوي في القرن التاسع عشر عرض الى جانب الاسلوب المقارن -بصورة اوضح من (همبولت)- علماً لغوياً عاماً منسجماً ومتكاملاً مقدّما صيغة قطعية للنظرية القائلة بانّ اللغة جهاز عضوي، اي إنها ليست ظاهرة اجتماعية بل هي حادث من حوادث الطبيعة[14]، أو جهاز غير عضوي، وبالتالي لا يكون في رايه علم اللغة علماً انسانياً، انّما هو علم طبيعي[15]، وعلوم الانسان كما يقول (هيجل) الذي تأثّر به (شلايشر)، هي ميدان الحرية، في حين إن علوم الطبيعة هي ميدان الضرورة والتقيد، ومن هنا فانّ علم اللغة خاضع لقوانين حتمية تساعد علم الصوت على استحضار بُنى اللغات البائدة، وعلى هذا النحو شعر (شلايشر) شعوراً واضحاً بضرورة فصل الدراسة الانسانية القديمة المسمّاة بفقه اللغة عن الدراسة اللغوية الجديدة التي كان يريد أن يطلق عليها اسم علوم الحنجرة او الزردمة[16].

(١٢) من اشهر الآراء التي قدّمها (فيكو) شرحه السبب الذي من اجله تنوّعت اللغات فكان عددها مساويا لعدد الشعوب، فانه احتج بتنوع الاقاليم المناخية والازمنة والاهواء والاعراف، مما يدخل في مجال الدرس اللغوي الاجتماعي المعاصر.

(١٣) انظر: تاريخ علم اللغة: ١٩٦–١٩٨.

(١٤) قضى شلايشر جزءاً من حياته يعمل عالماً للنبات قبل أن يتحوّل الى عالم لغوي.

(١٥) تاريخ علم اللغة: ص٢٠٢.

(١٦) نفسه: ص٢٠٢–٢٠٣.

وعلى هذا الصعيد تبنّى (شلايشر) مباشرة ما جاء به (داروين) في كتابه (اصل الانواع الحيّة) عام (١٨٥٩)، واراد أن يستنبط من مذهب (داروين) كلّ النتائج الممكنة في ميدان اللغة، ثم أنّ هذا المذهب يؤيد كما هو معروف القول «بأنّ اللغة جهاز عضوي ينشأ -على الصعيد التاريخي- وينمو، ويتطور، ثم ينحلّ، ويموت»[١٧] وانّ علم اللغويات يمكن ان نعدّه جزءاً من العلوم الطبيعية اذا سلّمنا بما ينادي به بعض النحويين المحدثين الذي نظروا الى اللغة نظرة حسّية موضوعية، وروّجوا لمبدأ القوانين الصوتية الجامدة التي لا تتطابق معها كلّ اللغات، تلك النظرة التي تعود بدورها الى الفترة القديمة التي أرست القواعد اللازمة لرصد الاصوات رصداً متقناً منذ ما قبل افلاطون حتى اللغوي اللاتيني (برسيان) Priscien «الذي قرئت آثاره المرة تلو المرة حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولن يعود بالامكان أنْ نلقي نظرة عابرة على تلك التقنيات «البدائية» التي يحددّون بها اسهام الاغريق في علم الصوت[١٨]، كذلك يستحيل آنئذ ان نتجاهل علم الصوت عند العرب، اصوله وانتشاره في اوساط الثقافة العالمية الى ما بعد القرن السادس عشر، وما احدثه من اثر في الغرب من ناحية التفكير الصوتي»[١٩].

ومن المعروف انّ الجدل الدائر عن امكانية اعتبار علم اللغة علماً طبيعياً او علماً اجتماعياً قديم، لكنه لم يظهر كمشكلة إلّا في القرن التاسع عشر بعد نشأة العلوم الطبيعية، وازدياد اهمية العلوم الاجتماعية؛ فقد كان الاغريق في مناقشاتهم الفلسفية يعتمدون على آراء في مثل هذا الصدد يمكن تفسيرها الآن على أنها تعارض وجهة النظر القائلة بانّ علم اللغويات أحد فروع العلوم

(١٧) نفسه: ص٢٠٦.
(١٨) اسهم الاغريق في ترقية الوعي المتصل بالتقطيع الثاني للغة (وهو تقطيع صوتي بدأه الفنيقيون. وقد عرض ارسطو للتحليل الصوتي في كتابه -الفن الشعري- كذلك أولى الاغريق عناية بوصف اللغات مما حملهم على اهمال اللغات الاجنبية اهمالاً يكاد يكون تاماً.
(١٩) تاريخ علم اللغة: ص٢٠٦.

الاجتماعية، كما هو الحال عند (افلاطون)، ومن جانب آخر نجد تحيزاً واضحاً نحو الرأي القائل بان اللغة تقليد اجتماعي، وانّ لكلّ مسمّى -إنْ كان شيئاً او عملاً- اسماً لمجرد أنّ الناس قد اتفقوا على أن هذا الاسم رمزٌ للشيء المسمّى، وقد تبنّى (ارسطو) هذا المفهوم عندما عالج اللغة على انها رابطة اجتماعية. وتتفق غالبية علماء اللغويات الوصفيين اليوم على هذا المفهوم، وانّ اللغويات تتبع العلوم الاجتماعية في اكثر الاحيان حيث أن تطورها ونشأتها، تعتمدان على نشاط الافراد والجماعات الذي يخضع لكلّ انواع المؤثرات الاجتماعية.

والواقع إنّ الجدل حول اعتبار اللغة ظاهرة طبيعية أو ظاهرة اجتماعية يُعدّ «لغواً بلا جدوى، فاللغة تنتمي الى كلٍّ من العلمين طرفي النزاع، وعلى الباحث أن يختار الجانب الذي يستهويه من جوانب اللغة، ويركّز عليه اهتمامه وجهده، مع اعتبار أنّ كلّاً من الجانبين -الطبيعي والاجتماعي- لهما الاهمية نفسها في دراسة اللغات، ولا يهتم بالفصل بين اعتبار اللغة جزءاً من العلوم الاجتماعية، أو من العلوم الطبيعية إلا المشرفون على التعليم عند وضع برامجهم، حيث يكون هذا العمل مبنياً على اسباب تربوية، وادلرية بحتة»[٢٠].

وزيادة على ما في الخلافات بين اللغويين أبان القرن التاسع عشر من مرارة وعنف وجدال، إلا انّها أتت بفوائد كثيرة، منها تأكيد الحاجة الى الدراسة الدقيقة للظواهر اللغوية، وتركيز الاهتمام بالبحث في اللهجات المحلية، والاختلافات الكثيرة بينها، كما يمكن القول بانّ هذه الخلافات قد أدّت -بطريق غير مباشر- الى الاهتمام بدراسة التوزيع الجغرافي للسمات اللغوية وبالتالي الى رسم الحدود والخرائط كما حدث في المانيا عام (١٨٧٦)، على يد (جورج فينكر) Georg wenker، وفي فرنسا على يد (جول جيرون) Jules Gillieron، وفي امريكا عام (١٩٣٠) وما بعده على يد (هاتز كوارث)

(٢٠) لغات البشر. اصولها طبيعتها تطورها. ماريو باي. تر.:د. صلاح العربي، القاهرة ١٩٧٠، ص٨٢.

Hatez Kwarth ، وفي بريطانيا بين (١٩٥٠-١٩٧٨) على يد (هارولد اورتن) Harold Ortin ، واهتم المستشرقون ايضاً برصد اللهجات العربية العامية في مناطق مختلفة من العالم العربي لاسباب مختلفة.... ثم حاول بعضهم رسم الخرائط اللغوية[٢١] كما فعل (كانينو) Kanino مثلاً في دراسته لهجات تدمر وحوران.

ومن هنا يمكن القول بانّ الدرس اللغوي اليوم مدين الى القرن التاسع عشر لما استكمله هذا الدرس عبر هذا القرن من آثار ذلك العصر، ومدين الى الرومانسية الالمانية على وجه الخصوص، وداعيتها الاشهر (همبولت) وما قدّمه الى علم اللغة في زمانه من مفاهيم رائعة للدراسة اللغوية المعاصرة، تلقفها نوابغ القرن العشرين، ليصعدوا بها درجات أخرى من الرقيّ والنضج؛ فظهرت قضايا لغوية جديدة، أو انتقلت هذه القضايا الى مقدّمة الساحة، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: غلبة طابع البحث في اللغويات العامة والوصفية، ودراسة العوامل التي تؤثر في وقت واحد في اللغات، ووضح ايضاً كيف أنّ علم اللغة المتأثر بالدراسات النفسية والاجتماعية الناشئة هو الذي حلّ محلّ علم اللغة الذي تأثر بعلوم الحياة والتاريخ[٢٢].

كما برز تامّل متجدد في الكلام باعتباره مؤسسة اجتماعية، وغير ذلك من الاستقصاءات الدقيقة المحددة، والموجّهة توجيهاً واقعياً ساعدت بدورها على تعجيل حلول ساعة النظريات الشاملة الكبرى، والمدارس اللغوية المتعددة الاطراف والافكار والمناهج، ويُعدّ كتاب (ف. دي سوسور ١٨٥٧-١٩١٣) الموسوم بـ(منهج علم اللغويات العامة) Cours de

(٢١) انظر: نحو مدخل عملي لدراسة اللهجات العربية المعاصرة. د. حسن شقير عبد الجواد من بحوث الندوة العالمية الثالثة للسانيات، تونس ١٩٨٥، ص٢. ولغات البشر: ص١٠.

(٢٢) فصّل القول في هذا (فون جيمب) في بحثه الموسوم بـ(محاولة في نظرية اللغات في المجتمع) انظره في:

Revue des Etudes Ethnographiques et Socilogiq. Juin – Juillet, Paris 1908.

Lingaistique Génerel ، رائد طرق البحث في اللغويات أبان القرن العشرين؛ واللغة في مفهوم (دي سوسور) اساساً ظاهرة اجتماعية ينبغي دراستها في ضوء علاقتها بالمتحدثين بها ومشاعرهم النفسية، وانّها «دارة تشمل المسموع، والملفوظ، والمتصدر، وهي تحرّك قسماً نفسياً، وآخر وظيفياً، انها تستمد قاعدتها من ذاتها... وجميع المؤثرات في اللغة ترجع الى المجتمع والظواهر الاجتماعية»[٢٣]. ولا يختلف هذا المفهوم اختلافاً كبيراً عما نادى به (همبولت) من قبل، إلا أنّ (سوسور) قد ذهب في بحثه الى ابعد مما ذهب اليه (همبولت)، وقاده هذا التمثّل الاجتماعي للغة الى تأكيد حقيقتين:[٢٤]

الاولى: اصراره على إنّ هناك فرقاً واضحاً بين اللغة والكلام، فاللغة نظام تشترك فيه مجموعة من الافراد، وانّها من طبيعة الاجتماع الانساني في المكان والزمان المعينين، تخضع لهذا الاجتماع وحده في حين انّ الكلام مجموعة من الاصوات يقوم متحدّث واحد بصياغتها، وانّه عمل فردي خاضع لمؤثرات شخصية، بمعنى إنّ اللغة عامة والكلام فردي، واللغة تحدد بالهدف الذي ترمي اليه وهو قيامها بدور التواصل معتمدة على اساليب مختلفة تتحدد بانظمة متميزة إلا انّها متقاربة، وللبرهنة على هذه الفرضية يذكر الباحثون[٢٥] قضية الترجمة من لغة الى اخرى، التي تسمح بالتعبير العام الذي تتفق حوله اللغات، بينما الكلام قضية فردية، فنحن عندما نترجم من لغة الى اخرى لا نترجم الكلام بل نترجم اللغة. فالعربية مثلاً يمكنها أنْ تترجم الى أية لغة شئنا، ولكن لا يترجم كلام فرد من الافراد، لانّ اللغة قانون عام اتفاقي قائم على أعراف دأب الناس على استعمالها منذ القديم فاصبحت لغة،

(٢٣) اللغة والاسلوب. عدنان بن ذريل، دمشق ١٩٨٠، ص٤٧.

(٢٤) انظر: علم اللغة العام. سوسور، ص٣٣ و: W. Baskin. English translation Course in: General Linguistics. New York, 1959

ومفاتيح الالسنية: ص٣٤. ولغات البشر: ص١٠.

(٢٥) علم اللغة العام. سوسور، ص٣٢ وما بعدها والبنائية في اللسانيات: ص٢٤٢.

والكلام يختلف من فرد الى فرد، يتحدد باستعمال الجهاز الصوتي، وفيزيولوجية الافراد في التعبير عن مكونات نفوسهم، فهو اذن خاص، ولذلك فنحن نترجم اللغة الى كلام لكن العكس غير صحيح، قال (هلمسليف): «عملياً إنّ لغة التداول اليومي هي الكلام، وكلّ انواع الكلام الاخرى يمكن أن تترجم اليه، وكذلك كلّ اللغات التي لها بنيات لغوية متشابهة»[٢٦].

والثانية: تأكيد (سوسور) مفهوم النظام، فاللغة نظام تشترك فيه المجموعة الناطقة، ومن هنا منح (سوسور) اللغة دقّة جعلتها ترادف تقريباً (قانون)، (للدوال/الرموز)، فللغة نظام خاص يتصرف بموجب قوانين تحرّك حياة الدوال اللغوية، ويسمح بالتعبير وارسال ما تحتاجه المجموعة الناطقة في شؤونها وانشطتها الاجتماعية وبذلك فان (سوسور) «يشير الى أنّ اللغة هي اهمّ شيء في نظام الرموز، وباعطائه الأسبقية للغة يجعل علم اللغة متميزاً الى حدّ ما عن علم (السيمية) او (السيميائيات)»[٢٧].

وقد أكدّ (مارتيني) رأي (سوسور) هذا، واصرّ على ان اللغة الانسانية لا يمكن أن يماثلها نظام تواصلي آخر، فعلى الرغم من الجهود التي بذلت لدراسة لغة الحيوانات، فانّها لم تصل في نهاية المطاف إلا الى خلق فرع جديد

(٢٦) نفسه: ص٢٤٢.

(٢٧) الكلمة مستعارة من اليونانية Sema بمعنى العلامة أو الرمز أو الايجار. ويقال فيها Semantics او Semasiology او Sematic. ويهتم السيميائيون بدارسة العلاقة بين حروف الكلمة ودلالتها من اجل حل الاشكالات التي تحيط بوضع الكلمة، وانهم يدرسون ايضاً حياة العلاقات أو الاشارات او الرموز داخل المجتمع دون تمييز بين ما هو لغوي عن غيره، فيدرسون التقاليد باعتبارها علامات وكل الاشارات... الخ. ومن هنا عدّ بعض الباحثين علم السيمية جزءاً من علم النفس الاجتماعي، بينما أكدّ آخرون امتزاجه وتداخله مع علم اللغة. وهو الصحيح عندنا.
انظر: I. A. Rechards and C. K. Ogden The Meaninf of Meaning. – London 1946.
و. السيمية: المرحوم عباس محمد العقاد. مجلة المجمع اللغوي في القاهرة ١٩٥٩، جـ٩/ص١٤ وما بعدها.

في ميدان علم (السيمية) او (السيميائيات) ولم تتمكن من ادماجها فرعاً من فروع علم اللغة العام.

ـ استمرّ تلاميذ (سوسور) واتباعه من امثال (ماييه) Meillet و (بالي) Bally و (ڤندريس) Vendreyes وغيرهم في دراسة علم اللغويات على وفق منهج وصفي لا تاريخي، مهتمين بذلك في دراسة الصوتيات، والاشتقاق، والتراكيب، اكثر من اهتمامهم بالبحث عن اصل الكلمات ومعانيها، اذ تبدأ الاهتمام باللغات الادبية المكتوبة يبرز، وتبرز معه معطيات فرع جديد من فروع الدراسات اللغوية، وهو علم الجغرافية اللغوية، الذي بدأ يؤتي ثماره عندما ظهرت الاطالس اللغوية العديدة التي تعطي صورة تكاد أن تكون شاملة لتوزيع اللهجات المختلفة التي «نفذت على اسس بحوث ميدانية دقيقة لا على اساس عموميات غامضة»[٢٨].

وظهرت ايضاً نظرية الصوتيات التي تفسّر اللغة وظيفياً على اساس التركيب الصوتي لها، وتتعرض لسلسلة الصوتيات المتناقضة في كلّ لغة، وتنتهي الى دراسة اللغة على وفق منظور علمي صحيح روّجت له حلقة براغ واتباعها، إذ أن اللغة تنشأ وتتطور وحدةً متكاملة لا سلسلة من التطورات الفردية التي لا رابط بينها.

«وقد تولّى (جاكوبسون) في اطار حلقة براغ تنمية الاتجاه البنائي في دراسة الصوتيات، مشيراً الى أنّه لا بدّ أن يقوم على منهج متكامل غير منعزل اذ أن كل حدث صوتي يعالج على أنّه وحدة جزئية تنتظم مع وحدات اخرى في مستويات مختلفة، ومن هنا فانّ مبدأ الصوتيات التاريخية الاول هو أنّ كلّ تعديل لا بد من تحليله في اطار النظام الداخلي الذي تمّ فيه؛ فلا يمكن تصوّر أي تغيير صوتي مع اغفال دوره في النظام اللغوي»[٢٩]. ومن هنا ايضاً يمكن وضع خصائص لغة ما ـ لا على اساس الدور الذي تقوم به الحبال الصوتية أو

(٢٨) لغات البشر: ص١١.

(٢٩) نظرية البنائية في النقد الادبي. د. صلاح فضل، القاهرة ١٩٧٨، ص٩١.

سقف الحلق- وانما على اساس التقابلات بين الاصوات التي تميز الكلمات بعضها من بعض، فكل صوت في لغة ما يدرس على انه مجموعة من الملامح التي تميزه عن بقية اصوات اللغة وتضعه في مكانه من جداول القيم الخلافية في علاقاته بها، وبهذا تصبح بنية الاصوات هي محور الدراسة لا طريقة انتاجها بصفة خاصة.

وظهرت ايضاً المدرسة الامريكية أو مدرسة (الانثروبولوجين) ومن اشهر رجال هذه المدرسة (ادوارد سابير) E. Sapir (١٨٨٤-١٩٤٩) و(بلومفيلد) Bloomfield. (١٨٨٧-١٩٤٩) وغيرهما كثيرون[٣٠].

ولذلك رفض التعامل مع المعطيات اللغوية التي لا تخضع للملاحظة المباشرة. وقد بنى تفكيره هذا على نظريات مفادها ان اللغة سلوك مادي هي لحاء سلوك يجب ان يخضع للقياس المادي. وكأنّه قد تأثر في ذلك بالعلماء النفسيين السلوكيين من امثال J. B.Watson مبتدع علم النفس السلوكي، ونتيجة لذلك اصبح الحدث اللساني عند بلومفيلد عبارة عن سلوك يتمثل في ردّ فعل على مثير خارجي.

وقد كان (سابير) اختصاصياً كبيراً في اللغات الهندية الاوربية، وقد نشر مؤلفات هامة في علم اللغة، واشهر كتبه (اللغة) عام (١٩٢١) الذي وضع فيه نظرية تحاول التدليل على أنّ نظرة الانسان الى العالم الخارجي ترتبط بلغته؛ وقد تمّا تلميذه (بنجامين لي فورف) بعده هذه النظرية، واصبحت تعرف بـ(فرضية سابير-فورف)[٣١] (Sapir — Whorf hypothesis).

(٣٠) منهم: ف.بواس Boas (١٨٥٨-١٩٤٢) صاحب المناهج الوصفية للغات، الذي قدّم فرضيات تتعلق بالعلاقات بين اللغة والمجموعة أو السلالة التي استعملت او تستعمل هذه اللغة، وقام بجهود كبيرة في تسجيل الاشكال اللغوية للغات الهنود الحمر التي قاربت على الانقراض.
انظر: F. Boas. Hand Book of American Indian Languages, 1907-1911
ومنهم ايضاً: هاريس Hairis، وفريز Fries، وهوكت Hoclcet.
(٣١) انظر البنائية في اللسانيات: ١٠٠-١٠١.

ومن افكار هذه الفرضية أنّ اللغة هي التي تفرض على المجموعة البشرية رؤيتها للعالم، وانها -اي اللغة- تؤثّر في عادات المتحدثين بها «فاللغة التي اعتاد الانسان التحدّث بها تؤثر تأثيراً مباشراً في طريقة تفكيره وسلوكه»[٣٢].

وان الفروق اللغوية تعود الى البنية العقلية المختلفة لدى الافراد والجماعات، فقد لاحظ (سابير) في احدى قبائل امريكا وفي مدينة (كاليفورنيا) انّ الرجال والنساء يستعملون اشكالًا نحوية ومعجمية متميزة، بما يتفق وعقليات هذه المجموعات[٣٣].

امّا (بلو مفيلد)، فقد نشر عام (١٩٣٣) كتاباً موسوماً بـ(اللغة) طرح فيه اسس لسانيات تقوم على المنطق السلوكي المتمثل في كون اللغة قائمة على الدوافع وردود الافعال؛ وهذا المنطق جعل (بلومفيلد) لا يعتبر في اللغة إلا مظهرها الحسي. ولعل ابرز ما يعنينا من معطيات المدرسة الامريكية ظهور ما يسمّى بـ(مبدأ الشيوع اللغوي) الذي يقرر اصحابه «إنّ اللغة الصحيحة هي التي يتحدثها الناس لا اللغة التي يعتقد شخص آخر أنّه يتحتم عليهم أن يتحدثوها، فشيوع الاستعمال له قدسية تتضاءل بجانبها قوانين النحويين» وانّ كلّ تجديد وتطوير في اللغة يجب تشجيعه الى اقصى درجة، وانّ لغة العامة واللهجات المحلية لها الاهمية العملية نفسها التي تتمتع بها اللغة الفصحى، وعلى هذا الاساس ينبغي اعتبار اللغات على مستوى واحد بصرف النظر عن انتشارها وعمّا ساهم به المتحدثون بها من اعمال في سبيل تقدّم الحضارة البشرية»[٣٤]. وغير ذلك من النتائج الجانبية لهذا المفهوم الذي لا يتفق في كثير من ابعاده مع المنطق العلمي الذي يفترض الفصل بين النشاط الفردي

(٣٢) لغات البشر: ١٢. وانظر L. Hlelmslev and H.J. Uldalle. Outline of Glossematics. Copennagen 1957. note 4.
(٣٣) انظر: لغات البشر ص٥٦. واللغة والمتجمع. د.وافي، ص١٨.
(٣٤) لغات البشر: ص١٢.

اعني: الكلام، وبين النشاط الاجتماعي اعني. اللغة.

فاللغة هي التي تحمل النتاج الحضاري للامة، وتعكس كثيراً من عاداتها واعرافها، وتقاليدها، وهي الاقدر على البقاء لما تملكه من نظام يمكن من خلاله رصد او تقويم أيّ انحراف لغوي، مما يبقي على نقاء اللغة، ويوسّع دائرتها، ويجعلها قابلة لأن تمنح معطيات الجماعة الناطقة بها الى جماعات بشرية اخرى، وان تنقل اليها نتاج الاخرين، وعلى هذا الاساس فانّ دعوة علم اللغة الحديث الى دراسة اللغة المحكية يجب ألّا تفسّر على انها دعوة لتكريس تلك اللغة لغةً ادبية، بل هدفه التعرّف الى مختلف خصائصها وتراكيبها، كظواهر لغوية قائمة، وليس في هذا الاتجاه العلمي ايّ تجاوب مع الدعوات الى اعتناق العامية او جعلها بديلًا عن اللغة الفصحى. ولا يتعدّى الامر اكثر من دراسة تلك الوسائل التواصلية دراسة منهجية بالمستوى نفسه الذي تدرس به اللغة الادبية ولهذا «يقع دعاة العامة الى خطأ كبير حين يتذرعون ويستشهدون بعلم اللغة ودعوته الى دراسة العامية، فهذا العلم انّما يدعو الى دراسة لغات محكية او لهجات دونما اشارة -ولو بسيطة- الى ضرورة احلال هذه العاميات او اللهجات محل الفصحى، التي لها مجالاتها في الكتابة والادب وغير ذلك من الحالات التي فيها تدوّن اللغة»(٣٥).

وفي القرن العشرين ايضاً ظهرت المدرسة اللغوية الماركسية (٣٦)، التي تتبع تعاليم (نيكولاي مار) الذي قدّم تحليلًا تعرض فيه الى أنّ اللغة بنية اجتماعية فوقية، ومن هنا فإنّه يرفض الحديث عن التطور اللغوي بعيداً عن القفزات الجدلية للتغيرات اللغوية، فنتائج هذه القفزات اللغوية، والنظريات المتعلقة باللغة، والتطور اللغوي، يجب أنْ تؤخذ بعين الاعتبار خطاً متوازياً للتتابع في التكوين الاجتماعي والاقتصادي، وما يلابس هذا التكوين الاجتماعي

(٣٥) اللغة العربية في اطارها الاجتماعي: ص٣٥.
(٣٦) اسسها (رومان جاكبسون) سنة (١٩١٥)، وقد لعب جاكبسون هذا دوراً كبيراً في بلورة الفكر اللساني في موسكو.

والاقتصادي من متغيرات. تؤثر تأثيراً حاسماً وسريعاً في اللغة، فبعد تفجير الجماعة الناطقة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً يمكن في رأيه أن نضع ترتيباً جديداً للغة. ومن هنا فانّ التغيرات التي تقع في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي تقتضي أن يزول البناء اللغوي القديم أو يتغير تغيراً جذرياً. فاللغة على هذا الاساس «ظاهرة اجتماعية طبقية»(٣٧).

وقد نقض (ستالين) بعد ذلك آراء (ماد)، ورأى(٣٨) ان اللغة ليست نتاج فترة زمنية محددة، وانّما هي نتاج المجرى العام لتاريخ المجتمع، والبناء السفلي لعدة قرون. فهي ليست من صنع طبقة معينة بل هي صنع كلّ المجتمع، كلّ طبقاته، انها نتاج جهود مئات الاجيال، وقد وجدت ليس لسدّ حاجات طبقة خاصة واحدة، وانما لسدّ حاجات كلّ المجتمع، بكل طبقاته. ولهذا السبب وُضِعت لغة وحيدةً للمجتمع، عامةً لكل افراده، لغةً مشتركة لكل الشعب، ودورها الوظيفي أنها اداة للتواصل بين ابناء الامة الواحدة، او الشعب الواحد لا اداة في خدمة طبقة على حساب الطبقات الاخرى، وهذا في الحقيقة ما يفسر لنا لماذا يمكن أن تخدم لغة من اللغات، بشكل متساوٍ كلًّا من النظام المتحضر القديم، والنظام الناهض الجديد، دون أن تأخذ بعين الاعتبار وضعهم الطبقي، ويكفي أن تميّز وتساند هذه الفئة الاجتماعية على حساب الفئات الاجتماعية الاخرى، حتى تفقد صفتها في كونها وسيلة التعامل بين سكان المجتمع الواحد، وتصبح لغة خاصة لفئة معينة من المجتمع، وتأخذ بالانحطاط، وتحكم على نفسها بالزوال.

ويضرب (ستالين) مثلًا لتأكيد رأيه اذ يرى أن المجتمع الروسي واللغة الروسية قد عرفا اوائل القرن العشرين نظاماً جديداً في الحياة، أستبدلت في ضوئه المؤسسات السياسية والحقوقية وغيرهما من المؤسسات بمؤسسات جديدة،

(٣٧) لغات البشر: بتصرف، ص١٢.
(٣٨) انظر: الماركسية وقضايا علم اللغة. ستالين. تر.: حنا عبود. دمشق ١٩٥٠، ص٩ وما بعدها.

بيد أنه على الرغم من ذلك ظلت اللغة الروسية من حيث الاساس كما كانت قبل ثورة اكتوبر؛ ويمكن القول الى حدّ ما أنّ معجم اللغة الروسية قد تغيّر، بمعنى انه اغتنى بعدد ملحوظ من المفردات والتعابير الجديدة التي ظهرت متطابقة مع النظام الجديد والثقافة والعلائق الاجتماعية الجديدة، ومتطابقة ايضاً مع تطور العلم، وتعدد اوجه نشاطه، وقد وضح ذلك في تغيير معاني كثير من المفردات، واكتسابها دلالات جديدة، وحذف مفردات اخرى من المعجم وغير ذلك من مظاهر التغير. اما فيما يتعلّق بالارومة الاساسية للمفردات، والنظام القواعدي للغة الروسية وهما يؤلفان اساس اللغة فقد ظلا بعد زوال البنائين الاجتماعي والسياسي القديمين، بعيدين عن الزوال، وعن أن يستبدلا بارومة جديدة، او أن يخضعا لاية تغيرات حاسمة بل بقيا اساساً للغة الروسية الحديثة.

أمّا ما يخصّ التطور اللاحق من لغة العشيرة الى لغة القبائل، ومن لغات القبائل الى لغات القوميات، ومن لغات القوميات الى اللغات الوطنية، ففي كلّ مكان، وفي كلّ مراحل التطور كانت اللغة باعتبارها اداة للتواصل بين سكان المجتمع لغة واحدة مشتركة لذلك المجتمع تخدم افراده على قدم المتساواة بغضّ النظر عن وضعهم الاجتماعي، ويخبرنا التاريخ أنّ لغات هذه القبائل والقوميات لم تكن لغات طبقية، بل لغات عامة لكل القبيلة، او لكلّ القومية، ويفهمها كلّ السكان؛ ومن الطبيعي أن يرافق هذه اللغات جنباً الى جنب لهجات ولغات اقليمية، ورطانات وعاميات، بيد انّها مع هذا كلّه تبقى خاضعة وتابعة للغة الواحدة المشتركة للقبيلة او القومية.

ولا يمكن على هذا الاساس لأي انسان أن ينكر وجود لغة مشتركة لكلّ الشعب، وينكر ضرورة هذا الوجود بالاستناد الى حجج عابثة واهية. والناظر لتاريخ اللغة العربية عبر امتداد زمانها الطويل، يجد انها كانت واحدة وما زالت واحدة، على الرغم من تعدد اللهجات، والعاميات التي تعيش على هامشها، ثم تزول او تنحسر، لانها لا تملك مقومات اللغة المشتركة التي

يفهمها كل الشعب العربي في كل اوصاره واقطاره. ومن هنا فمن الصواب عندنا ما تراه المدرسة اللغوية الروسية من أن اللغة باعتبارها وسيلة التواصل الانساني، كانت وما زالت هي الوسيلة المثلى لكل اعضاء المجتمع الناطق بها. «وانّ وجود اللهجات والالسن الخاصة لا ينفي -بل يثبت- وجود لغة مشتركة لكل الشعب، وما اللهجات والالسن الاخرى إلا فروع من اللغة تابعة لها» (٣٩).

ومن الخطأ الذي يقترفه بعض الباحثين هو عدم تمييزهم بين اللغة والحضارة، فلا يدركون أنّ الحضارة تتغير في المضمون مع كل مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمع، بينما تبقى اللغة من حيث الاساس هي نفسها خلال مراحل عديدة تخدم على السواء كلّا من الحضارتين القديمة والجديدة.

ومما يهمنا من مدارس القرن العشرين اللغوية حلقة براغ (٤٠)، ويعنينا من هذه الحلقة او المدرسة نظرية اصحابها المعروفة بـ(نظرية التقابل اللغوي) Contrastive Language القائلة: «بأنّ اللغات يؤثّر بعضها في بعض عن طريق الاتصال الجغرافي والتاريخي، مما يجعلها تتطور معاً بطرق متشابهة» (٤١) وسنرى في موضع لاحق اقتراب هذا النظر من الحقيقة العلمية. ولا يمكن لنا ونحن نؤرّخ لنشأة علم اللغة الاجتماعي وتطوره ألّا نذكر العالم الانتروبولوجي البولندي (برونزلو مالينوفسكي) Bronislaw Malinowaki (١٨٨٤-١٩٤٢)، فلهذا الرجل فضل كبير في لفت الانظار عام (١٩٣٠) الى مفهوم جديد في اللغة وهو ضرورة البحث عن نظرية تجمع اللغة والمجتمع نظرية (لغوية اثنوغرافية) -كما يصطلح عليها الاعاجم-، فقد ادرك (مالينوفسكي) عندما كان يدرس بعض المجتمعات التي أُصطلح عليها بالمجتمعات (البدائية) Premitive أن دراسته هذه لن تصحّ دون معرفة الوظيفة التي تقوم بها اللغة في

(٣٩) الماركسية وقضايا علم اللغة: ص٢٧.
(٤٠) اسسها عام ١٩٢٦ (جاكبسون) بمساعدة (تروبتسكوي).
(٤١) لغات البشر: ص١٢.

المجتمع، وقرر بعد قيامه بهذه الدراسات في تلك المجتمعات «أنّ اللغة لم تكن وسيلة فقط للتفاهم والتواصل؛ فهي حلقة في سلسلة النشاط الانساني المنتظّم، وإنّها جزء من السلوك الانساني، وهي ضرب من العمل، وليست اداة عاكسة للفكر، وهو يرى أنّ العمل الانساني هو أصل مختلف الظواهر والنظم الاجتماعية»[٤٢].

وتبرز نظريته في الصلة بين العمل واللغة اكثر حين يرى «أن مواقف العمل هي التي تعمل على تنويع اللغة، وهو يسجّل في دراساته مختلف قبائل استراليا وجزر الهند الغربية أنّ للصيادين لغة تختلف موسيقاها عن موسيقى لغة الزراعيين؛ والالفاظ تدور في سهولة وخفة مع العمل اليسير، وتتعقد بتعقد العمل.»[٤٣].

وفي ميدان العوائق اللغوية الاجتماعية، وهو ميدان مهم من ميادين علم اللغة الاجتماعي، ظهر العالم الاجتماعي واللساني والانجليزيّ (بازيل برنشتاين) الذي أدار اكثر بحوثه في (الاخفاق المدرسي واسبابه) ورأى أن التلاميذ المنحدرين من الاوساط الشعبية يتكبدون عائقاً خاصاً يعود الى لغتهم، فالنمط التعبيري المُمارس في المدرسة لا يتلاءم مع النمط التعبيري الذي يسيطر في العائلات المحرومة من الثقافة، ورأى (برنشتاين) وجود طريقتين رئيستين للكلام وضحها بالتجربة التي عرض فيها صوراً متحركة على مجموعة من اطفال المدارس مختلفي الطبقات الاجتماعي، فوجد أنّ بعضهم يحكي بصوتٍ عارفٍ بتلك الرسوم المتحركة اما انسان بالغ يتابع بدورة حكاية تلك الصور في الكتاب، وانّ بعضهم لا يعبّر إلا عن عدد قليل مما تشير وتتصف به تلك الرسوم من معاني وافكار ودلالات، وذلك بسبب تصورهم ان المخاطب يعرف ما يقولون؛ وهذه المحاولة التي لا تشير إلا الى مجموعة قليلة من المعاني

(٤٢) اللغة والمجتمع. رأي ومنهج. د. محمود السعران، القاهرة ١٩٦٣، ص١١. ودراسات في اللغة: د. ابراهيم السامرائي، بغداد ١٩٦١، ص١٩٣.

(٤٣) المصدران السابقان، ص١٢-١٣، و١٩٣.

التي تحكيها الصور تسمّى بـ(القانون الناقص).

اما الاطفال الاخرون الذين يصفون المضمون الكامل لها، ولا يتركون شاردة أو واردة فيها وكانّما كان المخاطب لا يعرف شيئاً عن مضمون ما تعبّر عنه تلك الرسوم فقد سمى (برنشتاين) عملهم هذا بـ(القانون المهيأ).

ويظن (برنشتاين) إنّ الاطفال المنحدرين من الاوساط المحرومة ثقافياً ومادياً ليس لهم سوى استعمال (القانون الناقص)، بينما الاطفال الذين ينتمون الى الطبقات العالية فيستعملون القانونين بسهولة.

ولا يؤكّد (برنشتاين) انّ كلّ طبقة اجتماعية تملك لغة خاصة فحسب، وانّها تتنوع العلامة اللغوية احياناً حسب العائلة، وخاصة فيما تعطية من اهتمام، او لا تعطيه في تربية الاطفال، ويرى في هذا المقام انّ التأثر متبادل بين شكل الخطاب المتعلم، والكلام المستعمل وسيلة اساسية من وسائل الفرد في استبطان القواعد الاجتماعية، ولما كانت هذه القواعد تتنوع من وسط الى آخر نجد تمايزاً كبيراً يقع بين الاطفال حتى قبل دخولهم المدرسة.

وفي الطبقات الراقية يكون الخطاب في غاية الاهمية، اذ أنّ الطفل يعتاد بسهولة على معرفة معاني الكلمات، واعادة صياغة التراكيب الخاطئة.

وابتداءً من عام (١٩٦٤)، اعطيت هذه المسلمة اللغوية في الولايات المتحدة الامريكية برنامجاً تربوياً موجهاً خاصة الى الاطفال السود، بما اكّد تخلّف هؤلاء الاطفال عن اقرانهم لغوياً[٤٤].

وهكذا نجد انّ دراسة القضايا اللغوية في ضوء العلوم الاجتماعية، واتصال علم اللغة بعلوم كثيرة كالجغرافيـة، وعلم السلالات، وعلم النفس والاحصـاء،

(٤٤) انظر: الاسس النفسية للتكامل الاجتماعي. دراسة ارتقائية تحليلية. د. مصطفى سويف، ط٣، مصر. واللغة بين الانسان والعالم الخارجي. د. محمد خير الحلواني. الموقف الادبي ٨٦ دمشق حزيران ١٩٧٨.

والفيزياء، وغيرها، قد ادّى الى نشأة فروع لغوية جديدة لعل احدثها واوسعها هو علم اللغة الاجتماعي.

ومن المفيد أن نذكر هنا انّه في منتصف القرن الماضي عرفت مصطلحات عديدة منها على سبيل المثال مصطلحات[٤٥]:

- وعلم اللغة الانثروبولوجي Anthropological Linguistics.
- وعلم الانثروبولوجيا اللغوية Linguistic Anthropology.
- وعلم اللغة السيوسيولوجي (او علم النفس اللغوي).

وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت مصطلحات ثلاثة مدرّجة على النحو الآتي:

- علم اللغة الاثنولوجي Ethno-liguistics وقد ظهر اواخر الاربعينيات.
- ثم عم اللغة النفسي Psycho-Linguistics. ويسمى ايضاً بـ (علم نفس اللغـــة) او (علم النفس اللغـــوي) Psychology of Language، Linguistic Psychology.
- ثم علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics. ويُسمى ايضاً بـ(علم الاجتماع اللغوي) Sociology of Language.

وهذا التطور في المصطلحات[٤٦] على الرغم مما فيه من اضطـراب اذ نجد في مقابل (علم اللغة الاجتماعي) (علم اجتماع اللغة) او (علم الاجتماع اللغوي) وفي مقابل (علم اللغة النفسي) (علم النفس اللغوي) وفي مقابل (علم اللغة الانثولوجي) (انثولوجيا اللغة)، وغير ذلك من الخلط والتفرع الذي يكاد يكون مستحيلًا عبره تحديد نطاق المادة الموضوعية والمنطلقات المنهجية لكل فرع منها على حدة، ومن ثم اضحى صعباً تعريف التخصص الدقيق بمجرد نعوت وصفية بالغة الاتساع، اقول على الرغم من هذا كله فانّ من الملامح اللافتة للنظر أنّ هذا التمايز يرتبط بنزعة هامة وهي نزعة تكامل المعرفة اللغوية واتساعها موضوعـاً ومنهجـاً، وهـو أيضـاً يسـاعـد على رصـد التطـور في المصطلحات. وعندي انّ الاساس في مثل هذه الدراسات هو اندرس اللغـوي فنحن ندرس الان مثلًا (علم اللغة الاجتماعي) وليس (علم الاجتماع اللغوي)، وندرس (علم اللغة النفسيّ) وليس (علم النفسَ اللغوي) وهكذا مما تُعرّف به هوية كل درس وكل دارس بتحديد دقيق واضح.

---

(٤٥) انظر: اصول البنائية في علم اللغة والدراسات الاثنولوجية. د.محمود فهمي حجازي، بيروت ١٩٧٢، ص١٥١-١٨٠.

(٤٦) انظر في تطور المصطلحات وتعددها: Social Anthopology and Language والانثروبولوجيا الاجتماعية. ا. ريتشارد. تر.: د.احمد ابو زيد، ط٣، مصر ١٩٧٢. والاثنوميثودولوجيا. محمد حافظ دياب. مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الثالث، مصر ١٩٨٤، ص١٥٤-١٥٥.

- المبحث الثالث -
(أهمية علم اللغة الاجتماعي)

إنّ الاهتمام بعلم اللغة الاجتماعي لا يرجع الى اسباب علمية أكاديمية فحسب، ولا يعود ايضاً الى كون «الحياة كلها ترجع الى مسأله كلامنا لانّه وسيلة الاتصال بيننا»[1] والى أنّ اللغة من اقرب الانشطة فاعلية حين نريد استقصاء ملامح مجتمع معين، او نقف على مدى تبلور تقاليده، واعرافه، وتكوّن ذوقه الجمالي، وفعله الحضاري في حركة الانسان على الارض، او أنْ نكشف عن العلاقات الاجتماعية بين الافراد بالتوغل في طيّات اللغة وتحليل وظائفها الانشائية والجمالية، والتعبيرية وغيرها من الوظائف اللغوية[2]، وبيان العوامل المكوّنة لكلّ مسار لغوي، وكلّ فعل تواصلي كلامي، أو الوقوف على الفوارق اللغوية بين الطبقات الاجتماعية، وبيان خصائص الرصيد اللغوي لكلّ منها، واتجاهات هذا الرصيد، واصوله واسباب تطوره سلباً او ايجاباً؛ وتصنيف الأفراد حسب ملكاتهم اللغوية وطبيعة قاموسهم اللغوي، وتصوير ووصف السلوكيات الفردية ازاء اللغة، واستعمالاتها بحسب الاوساط الاجتماعية، والكشف عن مدى تأثّر النظام اللغوي بالنظم الاجتماعية، وغير ذلك مما افرزه هذا العلم من معطيات المحنا الى شي منها فيما مرّ من

---

(١) السيمية: العقاد. ص١٥.

(٢) انظر في وظائف اللغة: الالسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية. د.ميشال زكريا، بيروت ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م ص٨٥ وما بعدها.

صحائف، وسنقف عند غيرها في فصول ومباحث لاحقة.

اقول: لا يرجع الاهتمام بهذا العلم الى تلك الاسباب العلمية الفاعلة فحسب، وانّما تنبع اهمية هذا العلم اليوم من اعتبارات عملية ذات نفع كبير على اللغات، وعلى الجماعات، وعلى الامم. ومن هذه الاعتبارات العملية نذكر(٣) سعي هذا العلم الى أنْ يمدّ التحليل اللغوي بُعداً يتجاوز المدى الذي بلغه علم اللسانيات الحديث، وذلك فيما يستدركه علم اللغة الاجتماعي على علم اللسان الحديث من مسائل كثيرة، منها على سبيل المثال، اغفاله للسياق الذي تستعمل فيه اللغة، ثم يتطلع هذا العلم من وراء ذلك الى منهج في درس اللغة يستشرفها من خلال بعد اوسع، ويحاول أن يبين كيف تتفاعل اللغة محيطها، ويتمثل هذا البعد الاوسع في النظر الى العوامل الخارجية التي تؤثّر في استعمالنا اللغة، وابرزها التشكيل الاجتماعي، فان المتغيرات الاجتماعية كطبقة المتكلم، ومركزه، وطبيعة الموقف الذي يتكلّم فيه أرسمي هـو أم غير ذلك تؤثر ـ كما سنرى ـ في استعمالنا اللغة تأثيراً معيناً.

ومن الاعتبارات العملية نذكر ايضاً، المشكلات اللغوية في المجتمعات النامية اذ تعيش اكثر هذه المجتمعات على الصعيد الخارجي داخل تعقيدات العصر الزاخر بالاحداث، والتحديات الاستعمارية، والصراعات الفكرية التي تحاول أنْ تطمس شخصية الشعوب الناهضة، وايقاف مسيرتها نحو الرقي والاستقلال الفكري والسياسي، وذلك بوأد لغاتها وصولا الى مسخ تراثها وتقاليدها، باعتبار أنّ اللغة محور حياة اصحابها اجتماعياً، وفكرياً، ووجدانيا.

أمّا على الصعيد الداخلي فان هذه المجتمعات تعيش احد مظهرين لغويين هما:

امّا ازدواجية لغوية (Diaglossia).

وإما ثنائية لغوية (Bilinguelsim).

(٣) انظر: الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية. د. نهاد الموسى من بحوث الندوة العالمية الثالثة في اللسانيات. تونس ١٩٨٥، ص٢.

أما الازدواجية اللغوية فانها قائمة بين اللغة الام، أعني اللغة القومية وبين رموز خطاب طارىء، او مصنوع، او دخيل، ومع علمنا بانّ وجود اكثر من (لهجة) او (لغة) او (اسلوب) في الاداء اللغوي للامة او الشعب المعنيين هي مسألة طبيعية عندما تكون هذه النوعيات او (اللهجات والاساليب) تمثّل ظاهرة نفسية متصلة ومترابطة في كيان لغوي واحد كما هو الحال في اللغة الدارجة او العامية في العربية او الأنكليزية مثلًا واللغة الادبية او ما يسمى بالقياسية (Standard)، وان ظاهرة الازدواجية ظاهرة طبيعية جاءت نتيجة لموقف اجتماعي خاص هو غاية في التعقيد اعني به ظاهرة التطور اللغوي (Evolution)، وانّ لهذه الازدواجية اللغوية مردوداتها الايجابية المتمثلة بالمحافظة على نوعية عليا موحَّدة وموحِّدة داخل المجتمع اللغوي والمحافظة على تراث حضاري مشترك مفهوم بدرجة لا بأس بها، يجمع الاجيال المتعاقبة، وأنّ لها ايضاً مردودات سلبية تتمثّل في العبىء الذهني الزائد لنظامين او انظمة لغوية متباعدة داخل اللغة الواحدة زيادة على البطؤ في عملية التفكير لدى الافراد والجماعات بسبب كون العمل الفكري الجاد للامة كلها انما يجري، ويجب ان يجري ـ باللغة الفصحى التي تمثل ظاهرة نفسية اقل عمقاً من العامية اقول على الرغم من علمنا بهذا كلّه فانّا نرى ضرورة حسم الصراع اللغوي هذا لصالح اللغة القومية. والعمل الجاد على تضييق الهوة بين رموز الخطاب داخل المجتمع الواحد أو الامة الواحدة، وذلك بتقريب العاميات واللهجات الى ابعد الحدود من اللغة المشتركة، ولعل وسائل الاعلام في المجتمع المعين جديرة بهذا الفعل البناء.

امّا (الثنائية اللغوية)(٤) فهي ظاهرة ذات ابعاد متعددة كلٌّ بعد منها

(٤) يقصد بثنائية اللغة Bilinguisme، وجود لغتين على مستوى واحد عند الافراد او عند مجتمع معين. ويبدو أنّ هناك خلطاً لدى بعض الكتاب بين ما يسمى بثنائية اللغة والـ(diglossia) الذي يجب أن يترجم بـ(الازدواج اللغوي). اذ يُستعمل المصطلحان مترادفين. وذلك غير صحيح. فمشكلة ثنائية اللغة هي غير ازدواجية اللغة، وان كان كلاهما داخلًا ضمن معالجات علم اللغة الاجتماعي.

متغير، وترتبط درجة التغير بالمكان الذي يوجد فيه الشخص الثنائي اللغة، وبمصدر الثنائية اللغوية، وبتفوق اللغات من حيث المرتبة، وبوظيفة اللغات الاجتماعية، وتنعكس تغيرات هذه الابعاد على الفرد واللغة والمجتمع معاً.

وبغض النظر عن أسباب هذه الثنائية اللغوية[٥]، فإننا نرى ضرورة أنْ تعمل الشعوب والامم على الاستقلال اللغوي كما هي تعمل على الاستقلال السياسي والاقتصادي، لاننا لا يمكن أن نتصور شخصية قومية لامّة من الامم او لشعب من الشعوب له مقوماته ومعطياته الحضارية وله امكانية التفوق العلمي والادبي في ظل ثنائية لغوية، باعتبار أنّ التعدد اللغوي يتعارض والنهضة الحضارية على الرغم من أنّ أمْر النهوض الحضاري لامة من الامم لا يتعلق باللغة الام نفسها من حيث كونها لغة، وانما يتعلّق الامر باهل تلك اللغة، ومدى فعلهم الحضاري ونفوذهم العلمي، والادبي، والسياسي؛ ومن هنا الاخطر على امّة عنيت بلغتها القومية، لانّ هذه العناية هي مفتاح الاستقلال السياسي والحضاري، والمنفذ المفضي الى الحرية، والتفريط في مثل هذه الحقيقة يعنى ضرباً من الانحلال والضياع، وخلق الشخصية القلقة المسحوقة التي يمكن أنْ ترهنَ نفسها عند كلّ غريب، وتشلك ما يشار عليها من سبيل دون وعي أو حضور.

زيادة على ذلك فانّ الثنائية اللغوية مسؤولة عن الجمود الحضاري للمناطق التي توجد فيها، ويرى علماء النفس أنّ الثنائية اللغوية المبكرة تثير بعض الاضطرابات اللغوية لدى الافراد، ويريد هؤلاء قولهم ان الثنائية اللغوية قد تنسي الفرد نهائياً لغته الام كما هو الحال في اغلب العائلات المهاجرة[٦].

ولهذا كلّه يعمل علماء اللغة عموماً، وعلماء اللغة الاجتماعيون على وجه الخصوص من اجل تأكيد هذه الحقائق، ووضع الحلول الكفيلة للمشكلات

(٥) انظر تفاصيل هذه الاسباب ونتائجها في:
الالسنية (علم اللغة الحديث): ص١٦٥ وما بعدها.

(٦) انظر: اللغة والمجتمع: د. وافي ص١٣٣. والألسنية (علم اللغة الحديث): ص١٦٧.

اللغوية في المجتمعات النامية، بما يعزز من مكانة اللغة القومية الواحدة، بالاستعانة بالمؤسسات التعليمية والثقافية على اختلافها وبوسائل الاعلام المرئية والمسموعة وغيرها.

وتنبع اهمية علم اللغة الاجتماعي من دوره في حلّ كثير من مشكلات التعليم، والعلاقات الاجتماعية في المجتمعات المتقدّمة، لما للغة من دور فاعل في الافصاح عن العلاقات الاجتماعية والثقافية للمجتمع، بل لعلها الوسيلة الوحيدة للافصاح عن هذه القيم وتلك العلاقات زيادة على كونها القناة التي يتعلم بها الافراد معارفهم ويبنون بواسطتها شخصياتهم، ويحققون نجاحاتهم العلمية والعملية.

ولهذا يصرّ علماء اللغة الاجتماعيون على دراسة الظواهر اللغوية ضمن اطار اجتماعي كليّ. ولقد اجريت دراسات على مناطق اجتماعية تعيش (ثنائية لغوية) انتهت الى اكتشاف العوامل التي تؤثر على تحوّل الشخص من لغة الى اخرى، وقد اعتمدت تلك الدراسات على وسائل استبيان واحصاء، من اجل الوصول الى العوامل الاجتماعية الكليّة التي لها تأثير على اختيار الناس لغةً ما؛ ومن ثم الوصول الى ايجاد (نظرية) تصلح لدراسة انواع الاحداث الكلامية[٧].

وتبرز اهمية علم الاجتماع فيما تبرز في دوره الفاعل في دراسة وسائل الاتصال المختلفة، على اساس أنّ الاتصال هو الوسيلة الهامة التي تنقل بها الحضارة من جيل الى جيل، وإنّ اية حضارة لا تفصح عن نفسها إلا بطرق الاتصال فيها، ومن ثم فان دراسة هذه الطرق في مجتمع ما توقفنا على ابعاد كيانه الحضاري، بما يؤكد مقولة بعض العلماء «إنّ اللغة هي الحضارة وإنّ الحضارة هي اللغة»[٨].

(٧) انظر:
– Social Anthropology and Langauge: p. 110
– Essai d'une Théorie des Langues: p. 32.

(٨) – Social Anthropology and Language: p. 140

فالحضارة تكون والحال هذه بنية (Structure)، وان الاتصال هو العمليات (Processes) التي تعيش فيها هذه البنية، فاللغة تكشف قيم الحضارة، وتدلّ على انماط العلاقات الانسانية وتحمل ايضاً طوابع الحيوات التي يحياها الناطقون.

ويظهر ذلك ـ فيما يظهر ـ بين نوعية لغوية واخرى.

وسنكشف عبر الفصول اللاحقة ما لهذا العلم من اهمية كبرى في الكشف عن العلاقات الاجتماعية بين اللغة كإنتاج حضاري وبين المجتمع نفسه، وكذلك وظيفته في البحث عن الفوارق اللغوية بسبب الحواجز الجغرافية، وصعوبات التنقل التي تؤدي الى عزل الجماعات بعضها عن بعض والى تباين لغوي.

ولا تقتصر مهمة هذا العلم على تلك النواحي فحسب، وانّما تتعداها الى البحث عن اهم الفروع اللغوية الاخرى التي تمتُ بصلة وطيدة الى علم اللغة واللسانيات؛ بما يؤكدّ حيويّة هذا العلم ـ واثره في رقي علم اللسانيات بشكل عام.

إنّ علم اللغة الاجتماعي اليوم هو عصب الدراسات اللغوية وصلبها وانّ الدراسات اللغوية المستقبلية ستتخذ كما يأمل بعض الباحثين المعاصرين « في معظمها طابعاً لغوياً اجتماعياً »[٩]، وقد كتب (بالي) Baly السويسري سنة ١٩١٣ قائلًا: « إنّ مشكلة علم اللغة المستقبلية ستكون الدراسة التجريبية لوظيفة الكلام الاجتماعية »[١٠].

فقد اصبحت دراسة الوظيفة الاجتماعية للغة اليوم مسألة هامة تتناسب مع النحو الفجائي للغة في مجالها وقوتها[١١].

---

(٩) M. A. K. Halliday, Grammar, Society and Noun, London. H. K. Lewis for University College, London 1967, p. 5.

(١٠) مقدمة لدراسة فقه اللغة: ص٢٨-٢٩.

(١١) اللغة في المجتمع: م. م. لويس. تر.: د. تمام حسّان، القاهرة ١٩٥٩، ص٢٨١.

إن الفصول اللاحقة ستحدد ملامح هذا العلم في الدرس اللغوي عند العرب، وتبرز معطيات اللغويين العرب في كلّ ما يهتم به هذا العلم وما استطاع اصحابه اليوم من تنظيره وتأصيله.

الفصل الثاني

ـ اللغة ـ

(نشأتها، ووظيفتها، وطبيعتها الاجتماعية)

ـ المبحث الاول ـ
(نشأة اللغة ووظيفتها)

من المعروف أنّ لاكثر اللغويين، قدماء ومحدثين رأياً في مسألة البحث في نشأة اللغة، يتلخص في أنّ مثل هذا البحث غيرُ مجدٍ، باعتباره حدثاً من احداث ما قبل التاريخ؛ واذا كان الانسان لم يجمع في يده الآن أطراف التاريخ جميعها، فأولى به أن يُفرغ جهده فيما ينفعه. ويجد له من الدلائل ما يفسّره، فامّا محاولة الضرب في المجهول كما هو الحال في البحث عن نشأة اللغة الاولى فلن تصل بنا الى شيء سوى التخمين والافتراض والنتائج الى لا تصيب الحقيقة كما يسلّم بها الجميع. وهو ما ينبغي أن تتنزه عنه البحوث اللغوية التي يفترض فيها أن تتثبت بالموضوعية، وتتجه الى وصف الظواهر الواقعية في اغلب الاحيان[1]. ولهذا يرى أصحاب هذه النظرة أنّ قضية نشأة اللغة فيما قبل التاريخ قضية تهم علم الانسان (الانثروبولوجيا) او (علم الاجتماع)، او علم الأرض (الجيولوجيا) اكثر مما تهمّ اللغويين.

ولكننا نرى أنّ من المفيد لبيان اهمية اللغة، وقدم مشكلتها، وارتباطها بالانسان، باعتبارها حادثة عنه، ومن اجله أنْ نرددَ ذلك السؤال الابدي التقليدي: كيف نطق الانسان الاول؟

ذلك السؤال الذي تضاربت في الاجابة عنه الاراء، وتعددت المذاهب، ما

(١) انظر: دراسات في فقه اللغة: د. صبحي الصالح. بيروت ١٩٧٠ ص ٢٢ ـ ٢٣.

بين قائل بأن اللغة (الهام رباني) أو انها (مواضعة واصطلاح اجتماعي) او أنها (غريزة كلامية) او (محاكاة لاصوات الطبيعة)[٢].

انّ وقوفنا عند هذه الأراء «امر لا يخلو من فائدة، كما انّه ضرورة منهجية لا ينبغي تجاهلها»[٣] لمن اراد أن يبين مدى ارتباط اللغة بالانسان، وفعلها في المجتمع الناطق بها.

ولقد كان الاغريق اول من تناول جوهر اللغة بالبحث والدراسة، وبينوا الفروق بين جوهرها، ومظهرها الخارجي الذي يمكن ملاحظته، فحين كتب (افلاطون) عام (٣٦٦ ق.م) محاورته التي سماها Le Cratyle (قراطيلوس)، صارت بمثابة تلخيص لاهم الاراء الاولى الباحثة عن علاقة اللفظ بالمعنى، ولقد اختار (افلاطون) التسمية نسبة لاحد تلاميذه (هيراقليطس) وهو (كراتيل)، الذي يرى أن لا وجود لقانون طبيعي دائم، فكلّ شيء متغير. وفي المحاورة يزعم (كراتيل) أنّ الاسماء تستمدّ من طبيعة الاشياء، فهناك في الطبيعة اسم صحيح لكلّ كائن في الحياة، واللفظ الذي يطلق على الماهية كان لا يصدر إلا بعد اتفاق، ففي الطبيعة ثمة طريق للتدليل على المسميات وذلك هو الطريق الصحيح لكلّ الناس.

اما محاورة (هرموجين) Hermogene ـ احد تلاميذ (سقراط) ـ فانّه يرى أن الاسماء علامات تنشأ عن المواضعة، وينفي أن يكون في طبائع الاشياء ما يحتّم اختيار اسم دون غيره، ويضرب المثل بقدرة السيد على تغيير اسم عبده الى اسم جديد، ومع ذلك لا تفقدُ الدلالات التي في ذهن السيد شيئاً من وضوحها، ويدخل (سقراط) ليوفق بين المتحاورين مقرراً: ان مجموعة الاسماء كانت مواصفة عامة، أو حدثت بمحض الصدفة، كما أنّ التكرار، وطول

(٢) انظر: نشأة اللغة وتطورها في مباحث اللغويين العرب والاجانب. د. هادي نهر مجلة الجامعة المستنصرية العدد الرابع ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩ ص ٧ وما بعدها.

(٣) في علم اللغة العام: د. عبد الصبور. شاهين. ص ٣ بيروت ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠ ص ٨٢.

الممارسة هما محدثا الالفة في ذهن الانسان والالفاظ، حتى لتختلط الاسماء أحياناً بالاشياء الخالدة[٤].

وقد تبنّى (ارسطو) مبدأ المواصفة عندما عالج اللغة على انّها رابطة اجتماعية وانّ لها معنى اصطلاحياً ناجماً على اتفاق أو تراض بين البشر.

ويتفق اغلب علماء اللغويات الوصفيين اليوم هذا المفهوم للغة بوصفها تقليداً اجتماعياً اعتباطياً، وعلى راس هؤلاء (سوسور)، فهو وإنْ قرر في احدى مقولاته «انّ موضوع علم اللغة الصحيح هو اللغة في ذاتها، ومن اجل ذاتها»[٥] فقد اكّد من جانب آخر «انّ اللغة اساساً حقيقة اجتماعية» ينبغي دراستها في ضوء علاقتها بالمتحدثين بها ومشاعرهم النفسية»[٦] فاللغة ليست ضرورة للحياة فحسب، وانما هي ضرورة للاجتماع لانها نتاج الجماعات، ومقتضيات العمران، تنشأ في احضان المجتمع يوم يحسُّ الناس بالحاجة الى التفاهم والتواصل فيما بينهم «فاللغة ـ وهي الواقع الاجتماعي ـ بمعناه الاوفى، تنتج من الاحتكاك الاجتماعي، ولهذا صارت واحدة من اقوى العرى التي تربط الجماعات، وقد دانت بنشوئها الى وجود احتشاد اجتماعي»[٧] وقد لخص العالم (اولبرت) وظائف اللغة[٨] بالحقائق التالية:

اولاً: إنها تجعل للمعارف والافكار البشرية قيماً اجتماعية.

(٤) اللغة بين العقل والمغامرة ص ٤٢، لغات البشر: ص ١٧.

(٥) الاثنوميثولوجيا: ص ١٥٥.

(٦) انظر: علم اللغة العام سوسور ص٢٤.؛ وتاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين: ص ٩١؛ ولغات البشر: ص ٢.

(٧) اللغة. فندريس. ص٣٥.

(٨) عنينا هنا بالوظائف التي تباشر الحياة الاجتماعية، وهناك وظائف اخرى غير التي ذكرها (اولبرت) منها ما يباشر حياة الانسان كالوظائف التعبيرية (او العاطفية عند بعض الكتاب) والوظائف الجمالية (او الانشائية)، ومنها وظائف لا تباشر ما نحن بصدده، سمّاها بعض الكتاب بالوظائف (وَرَألسنية). انظر تفاصيل ذلك في: مفاتيح الالسنية: ص ٦٩ وما بعدها. وانظر ما ذكره (اولبرت) في: اللغة في اطارها الاجتماعي. مصطفى لطفي بيروت ١٩٧٦ ص ١٣.

وثانياً: إنّها تحفظ التراث الثقافي، والتقاليد الاجتماعية جيلاً بعد جيل.

وثالثاً: إنّها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد تعينه على تكييف سلوكه وطبعه حتى يتلاءم هذا السلوك وتقاليد المجتمع واعرافه وسلوكياته في الحياة.

ورابعاً: إنّها تزود الفرد بادوات التفكير. وما وصل المجتمع البشري البصير الى ما هو عليه من تحضّر وتقدّم بدون التعاون الفكري لتنظيم حياته.

وقد كان للعرب في هذا المجال رأي يتمّ عن وعي وادراك عميقين للعلاقة الكافية بين اللغة والمجتمع، فقد عرّف (ابن جني) (ت. ٣٩٢ هـ) اللغة بأنها «اصوات يعبّر بها كلّ قوم عن اغراضهم»[٩].

وهذا التعريف الجامع الشامل الموجز يسبق فيه (ابن جني) ما جاء به غيره بمئات السنين، لانّه يعرض فكرة الاصوات اللغوية، سواء كانت نظرتنا اليها انّها غريزية أم مكتسبة، وسواء المحنا انّها رموز أم اجزاء من رموز. كما أنّ (ابن جني) يعرض في تعريفه الموجز هذا وظيفة اللغة في المجتمع حين تعبّر عن آراء كلّ قوم واغراضهم وشؤونهم الحياتية «وذلك (حدّ) يقع تحت النظر المنطقي الذي يفترض (وضعاً) مسبقا او منطقياً في كلّ نظر لغوي، وهو ايضاً لا يقع تحت الحاح ضيق فيشدّ حدّه الى لغة معينة، ولكنّه اطلاق اصيل يذهب اليه، يجعل من حدّه وعاءً يتّسع لكثير مما اضافه اللغويون من بعد»[١٠].

فالقوم عند (ابن جني) يعني المجتمع، وخاصة أن لفظة المجتمع لم تكن مستعملة في هذا المعنى الذي نعنيه الآن، وانما كان العرب يستعملون القوم للدلالة على المجتمع كما نفهمه في العصر الحديث[١١].

---

(٩) الخصائص: ابن جني. حققه. محمد علي النجار ط ٢ بيروت ج١/٣٣.

(١٠) اللغة بين العقل والمغامرة. ص ٢٧.

(١١) انظر: فقه اللغة في الكتب العربية. د. عبده الراجحي بيروت. ١٣٩٢ - ١٩٧٩. ص ٧١. وفي اللسان مادة (قوم): القوم: الجماعة من الرجال والنساء جميعاً، وقوم كلّ رجل شيعته وعشيرته.

واشارة (ابن جنّي) هذه زيادة على انّها تحدد اتجاهاً علمياً اقرب الى الواقع اللغوي يؤثر في منهج (ابن جنّي) في تناول الظواهر اللغوية على مستوياتها المختلفة فانّ أيّ متوسّم بالاهتمام بالدرس اللغوي يقف على اهمية مقولة (ابن جنّي) في مثل هذا المقام، لانّها تدلّ على أنّ علماء العربية قد لحظوا ملحظاً ضرورياً، وفهموا قانوناً اساساً من قوانين حياة اللغة، ونعني به أنّ اللغة في جوهرها شكلّ من اشكال السلوك الاجتماعي. ذلك انّها لا تكون الّا حيث يكون المجتمع، ومن ثمّ يمكن فهمها باعتبارها ظاهرة اجتماعية مع ما يمكن أنْ يترتب على ذلك من منهج.

وقد قدّم (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) (١٥٠ هـ - ٢٥٦ هـ) في هذا المجال حقائق من علم اللغة الاجتماعي جديرة بالاثبات، حقائق ما يزال الباحثون الاوربيون يقلّبون احتمالاتها على جميع الوجوه الممكنة بعد الجاحظ باكثر من الف عام. فقد بيّن (الجاحظ) ان ما نسمّيه الكلام عند الانسان لا يتوقف على مجرد القدرة على استعمال الصوت الطبيعي في الصياح أو تقطيعه الى حروف ذات مخارج متميزة، فذكر حيوانات شتى اصواتها تشبه صوت الانسان على نحو يقلّ أو يكثر حتى وصل في النهاية الى الببغاء ثم السنانير، وفي حديثه عن هذه الاخيرة لا يتردد في اعطاء توجيه اساسه التجربة المباشرة والاستقصاء والاحصاء، يقول: «وزعم صاحب المنطق - يعني (ارسطو) - أنّ كلّ طائر عريض اللسان، فالافصاح بحروف الكلام منه اوجه، ولابن آوى صياح يشبه صياح الصبيان، وكذلك الخنزير... فاذا صرت للسنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير، ومتى احببت أن تعرف ذلك فتسمّع تجاوب السنانير، وتوعّد بعضها لبعض في جوف الليل، ثم احصِ ما تسمعه، وتتبعه، وتوقف عنده، فانّك ترى من عدد الحروف ما انْ كان بها من الحاجات والعقول والإستطاعات، ثم الفتها صارت لغة صالحة الموضوع، متوسطة الحال، واللغات انما تشتد، وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها، وعلى قدر كثرة العدد وقلّته، وعلى قدر مخارجها

وخفتها، وسلسها، وتعقدها في انفسها، كفرق ما بين الزنجي والخوزي، ان الرجل يتنخس في بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلم بعامة كلامهم، ويبايع الخوز، ويجاورهم فلا يتعلّق منهم بطائل. والجملة أن من أعون الاسباب على تعلم اللفظ فرط الحاجة الى ذلك» و«على قدر الضرورة اليها في المعاملة يكون البلوغ فيها، والتقصير عنها، ولولا حاجة الناس الى المعاني، والى التعاون والترافد لما احتاجوا الى الاسماء»(١٢).

فالجاحظ يشترط أن يكون وراء النطق ما يسمّيه (بالحاجات) وهي البواعث الاجتماعية والنفسانية والفكرية للتعبير، وكذلك ما يسمّيه (بالعقول)، وهي القدرات المفكرة المدبّرة التي تستطيع الملاحظة والاستنباط، وتعمل بدأب على كشف مجاهل الكون؛ واخيراً ما يسمّيه (بالاستطاعات)، وهي الارادة التي تجعل المتكلم لا ينطق بباعث الغريزة أو الحالة الشعورية القويّة الموقته فحسب، ولكن كلّما راى ذلك مناسباً له مرغوباً منه فيه.

ولا عجب - من ثمّة - أن نقرر في ضوء الحقائق العلمية التي يقررها (الجاحظ) انّه «يكاد يعطينا للغة نفس الحدود والرسوم التي اعطانا اياها الامريكي (ادوارد سابير) E. Sapir في وقتنا المعاصر. (فالجاحظ) يرى انّ اللغة ليست مخارج الحروف فقط، وانّما هي القدرة الانسانية الارادية المفكرة المعبرة في مجتمع، وهو تقريباً ما يستخلص من تعريف (سابير) القائل: «إنّ الكلام وسيلة انسانية خالصة، وغير غريزية فيه اطلاقاً، تمكّن من توصيل الافكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية على وجه التغليب والتعميم تصدرها اعضاء النطق بصورة ارادية وذلك باندفاع الهواء خلالها من الداخل الى الخارج»(١٣).

(١٢) الحيوان. ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تح.: عبد السلام هارون. بيروت ١٣٨٨-١٩٦٩. جـ٥ ص٢٨٩ و٢٠١.
وانظر: اللسان والانسان مدخل الى معرفة اللغة. د. حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧١، ص٤٥.
(١٣) E. Sapir. Language, New York, Harcourt, Brace and Company. 1921 p. 7.

ويذكرنا مفهوم الكلام عند (الجاحظ) ايضاً بقول (باسبرسن) الذي يذكر فيه انّ «مهمة الالفاظ هي اشباع الرغبة الاجتماعية عند الانسان بهذه الوسيلة»(١٤).

بل انّ (الجاحظ) يقدّم ملاحظات دقيقة في المقارنة بين الفصائل المختلفة من اللغات فيرى «أنّ لغات البشر تتفاوت صعوبة وسهولة لا في ذاتها فقط، وانّما بالنسبة للغريب الذي يريد أن يتعلمها على الخصوص، فيقول: إنّ الالفاظ تصعب عليه كلّما ازداد جهله بمعناها الدقيق واستعمالها، وكذلك يزيد من صعوبة اللغة الاجنبية كثرة الفاظها؛ وهي اخيراً تتفاوت في الصعوبة بحسب امكان نطق حروفها بسهولة نطقاً صحيحاً، وضرب مثلاً لذلك بالفرق بيّن سرعة تعلّم تجّار الرقيق والنخاسين لغة الزنوج. لسهولة متناولها، بينما يقضون الوقت الطويل مع الخوز فلا يستطيعون تعلّم لغتهم، وينتهي اخيراً باقرار مبدأ عام ما يزال هو المبدأ السائد في تعليل الظاهرة اللغوية حتى الآن، وهو أنّها ظاهرة اجتماعية فبحسب حاجة الانسان الى اللغة يكون اكتسابه لهذه اللغة، وهو لا يحتاج اليها إلا اذا كان محتاجاً الى الاتصال بالمجتمع الذي يتحدّث بها، وهذا ما ينصّ عليه بقوله: «والجملة انّ من اعون الاسباب على تعلّم اللفظ فرط الحاجة الى ذلك». ويزيد الجاحظ الامر وضوحاً فيربط سبب وجود الكلام بسبب وجود الحاجة اليه فيقول: «الحاجة الى بيان اللسان حاجة والدة وراهنة ثابته»(١٥) ولهذا اشترط (الجاحظ) على الترجمان ان «يكون بيانه في نفس الترجمة في نفس علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون اعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها»(١٦)، ولا بد له أنْ «يعرف ابنية الكلام، وعادات القوم، واسباب تفاهمهم»(١٧).

(١٤) اللغة بين العقل والمغامرة: ص١٤٦.
(١٥) الحيوان: ٥/٢٩٠ و١/٤٨. على التوالي.
(١٦) نفسه: ١/٧٦.
(١٧) نفسه: ١/٧٨.

وقد وضحت العلاقة بين اللغة والمجتمع، وفعلها فيه ابلغ الوضوح عند العالم العربي (سيف الدين الآمدي) (ت. ٦٣١ هـ) بقوله: «ولما كان كلّ واحد لا يستقلّ بتحصيل معارفه بنفسه وحده دون معين ومساعد له من نوعه دعت الحاجة الى نصب دلائل يتوصل بها الى معرفة ما في ضمير الآخر من المعلومات المعينة له في تحقيق غرضه...» ولذلك استخدم الانسان «ما يتركب من المقاطع الصوتية التي خُصّ بها نوع الانسان دون سائر انواع الحيوان عناية من الله تعالى به، ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية حدثت الدلائل الكلامية، والعبارات اللغوية»[١٨].

وتتضح من خلال قول (الآمدي) هذا جملة من الحقائق العلمية التي تقرّها اليوم احدث الدراسات اللغوية، يمكن اجمالها بالآتي[١٩]:

اولاً: إنّ اللغة دلائل يتوصل بها كل واحد الى معرفة ما في ضمير الآخر. وكان قد اكّد هذه الحقيقة من قبل العالم العربي (فخر الدين الرازي) (ت. ٣٢٢ هـ) فرأى أنّ «السبب في وضع الالفاظ انّ الانسان الواحد وحده لا يستقلّ بجميع حاجاته بل لا بُدّ من التعاون، ولا تعاون إلا بالتعارف، ولا تعارف إلا باسباب؛ كحركات، او اشارات، أو نقوش، أو الفاظ توضع بازاء المقاصد؛ وايسرها، وافيدها، واعمها الالفاظ. اما انّها أيسر، فلأن الحروف كيفيات تعرض لاصوات غامضة للهواء الخارج بالنفس الضروري، والمحدود من قبل الطبيعة دون تكلّف اختياري، واما انّها أفيد فلأنّها موجودة عند الحاجة معدومة عند عدمها، وامّا انّها اعمها، فليس يمكن أن يكون لكلّ شيء نقش كذات الله، او إلية اشارة كالغائبات.. ويمكن أن يكون لكلّ شيء لفظ، فلما كانت الالفاظ أيسر، وافيد، واعمّ صارت موضوعة بازاء المعاني»[٢٠].

(١٨) الاحكام في اصول الاحكام: سيف الدين الامدي. مطبعة المعارف مصر ١٣٣٢هـ-١٩١٤. ١/١٦-١٧.

(١٩) انظر: اللغة بين العقل والمغامرة: ص١٤٧.

(٢٠) المزهر في علوم اللغة وانواعها. للسيوطي شرحه وضبطه وعنون موضوعاته وعلق عليه: محمد=

ومهمة اللغة التي ذكرها (الآمدي)، وأكّدها (الرازي) حقيقة علمية يقول بها علماء اللغة المحدثون وفي طليعتهم علماء اللغة الاجتماعيون، فاللغة ليست واقعاً ذهنياً مجرداً لا رابط يربطه بالواقع الاجتماعي، فللكلمة قوتها الخاصة في اداء الاعمال وانجازها، وهي - اعني الكلمة - إن فقدت فعلها في الحياة الاجتماعية فلا يمكن لعمل انساني أن ينجز، أو أن يُؤدّي على النحو الذي تكون فيه تأدية العمل فاعلة في حركة الانسان داخل المجتمع الذي يعيش. ومن هنا فقد أنفقت المدرسة الاجتماعية مع المدرسة العقلية في أنّ الكلمة (اصغر نواقل المعنى) فلا خلاف في الدلالة ذاتها؛ بل في الحدود الدنيا والعليا لهذه الدلالة. يقول (باسبرسن) - احد رواد المدرسة اللغوية الاجتماعية - «انّه من المستحيل أن نصل الى فهم تام لطبيعة اللغة اذا حصرنا اهتمامنا في الوظيفة العقلية للغة بوصفها وسيلة لنقل الافكار وتوصيلها الى الغير قول غير سديد، بل هو قول ينافي الحقيقة، ذلك لأنّ استعمال اللغة للتعبير عن الافكار ونقلها وتوصيلها انما ينطبق على رجال الفكر والفلسفة، وامثالهم في اللحظات التي يكونون فيها مشغولين باعمالهم العلمية التي تحتاج الى تفكير عميق»[٢١].

ثانياً: إنّ وظيفة اللغة كما يراها (الآمدي) وظيفة اجتماعية، ولهذه الوظيفة نصيب اكبر من الدراسات اللغوية اليوم.

ثالثاً: إمتياز الانسان بهذه الوسيلة، وقد سبق القول إنّ اللغويين الاجتماعيين يؤكّدون ان الانسان لسّان، ولا انسانية بدون لغة. والوجود الانساني كما يقرر (ابن حزم) مرتبط بالكلام فلا «سبيل الى بقاء احد من الناس ووجوده دون كلام»[٢٢].

= احمد جاد المولى، وجماعة عيسى البابي الحلبي. ١/٣٨.

(٢١) دور الكلمة في اللغة: ستيفن اولمان. تر.: د. كمال بشر. القاهرة ١٩٧٥ ص٢٣. «بتصرف».

(٢٢) الاحكام في اصول الاحكام. ١/٢٩.

وذهب ابن مسكويه (ت. ٤٢١) في تحليل الحاجة الى الكلام مذهباً اجتماعياً ولسانياً، ويردها الى اصلين:

احدهما: التعايش؛ ويقول فيه: «إنّ السبب الذي احتيج من اجله الكلام هو أن الانسان الواحد لما كان غير مكتف بنفسه في تتمة بقائه مدّته المعلومة وزمانه المقدّر المقسوم، احتاج الى استدعاء ضروراته في مادة بقائه من غيره، ووجب بشريطة العدل أن يعطي غيره عوض ما استدعاه منه بالمعاونة»[٢٣].

وثانيهما: التواصل؛ ويقول فيه: «ألم يكن بُدّ من أن يفزع الى حركات باصوات دالة على هذه المعاني بالاصطلاح ليستدعيها بعض الناس من بعض، وليعاون بعضهم بعضاً فيتمّ البقاء الانساني، وتكمل فيهم الحياة البشرية»[٢٤].

يؤكّدون أنّ الانسان لسان، ولا إنسانية بدون لغة:

وفي حديث ابي الحسن علي بن اسماعيل المعروف بـ (ابن سيده) (ت. ٤٥٨ هـ) عن اللغة ما يؤكّد ارتباطها بالمجتمع الذي تدفعه حاجة التواصل، واسترفاد المعاونة من غيره على اعتماد اللغة في تصريف مقيّمات عيشه التي لا يكتفي بنفسه عليها دون اجتماع مع الاخرين.

يقول (ابن سيده) في مقدمة معجمه الشهير (المخصص): «إنّ الله عزّ وجلّ كما كرّم هذا النوع الموسوم بالانسان وشرّفه بما أتاه من فضيلة النطق على سائر اصناف الحيوان، وجعل له اسماً يُميّزه، وفضلاً يُبيّنه على جميع الانواع فيحُوزُه، أحوجَه الى الكشف عمّا يتصوّر في النفوس من المعاني القائمة فيها المدركة بالفكرة ففتق الالسنة بضروب من اللفظ المحسوس، ليكون رسماً لما تُصُوِّرَ وهَجَس من ذلك في النفوس فعلمنا بذلك أنّ اللغة اضطرارية، وإن كانت موضوعات الفاظها اختيارية»[٢٥].

(٢٣) الهوامل والشوامل. للتوحيدي وابن مسكويه ص/٦.
(٢٤) نفسه: ص٧.
(٢٥) المخصص. ابو الحسن علي بن اسماعيل (ابن سيده). دار الفكر-بيروت جـ١/٢-٣.

فوضع الانسان الالفاظ على رأي ابن سيده اختياري، وان كانت الحاجة الى ذلك اضطرارية لانّ الانسان كائن اجتماعي لا بدّ له بحكم هذا الانتماء أن يسمّي الاشياء، ويرمز لها «لتنحاز باسمائها».

وتلك نظرة عميقة في فهم علاقة التفكير باللغة، في موقفها من الحضارة عامة. وعن طريق امتلاك الاسماء والكلمات، نمتلك الاشياء، نمتلك مفهومها عن طريق ملكية منطوقها. ومن يمتلك اللفظ يمتلك الشيء.

واذا كانت النظرة السحرية القديمة تتركز حول فعل هذه المقولة، فانّ النظرة التي تسعى اليوم لعدم اهمال الجانب الاسطوري من اللغة، تدور في نفس الفلك: لا معرفة بلا لغة، ولا ادراك دون لفظ ما دمنا ننشد الوضوح والابانة[٢٦].

(٢٦) اللغة بين العقل والمغامرة. ص٢٨.

ـ المبحث الثاني ـ
(طبيعة اللغة)

لقد بيّنا في المبحث الاول من هذا الفصل أنّ اللغة حاجة اجتماعية، والقول بذلك يثير جملة من المسائل لعل أقربها الى ما نحن فيه مما يندرج في صلب الدراسات اللغوية الاجتماعية مسألتان كثيراً ما أثارهما اللغويون عموماً واللغويون الاجتماعيون على وجه الخصوص هما:

- اللغة بين الغريزة والاكتساب.
- والعلاقة بين اللفظ ودلالته من وجهة نظر لغوية اجتماعية.

هاتان المسألتان اللتان تكشفان كثيراً من ماهية اللغة وطبيعتها. ولذا نحاول في هذا المبحث التماس هاتين المسألتين، واستدعاء دور اللغويين والمفكرين العرب في هذا المجال.

آ: اللغة بين الغريزة والاكتساب

لما كانت اللغة حاجة اجتماعية، فانّها غير مرتبطة بالفرد كفرد، بل هي مجموع من الادلة يتواضع عليها المستعملون، وهو ما كان يسمّيه علماؤنا (بالوضع)[1]، ويقابله (الاستعمال) او (الاصطلاح والتواطؤ)، وفي هذا يقول (محمد بن الحسن الاستراباذي) (ت. ٦٨٨ هـ): «والمقصود من قولهم:

---

(١) في المزهر ص٣٨: «الوضع عبارة عن تخصيص الشيء بالشيء. بحيث اذا اطلق الاول فهم الثاني».

وضع اللفظ: جعله اولًا لمعنى من المعاني مع قصد أن يصير متواطئاً عليه بين قوم، ..... ولا يقال لكلّ لفظة بدرت من شخصٍ لمعنى: إنّها موضوعة له من دون اقتران قصد التواطؤ بها »(٢). اما استعمال الوضع أو كيفية ادائه في الخطاب فهذا راجع الى الفرد، بمعنى إنّ اللغة ليست كالكلام كما بيّنا سابقاً، إنّها مادة مشتركة لا يمكن نسبتها الى شخص بعينه، ولا يمكن أن تتفاوت من جرّاء ذلك مكوناتها قيمة وحسناً، في حين أنّ الكلام منسوب دائماً الى متكلم فرد، وصادر عن قائل، وطريقة إفادته ليست نتيجة الاصطلاح، وانما هي رهينة المتكلم، ومتماشية مع مقاصده، وبلاغته ليست ناجمة عن اوضاع اللغة فهي « عبارة عن مزية هي بالمتكلم دون واضع اللغة »(٣). فاللغة اذن « مجموعة من العلاقات » كما يقول المحدثون اليوم، او كما يراها قدماؤنا (نظماً) اي: تعليق لفظ بلفظ(٤).

انّ استعمال (الوضع)، او كيفية ادائه في الخطاب وارتباطها بالفرد تجيز أنْ لا يشترك في الاداء شخصان اثنان في طريقة الاداء نفسها، وما كان يسميه علماؤنا ونحاتنا العرب باللغات « ما هو إلا كيفيات اختصت بها قبيلة أو بعض افراد الامة دون غيرهم في اداء بعض الاوضاع اللغوية، فالفرد يتصرف عند استعمال اللسان داخل الحدود التي رسمها الوضع »(٥).

وعلى اساس من هذا الفهم لمصطلح اللغويين العرب (الوضع) يمكن أن نفهم بداهة أنّ اللغة ليست ظاهرة غريزية، وانما هي مكتسبة كما ذكر (سابير)، وقد وعى علماؤنا هذه الحقيقة من قبل (سابير) بمئات السنين، حين تحدثوا عما سموه بـ (السليقة اللغوية)، قاصدين بها اكتساب المرء لغة المجتمع الذي يعيش فيه.

(٢) شرح الرضي على الكافية. الرضي الاستراباذي. ١/ ٢.
(٣) دلائل الاعجاز: عبد القاهر الجرجاني. ص٦٧.
(٤) انظر: دلائل الاعجاز: ص٤١٦. ومساهمة في التعريف بازاء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة. د. عبد القادر المهيري. حوليات الجامعة التونسية. العدد ١١/ ١٩٧٤ ص١٠٨.
(٥) فقه اللغة في الكتب العربية. ص٧١.

يقول (ابو الحسن احمد بن فارس) (ت. ٣٩٥): « تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مرّ الاوقات. وتؤخذ تلقناً من مُلقّن، وتُؤخذ سماعاً من الرواة والثقاة ذوي الصدق والامانة »(٦). فهذا الكلام الواضح الباهر يؤكّد حقيقة علمية يكاد المحدثون يتفقون بشأنها فاللغة ظاهرة اجتماعية مكتسبة يشبه اكتسابها أية عادة اجتماعية اخرى.

وكان (ابن جنّي) يرى أن « العرب وانْ كانوا منتشرين، وخَلقاً عظيماً في ارض الله غير متحجرين، ولا متضاغطين، فانّهم بتجاورهم وتلاقيهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة، فبعضهم يلاحظ صاحبه، ويراعي امر لغته، كما يراعي ذلك من مُهمّ امره، فهذا هذا »(٧).

وبهذه المراعاة والملاحظة يتم اكتساب اللغة، ورصد ما يعرض لها من الاختلال والفساد والخطل، لان اللغة « ملكة صناعية » على حدّ تعبير (ابن خلدون)(٨) (ت. ٨٠٨ هـ)، فقلما يمكن للمرء أنْ يكتسب المعرفة في صناعة من الصناعات، ويتعلّمها. فكذلك اللغات، قد تُؤخذ « بالمنّة والطباع، بما لا نلاحظ على طول المباحثة والسماع »(٩) أو قد تؤخذ عن المجتمع بالتعليم أو الاختلاط.

ويُخضع ابن خلدون اكتساب اللغة وحصول الملكة اللغوية وبقائها في المجتمع الناطق بها جيلًا بعد جيل، وجودتها او فسادها واستحداث غيرها الى جملة من المؤثرات يكشف عنها قوله: « إنّ اللغات كلّها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها، وقصورها

(٦) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. ابن فارس. حققه وقدم له مصطفى الشويمي بيروت ١٣٨٢-١٩٦٣ ص٦٢.
(٧) الخصائص: ٢/ ١٥-١٦.
(٨) تاريخ ابن خلدون. عبد الرحمن بن خلدون. بيروت ١٣٩١-١٩٧١. جـ١/ ٤٨٧.
(٩) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٤٧٨.

بحسب تمام الملكة، أو نقصانها، وليس النظر الى المفردات، وانّما هو النظر الى التراكيب، فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم...»(١٠) والملكات لا تحصل إلا بتكرار الافعال «فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام اهل جيله واساليبهم في مخاطباتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات ومعانيها فيلقنها اولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم يتجدد في كلّ لحظة ومن كلّ يتكلّم، واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كاحدهم...

هكذا تصيرت الالسن، واللغات من جيل الى جيل، وتعلّمها العجم والاطفال، وهذا معنى ما تقوله من أنّ المعرب بالطبع أي بالملكة التي اخذت عنهم، ولم يأخذوها عن غيرهم، ثم انه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الاعاجم، وسبب فسادها ان الناشيء من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات اخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبّر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب ايضاً فاختلط عليه الامر، واخذ من هذه وهذه، فاستخدث ملكة وكانت ناقصة عن الاولى»(١١).

تلك نظرة ابن خلدون الى اللغة، وقد حاول فيها استخلاص نوع من الصلة الجدلية بين المجتمع واللغة يمكن أن نحدد ابعادها بالآتي:

اولاً: إنّ اللغة ملكة صناعية، ومعنى الملكة هنا انّها الصفة الراسخة التي تكتسب بها النفس البشرية العادات والتقاليد والصناعات، وكلّ مظاهر

(١٠) نفسه: ١/٤٨٧.

(١١) نفسه: ١/٤٨٧. ومن المعروف أنّ ابن خلدون كان يسمي (اللغة الفصحى) باسم (لسا[ن] العرب) او (اللسان العربي) او (لغة مضر) واما (العامية) فكان يعبّر عنها بـ (ل[غة] الامصار) او (لغة الجيل) انظر: دراسات عن مقدمة ابن خلدون. ساطع الحصري. بغد[اد] ١٩٦١ ص٤٦٠.

الاجتماع الانساني التي تحيط بها.

وثانياً: اثبت ابن خلدون أنّ كلمة اللغوية انّما تُعيَن وتُكتسب بمفاعيل المعاشرة والمخالطة والممارسة، فالانسان يتكلم لغته الاصلية بسماع الآخرين.

وثالثاً: إنّ هذه الملكة انما تستقرّ وتثبت بالعادة وتكرار الفعل.

ورابعاً: إنّ اعادة الافعال تمنح خصائص جديدة، وكذلك فان تنوّع روافد الاختلاط والمعاشرة قد يفسر الملكة، ويوجهها توجيهاً جديداً ناقصاً عن الملكة الاولى. بمعنى «إنّ الانطباعات التي تتوافر لنا عندما نسمع الآخرين هي التي تجعلنا نعدّل عاداتنا اللغوية»(١٢).

وخامساً: إنّ الملكة التامة لا تحصل بالنظر الى المفردات، وانما تحصل بالنظر الى التراكيب، بمعنى أنّ معرفة النظام اللغوي للغة ما هي التي تحدد امكانية معرفة الانسان لتلك اللغة، وتمكّنه منها؛ ومن الواضح أنّ اهم خاصية من خصائص اللغة هو نظامها، لانّه يحكم سلوك الافراد الذين يستخدمون اللغة ازاءها فاللغة تقوم على اساس نوع من العقد القائم بين اعضاء الجماعة، والفرد في حاجة الى تعلمها وتوظيفها في نشاطه الاجتماعي، ولا يمكن للانسان أنْ يتعلّم اللغة بتعلّم مفرداتها فقط، من دون تعلّم ما يمثلها تمثيلاً صحيحاً وهو النظام، سواء كان نظاماً لاصواتها أم لصرفها، أم لنحوها.

سادساً: إنّ الطفل يكتسب اللغة بالتدريج مبتدأ من المفردات ودلالاتها، فالتراكيب واحكامها.

وهذا كلّه يؤكّد لنا أنّ نظرية ابن خلدون في الملكة اللغوية خصوصاً، والملكات عموماً تستند الى ملاحظة مبدأ نفسي عام هو أنّ كلّ فعل - مادياً كان أم معنوياً، فكرياً كان أم بدنياً - لا بُدّ من أن يترك اثراً في النفس، فاذا تكرر الفعل، تكرر أثره في النفس، وتولد من ذلك صفة، ثم رسخت تلك الصفة، فكوّنت ملكة، والملكة التي تحدث على هذا المنوال من جرا[ء]

(١٢) نظرية البنائية في النقد الادبي. ص٢٥.

تكرر الفعل تنمو شيئا فشيئا تبعا هذا التكرار كأنها تتعدى به .

واعتبار (ابن خلدون) اللغات بمثابة «ملكات في اللسان» وانّها لا تتكون - بوجه عام - إلا بالممارسة والتكرار، هو الذي دفعه الى أن يبني نظريته في «طريقة تعلم اللسان المضري» - يعني اللغة الفصحى - على هذا الاساس بما يؤكد فعل المجتمع في اكتساب اللغة، فيقرر أنّ «وجه التعليم لمن يبتغي ملكة اللسان المضري، ويروم تحصيلها أنْ يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على اساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في اسجاعهم واشعارهم، وكلمات المولدين ايضاً في سائر فنونهم... حتى يتنزل - لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور - منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم». «ثم ينصرف بعد ذلك الى التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من اساليبهم، وترتيب الفاظهم، فتحل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد رسوخاً وقوة» «ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع، والتفهم الحسن لمنازع العرب، واساليبهم في التراكيب، ومراعاة التطبيق بينها، وبين مقتضيات الاحوال»[١٤].

ب: اللفظ والدلالة من وجهة نظر لغوية اجتماعية

من المسائل التي يطرحها علم اللغة على بساط البحث هي ميزة اللفظ المعين في الدلالة على المعنى او المسمّى المعين، فالالفاظ التي يطلقها الانسان على الاشياء لم تكن اصواتاً محضة، وانّما هي اصوات منظمة دالة «وهذه الاصوات التي تصدر عنّا ليست هدفاً لذاتها، وانما هي وسيلة نتخذها للتعبير عن الدلالات والخواطر التي تجول باذهاننا»[١٥]، ومن هنا وجدنا انّ كلّ دراسة

(١٣) دراسات عن مقدمة ابن خلدون. ص٤٢٤.

(١٤) مقدمة ابن خلدون: ١/٥٥٩.

(١٥) طرق تنمية الالفاظ في اللغة. د.ابراهيم انيس. القاهرة ١٩٧٦ ص٥. وانظر: جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب. د.ماهر مهدي هلال. بغداد ١٩٨٠ ص٢٨٥.

لغوية لا بُد أن يكون «موضوعها الاول والاخير هو المعنى، وكيفية ارتباطه باشكال التعبير المختلفة، فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة، وهو العرف، وهو صلة المبنى بالمعنى»[١٦].

ويبدو أنّ (الدلالة) كانت قديماً مصطلحاً وصفياً لاستغراق اللفظ واحاطته به[١٧]، وان البحث حول صلة اللفظ بدلالته قد ارتبط تاريخياً بالبحث الذي عالج فكرة نشأة اللغة، وذلك حين سعى البحثان لكشف النقاب عن اولية انطلاق الشفاه باصوات معينة لتأدية معان محدودة، أو عن اوليه تسرّب المعاني الى النفس بمجرد سماع اصوات، ثمّ التواضع عليها، وعُدت - فيما بعد - من لبنات اللغة[١٨]. هذا من جهة.

ومن جهة ثانية نجد أن الحديث عن نشأة اللغة قد جرّ مباحث الدلالة الى تقريرات عقلية غلبت على الجانب الوصفي للغة.

وقد اختلف مفهوم الدلالة على وفق تصوّر الباحثين فيها، فكان للبلاغيين مفهوم خُاص، يختلف عن مفهوم اللغويين، بما يوضحه (يحيى بن حزه العلوي) (ت. ٧٤٩ هـ) بقوله: «إنّ علم اللغة، وعلم الفصاحة وانْ كان متعلقهما الالفاظ المفردة لكنهما يفترقان في الدلالة، فانّ نظر اللغوي مقصور على معرفة ما يدل عليه اللفظ بالوضع، وصاحب علم البيان ينظر في الالفاظ المفردة من جهة جزالتها وسلامتها من التعقيد، وبراءتها من البشاعة»[١٩].

وقد أخذت منذ زمن بعيد مسألة اللفظ ودلالته مجالًا رحباً من مباحث اللغويين خاصة والمفكرين عموماً، فقد استرعت هذه المسألة انتباه قدماء

(١٦) اللغة العربية. معناها ومبناها. د.تمام حسان. مصر ١٩٧٣ ص٩.

(١٧) في اللسان مادة (دل): «دله على الشيء.. سدده اليه. والاسم: الدّلالة والدِّلالة بالكسر والفتح». وفي المعجم الوسيط: «دلّ عليه واليه دلالة ارشده، والدلالة الارشاد، وما يقتضيه اللفظ عند اطلاقه».

(١٨) اللغة بين العقل والمغامرة: ص٣٢.

(١٩) الطراز. يحيى بن حزه العلوي. مطبعة المقتطف. مصر ١٣٣٢-١٩١٤. ص١/١٧.

اليونانيين «وبدا من سحر الالفاظ في اذهانهم، وسيطرتها على تفكيرهم أن ربطوا بينها وبين دلالاتها ربطاً وثيقاً، وجعلوها سبباً طبيعياً للفهم والادراك، فلا تؤدي الدلالة الآ به، ولا تخطر الصورة في الذهن الآ حين النطق بلفظ معين، ومن اجل هذا اطلق هؤلاء المفكرون على الصلة بين اللفظ ومدلوله الصلة الطبيعية أو الصلة الذاتية»(٢٠).

واذ نحاول تتبع بحوث الفلاسفة والمفكرين القدماء في علاقة اللفظ بدلالته نرى الاتجاهات تتشعب الى شعبتين اساسيتين: فبينما قال فريق إن الارتباط طبيعي، رأى فريق آخر ان تلك الصلة مصطنعة، يفرضها الانسان بارادته، وبحكم طول ملابسة اللفظ للدلالة ينمو ما يشبه التلازم ولكن في قدرة الانسان أن يمزّق تلك الصلة ليفرض رموزاً لغوية جديدة للدلالة نفسها(٢١).

وعندما نتساءل: هل اللغة ظاهرة طبيعية ام اجتماعية؟ فانما نتساءل هنا عن وظيفة اللغة لا عن نشأتها، فاللغة مسألة تتعلق بالتقاليد، او بعبارة اصح هي (عقد اجتماعي)، وقد وضّح هذا المفهوم وبيّنه حديثا (سوسور) حين يقول: «يعتبر الرمز اللغوي عشوائياً ودائماً في وقت واحد، فهو عشوائي لعدم وجود صلة مباشرة بين الاسم وكنه الشيء المسمّى، ودائم بمعنى إنّ الجماعة التي تتحدث هذه اللغة تستعمل نفس اللفظ، أو العبارة للدلالة على نفس الشيء أو الفكرة التي يتحدثون عنها مع التجاوز عن بعض الاختلافات البسيطة في نطق الالفاظ، وغرض الافكار، لا تؤثر بشكل فعال يمنع المتخاطبين من فهم المقصود باللفظ او العبارة. وما لم تتحقق هذه الشروط فانها تفقد معناها، او بمعنى أصحّ تفقد وظيفتها كلغة»(٢٢).

ولعل اهم ما يتم عنه تعريف (سوسور) للرمز اللغوي هو عشوائية او اعتباطية هذا الرمز، ونحن لا نستطيع أنْ نتصور عكس ما راه (سوسور)

(٢٠) دلالة الالفاظ. د. ابراهيم انيس ط٣ مصر ١٩٧٢ ص٦٢.
(٢١) انظر: اللغة بين العقل والمغامرة. ص٤٢.
(٢٢) انظر: علم اللغة العام (سوسور) ص٨٤ وما بعدها ولغات البشر: ص٢١.

فوجود صلة حقيقية بين اللفظ وكنه الشيء المسمّى يعني ضرورة وجود لغة واحدة لشعوب العالم جيعها، ما دام لكل شيء رمز واحد يعبّر تعبيراً كاملاً عن كنه ذلك الشيء، وقد عرفنا ذلك؛ ومن هنا تعددت اللغات، وكثرت الالفاظ واختلفت والمسمّى واحد، ذلك على وفق ما تصطلح عليه الجماعة الناطقة في الزمان والمكان المعينين.

ومثلما اختلف الاجانب في بيان العلاقة بين اللفظ ودلالته، اختلف المفكرون واللغويون العرب القدماء، فقد قال فريق منهم «إنّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع، وإلّا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمّى المعين، ترجيحاً من غير مرجح»(٢٣) وقد دلّل (ابن جني) على هذه الصلة الطبيعية في بناء اللفظ ودلالته بقوله: «وانما جُعلت الالفاظ ادلة على اثبات معانيها لا على سلبها» وقال: «ألا تراك حين تسمع «ضرب» قد عرفت حدثه وزمانه ثم تنظر فيما بعد فتقول: هذا فعل، ولا بُدّ له من فاعل، فتبحث حينئذٍ الى أن تعلم الفاعل، من هو، وما حاله من موضع آخر لا من مسموع الضرب. وان دلالة الضرب لفظية مسموعة، وانصراف الذهن للبحث عن الفاعل هو دلالة معنوية، والدلالة اللفظية في الكلام اقوى من الدلالة المعنوية»(٢٤).

ويقول: «ومن ذلك قولهم للسلّم مَرقاة، وللدرجة: مِرقاة، فنفس اللفظ يدل على الحدث الذي هو الرقي، وكسر الميم يدل على إنها مما ينقل، ويعتمد عليه، كالمِطرقة، والمِئزر، والمِنجل، وفتحة ميم مرقاة تدل على انه مستقر في موضعه كالمنارة، والمثابة... فنفس (ر ق ى) يفيد معنى الارتقاء، وكسر الميم وفتحها تدلان على ما قد مناه من معنى الثبوت، والانتقال، وكذلك: قطع، وكسر، فنفس اللفظ هاهنا يفيد معنى الحدث، وصورته»(٢٥).

(٢٣) يمثل هذا الرأي (عباد بن سليمان) انظر: المزهر: ١/١٦.
(٢٤) الخصائص: ٣/١٠٠.
(٢٥) الخصائص: ٣/١٠٠-١٠١. وانظر ايضاً ١/١٨، ٦٥-٦٦. و: ٢/١٦٢، ١٦٣.

وقد ذهب (ابن سنان الخفاجي) (ت. ٤٦٦ هـ) مذهب (ابن جني) في انّ دلالة الصوت دلالة ذاتية لانه «لا يجوز وجود الصوت إلا في محل... ولا يختلف باختلاف حال محله فيتولد من الصوت في الطست خلاف ما يتولد في الحجر، فالصوت حادث من اثر المصاكة الموضعية لذات الشيء المحدث له، وكذلك اصوات الالفاظ فهي ساذجة غفلة تحدث لما في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيها عن امتدادها فتخرج الحروف ومنها الالفاظ دالة على جهات الكلام كحروف الشي وجهاته»(٢٦).

وقد انكر فريق عربي آخر مقالة (ابن جني) ومن تابعه في مناسبة اللفظ لدلالته ورأى انّه لو ثبت ذلك «لاهتدى كلّ انسان الى كل لغة، ولما صحّ وضع اللفظ للضدّين، كالجون للابيض وللاسود»(٢٧).

ولعل (ابن سيده) خير من يمثّل هذا الاتجاه، فقد مرّ القول إنّه من اوائل اللغويين العرب الاوائل الذين اكدوا أنّ اللغة واقعاً اجتماعياً (اضطراريا) وانّ الفاظها (اختيارية)، وبهذا حطّم ابن سيده فكرة الارتباط الطبيعي بين الاسم والمسمّى، او بين الدال والمدلول عليه، انها عملية اختيارية تلك التي يتمّ بها اختيار الدال، أو هي عملية تحكمية إن شئنا ذلك، والاختيار لا يقوم به فرد، وانما هو من قبول الجماعة، هكذا تلقتها، وهكذا تُسلّمها الى من بعدها. وحينما تتعرض الالفاظ لتغيرات صوتية فلن يكون من اليسير ردّ هذه التغيرات الى محدثيها، بل ولا الى عصر حدوثها، اللهم إلّا إن اخذنا بمبدأ التقريب والتجاوز عن المنطق العلمي الدقيق(٢٨).

ومن المفاهيم الهامة في هذا المجال ما ذهب اليه (الجرجاني) (ت. ٤٧١ هـ) في دلائله من أنّ اللغة «تجري مجرى العلامات والسمات» فالالفاظ «دالة

(٢٦) سر الفصاحة. ابن سنان الخفاجي. شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي. مصر ١٣٨٩ هـ-١٩٦٩. ص١١.

(٢٧) المزهر في علوم اللغة: ص٤٧.

(٢٨) انظر: اللغة بين العقل والمغامرة: ص١٧٣.

على المعاني» فهي اذن من قبيل السمات والعلامات(٢٩). وهذه الاعتبارات عن الكلمة او العلامة لا تخلو من طرافة على لسان (الجرجاني) لدلالتها على رغبة في تجاوز ظواهر الاشياء كما انها وآراء (ابن سيده) تذكرنا - إنْ لم تلتقِ التقاء مباشراً - ببعض المفاهيم التي اوضحها (سوسور) رائد اللسانيات الحديثة، واعتبرت اركاناً قادة في الدراسات اللغوية منذ نصف قرن، فاللغة تُتناول على إنها مجموعة علامات (Signes)، جزافية او اختيارية على حدّ تعبير (ابن سيده)، بمعنى اننا ما دمنا نفهم الدليل على انّه ربط بين الدال والمدلول، او اتحاد بينهما فيمكن بكل بساطة القول إنّ الدليل اعتباطي؛ ويجب ألّا تخدعنا هذه الاعتباطية او (الاختيارية)، فنراها تعني حرية الاختيار لدى المتكلم «إنّ الاعتباط هنا يعني أنّ العلاقة غير محللة بين وَجْهَيْ الدليل - اي بين الدال والمدلول - حيث انّها لا توجد بينهما اية علاقة طبيعية في الواقع»(٣٠).

فالدال هو الترجمة الصوتية لتصوّر ما، والمدلول هو المستشار الذهني لهذا الدال، ومن هنا تتضح الوحدة البنائية العميقة في الاشارة اللغوية بين الدال والمدلول، وقد شبّه (سوسور) هذه الوحدة بالورقة وجهها الاول هو الصوت، والثاني هو الفكر، ومثلما لا نستطيع أن نفصل وجهي الورقة فاننا لا نستطيع أن نعزل في اللغة بين الصوت والفكر، وانما «نجري نوعاً من التجريد البحث للعنصرين النفسي والصوتي، وما يقوله (سوسور) ينطبق في الدرجة الاولى على الرمز اللغوي، ويمكن أن نفهم في ضوئه الجانب الاعتباطي في اللغة، فهو ليس الرمز في حدّ ذاته، وانما انطباقه على هذا العنصر أو ذاك من الواقع، فالعلاقة الوحيدة المتعسفة الطارئة في اللغة هي علاقة الرمز بالشيء»(٣١).

(٢٩) انظر: اسرار البلاغة: الامام عبد القاهر الجرجاني. طبعة أستنبول ص٣٤٧. ودلائل الاعجاز: ص٤٢٦، ٢٧٩. ومساهمة في التعريف باراء عبد القاهر: ص١٠٣.

(٣٠) البنائية في اللسانيات: ص١٥٠.

(٣١) نظرية البنائية في النقد الادبي. ص٢٩.

وربما يكون (الشريف الجرجاني) (ت. ٨١٦ هـ) اكثر قرباً مما جاء به (سوسور) بل انّه مطابق وسابق ايضاً، اذ يذكر ان «المعنى: ما يُقصد بشيء. والمعاني هي الصور الذهنية من حيث إنّه وضع بازائها الالفاظ، والصور الحاصلة في العقل من حيث أنّها تقصيد باللفظ سميت معنى»[٣٢].

أمّا الدلالة فهي عنده «كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الاول هو الدال، والثاني هو المدلول. وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الاصول محصورة في: عبارة النصّ، واشارة النصّ، ودلالة النصّ، واقتضاء النصّ... فان كان الحكم مفهوماً من اللفظ فهو الدلالة... فدلالة النصّ عبارة عما ثبت بمعنى النصّ لغة لا اجتهاداً، فقوله «لغة» اي يعرفه كلّ من يعرف هذا اللسان، بمجرد سماع اللفظ من غير تأمّل»[٣٣].

وقد صرف اللغويون العرب القدماء جهوداً كبيرة معطاء في دراسة انواع الدلالات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والاجتماعية. يعنينا منها هنا (الدلالة الاجتماعية) التي قصدوا بها الدلالة الزائدة على الدلالات المستفادة من جرى الكلمة أو بنيتها الصرفية، او نظام تركيبها: اذ نجد أن كل كلمة بعد تُبنى على احد الاوزان الصرفية، وتأخذ مادتها ومعناها الاصلي، تستعمل في مواطن من الكلام، ويخصّها الاستعمال بمعان اخصّ من المعنى العام الذي تدل عليه مادتها، وبتعدد الاستعمال على مرّ العصور وفي مختلف المناسبات والبيئات يتمّ للكلمة اكثر من معنى، ويجتمع لها اكثر من دلالة... ولهذا كان للسياق قيمة في تحديد المعاني وفهم الكلام[٣٤].

---

(٣٢) التعريفات. الشريف الجرجاني. القاهرة. ١٣٥٧ - ١٩٣٣ ص١٩٦.

(٣٣) التعريفات. ص٩٣. وقوله: يلزم، لا يتسع إلا للمعنى اللزومي، كالذي في الكتابة مثلًا اما الاصل في المعنى فهو «العرف» الذي يكون المعنى بحسبه، مرتبطاً ارتباطاً اعتباطياً، وليس لازماً لزوماً عقلياً. انظر: نظرة في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة. ص١٩.

(٣٤) انظر: فقه اللغة وخصائص الغربية. د. محمد المبارك. بيروت ١٩٦٤ ص١٨٣.

والسياق او ما أطلق عليه قديماً (المقام) يضمّ كلّا من «المتكلم، والسامع والظروف والعلاقات الاجتماعية، والاحداث الواردة في الماضي والحاضر»[٣٥] وغير ذلك من مشمولات عملية التواصل من مواقف، وحالات، واغراض، وكلها - كما سنرى - تختلف من خطاب الى آخر.

وقد كان الامام (عبد القاهر الجرجاني) (ت. ٤٧١ هـ) سباقاً الى تحديد خطورة السياق وفعله في بيان الدلالة المطلوبة، حين ربط كلّ كلام بمقام استعماله ومراعاة مقتضي حاله[٣٦]، وعنده انه لا يمكن أن نضع قاعدة واحدة تستوعب كلّ الحالات، وانما لكل موقف ومقتضي حال تركيب يتلاءم معه. يقول: «اعلم إنّ هاهنا اصلًا أنت ترى الناس فيه صورة من يعرف من جانب، وينكر من آخر، وهو إنّ الالفاظ المفردة التي هي اوضاع اللغة لم توضع لتعرف بها معانيها نفسها، ولكن لأنْ يضمّ بعضها الى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد، وهذا علم شريف واصل عظيم»[٣٧].

فالجرجاني يكشف بهذا قبل (سوسور) إنّ اللغة مجموعة علاقات، فالكلام عند الجرجاني (نظم) قبل كل شيء، أي تعليق (وضمّ) لفظ الى لفظ.

على الرغم من أنّ مفهوم العلاقة (Rapport) في نظر علم اللغة الحديث لا تعني علاقة الكلمات بعضها ببعض في نطاق التركيب فحسب، بل هي «تشمل ايضاً علاقة الكلمات بعضها ببعض في معناها اللغوي، وتقابل الاصوات، وقيمة العلاقة اللغوية القائمة على مفهوم الفرق...»[٣٨].

وللمعنى عند (عبد القاهر الجرجاني) ابعاد ثلاثة[٣٩].

---

(٣٥) اللغة. معناها ومبناها. ص٣٥٢.

(٣٦) انظر: دلائل الاعجاز. ص١٤٣.

(٣٧) دلائل الاعجاز: ص٤٩٥.

(٣٨) انظر: مساهمة في التعريف باراء عبد القاهر: ص٨٧.

(٣٩) انظر: دلائل الاعجاز. ص٤٩٥.
واللغة معناها ومبناها: ص٣٣٩، ٣٤٢.
ونظرة في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة. ص٢٨.

اولها: معاني اللفظة المفردة او ما يطلق عليه اليوم بـ (المعنى المعجمي).

وثانيها: طرق التعليق بين الكلم وربطها، وهي المعاني النحوية التي تفرز عبر احكام تنظيم الجملة المعينة.

وثالثها: الابانة عما في النفس او البيان، او تمام الدلالة، وهو ما يسمى بـ (المعنى الدلالي) الذي يعتمد على المعنى المقالي - اي الوظيفي (الصوتي والصرفي والنحوي)، والمعنى الاجتماعي، وهو شرط لاكتمال المعنى الدلالي وفهمه.

[واذا كان (فيرث) و (مالينوفسكي) قد اعطيا نظرية السياق واثرها في المعنى بعداً اعمق، واوسع، وجعلا منها نظرية وظيفية شاملة في علم اللغة الاجتماعي كما سنرى، فانا نرى أنّ اللغويين العرب قد ادركوا اهمية السياق، ونصّوا على دوره الحاسم في العملية اللغوية، ولعل انتباه اللغويين العرب القدماء الى السياق او (المقام) - على حدّ تعبيرهم (المعنى المقامي او الاجتماعي)، واهتمامهم به، هو الذي دفعهم الى قسمة اضرب الخبر في الكلام مناسبة للمقام، وحال المخاطب - وهي ناحية اجتماعية - ثلاثة اقسام هي[٤٠]:

١ - خبر ابتدائي.

٢ - خبر طلبي.

٣ - خبر انكاري.

وهو الذي حدا بهم ايضاً الى أن يصنّفوا كتب المعاني، كما فعل (الاصمعي)، (وابو عبيدة)، و(ابو زيد الانصاري) و(ابن الاعرابي) وغيرهم اذ وضعوا عشرات الكتب في خلق الانسان، والخيل، والنبات، والحلي، والوحوش، والطير، والسلاح والغرائز والجرائم وغيرها[٤١] أو وضع

= واللغة والتطور: د. عبد الرحمن ايوب. القاهرة ١٩٦٩. ص٦٣، ٦٥ وما بعدها.

(٤٠) انظر: نظرة في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة. ص٣٠.

(٤١) انظر في هذه المؤلفات: نظرة تاريخية في حركة التاليف عند العرب في اللغة والنحو. د. امجد الطرابلسي. دمشق ١٣٩٢ - ١٩٧٢. ص٥٤ - ٥٥.

بعض النحاة كتباً في معاني الحروف كما هي الحال في كتب اللامات[٤٢] وسيتضح لنا في موضع لاحق انتباه القدماء الى اسباب تغير الدلالة سواء على مستوى الكلمة المفردة، ام على مستوى التركيب، وذلك في بحثهم عن المعاني المجازية للكلمات، وضروب الاستعارات والكنايات، والتشبيهات، وغيرها من الاساليب البلاغية عند العرب]

ويُعدّ (معمر بن المثنى المعروف بابي عبيدة) (ت ٢٠٩ هـ) صاحب كتاب (مجاز القرآن) و(ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري) (ت. ٥٣٨ هـ.) صاحب (اساس البلاغة) رائد في مجال التأليف في تاريخ تطور الدلالات اللغوية، دون الوقوف عند حدود الالفاظ المفردة بل تجاوزها الى التركيب، بما يوضّح قوانين فصل الخطاب، والكلام الفصيح، بافراد المجاز عن الحقيقة، والكناية عن التصريح.

وقد احتوى (اساس البلاغة) على عنصرين اساسين في الدرس الدلالي؛

اولها: اثر الاستعمال في حياة الكلمة، وتعيين دلالتها، وتحديد معناها.

وثانيها: الوقوف على شيء من ايحاء الكلمة في النفس، وظل فحواها في الذهن، ووقعها في المخيلة، وهذا ما لا تقدّمه لنا المعاجم اللغوية، لان الدلالة المعجمية المجردة ليست هي كلّ دلالة الكلمة، وليست هي الدلالة الادبية التي تحمل عنصر التأثير النفسي للكلمة بما تثيره من احاسيس وما تلفت اليه من آفاق.

وحين قال البلاغيون العرب «إنّ لكلّ مقام مقالاً» و«لكل كلمة مع

(٤٢) في الفهرس لابن النديم اسماء كتب مؤلفة في لامات (القرآن) الكريم، وفي اللامات ومعانيها في اللغة عموماً. ومن هذه الكتب نذكر: اللامات لابن فارس، واللامات للزجاجي واللامات للهروي.

انظر: الفهرس لابن النديم. ص٦٠، ١١٨.

واللامات بين الهروي والنحاة: يحي علوان حسون. مجلة آدابُ المستنصرية العدد العاشر. ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤. ص٢٨١ وما بعدها.

صاحبتها مقاماً» وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم، تصدقان على دراسة المعنى في كلّ اللغات، لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في اطار الثقافات على حدّ سواء. ولم يكن (مالينوفسكي) وهو يصوغ مصطلحه الشهير Context of Situation ـ اي المقام أو سياق الحال ـ لم يكن يعلم انه مسبوق الى هذا المصطلح بالف سنة فما فوقها.

إنّ الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجّلوه في كتب لهم تحت اصطلاح (المقام)، ولكنّ كتبهم هذه لم تجد الدعاية على المستوى العالمي ما وجده مصطلح (مالينوفسكي)، من تلك الدعاية، بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات، وبراعة الدعاية الغربية الدائبة(٤٣). ولتعمد اغلب الباحثين الغربيين اهمال الدرس اللغوي عند العرب لارتباط هذا الدرس بالنبص القرآني، وبالقيم الحضارية للعرب، وذلك مما لا يرغب هؤلاء الولوج فيه، مما اساء الى الدرس اللغوي عموماً، وساعد على تأخّره.

وارى أن العالم الغربي لو التفت الى معطيات العرب في دراساتهم اللغوية، ووظفها لخدمة الدرس اللغوي لافاد فائدتين هامتين.

اولها: تمنح الدرس اللغوي العالمي فيضاً من العطاء والتقدم بما يسبق به موقعه الحالي.

وثانيها: تكشف الحقائق العلمية التي اقرّها العرب القدماء، بما ينصف الدرس اللغوي عند العرب، ويوقف الباحثين على عديد من المسائل اللغوية التي كان للعرب فيها قصب السبق.

(٤٣) انظر: اللغة معناها ومبناها. ص ٣٧٢.

ـ الفصل الثالث ـ

جمع اللغة وتطورها وصراعها مع اللغات الاخرى

ـ المبحث الاول ـ
(جمع اللغة)

من المعروف أنّ اللغة بطبيعتها تستحيل على الاستقراء الشامل، وقد ادرك هذه الحقيقة القدماء يوم عكفوا على النظر في اللغة وما انتهى اليهم منها اذ قالوا إنّ « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا امثلة، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[١].

ونصّ بعضهم على انه « لا يمكن أن يحاط بجميع ما لفظت به القبائل، اذ كان غاية ليست بالمدركة »[٢].

ولهذا اصبح من المتعذّر على الباحثين قدماء ومحدثين معرفة شي محقق عن طفولة اللغة العربية الاولى[٣]، وليس لنا سند لها سوى ما انتجته قرائح ابنائها

---

(١) القول لابي عمرو بن العلاء (ت. ١٥٤ هـ). انظره في: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام: تر.: محمود محمد شاكر، القاهرة ١٩٧٣، ص٢٥.

(٢) عبث الوليد: ابو العلاء المعري، دمشق ١٩٣٦، ص٢٣٣.

(٣) لم تتفق كلمة الباحثين في اول من نطق العربية، فيرى فريق أنّ هذه اللغة تلقاها القحطانيون عن بقايا القبائل البائدة، وقد توسّعوا فيها حسب مطالب الحياة، واخذها عنهم العدنانيون ـوهم ذرية اسماعيل بن ابراهيم ـ الذي نزل مع ابيه مكة سنة (١٧٠٠ ق.م). لجوارهم لفرع قحطاني هو (جرهم)، ويرى فريق آخر أن لا صلة بين العدنانية والقحطانية، بل أن بعض هؤلاء من يحكم على القحطانية بانها غير عربية. ولكلّ فريق حججه التي تسند اقواله.
ومهما يكن من امر تاريخ العربية، فان كثيراً مما يهم الباحث اللغوي غير معروف الان، مما لا يساعد على معرفة كثير من خصائص العربية في نشأتها الاولى وعبر تطورها. =

من نثر قوي، وشعر رصين، فهذان الاثران ينبئان عن لغة بلغت غاية الكمال والثراء، ولا يكشفان شيئاً عن طفولتها أو شبابها، وكل الذي نعرفه أن العربية قد تدرجت في مدارج شتى، حتى بلغت أوجها، إلّا إنّ الناطقين بها ـ وهم من ابناء الصحراء المنبثين بين فيافيها، والمتفرقين في انحائها ـ كانوا قبائل عديدة، فأدّى بهم هذا التفرق في انحاء الجزيرة الى اختلاف البيئات، وصاحبه اتجاه الالسن الى الاختلاف بين القبائل في النطق، وساعد على ذلك أنّ الامة العربية كانت آنذاك امة اميّة تعتمد ذاكرتها ـ وكثيراً ما تخون الذاكرة المعتمد عليها، ولا تسعفه بالحقيقة ـ وبمرور الايام، وتباعد البيئات، وتفرع القبائل ازداد الاختلاف في نطق الاصوات حتى وصل الى الالفاظ، بنياتها، ودلالاتها، فكان ذلك ايذاناً بتفرع العربية الى لهجات كثيرة، فلما أريد لهذه اللغة أنْ تجمعُ، وأن تُدوّن الفاظها، و انماط تراكيبها، واساليبها، تنبّه القائمون بذلك الى هذه الحقيقة، وهالهم تعدد الوان الرداء اللغوي للعربية، فأتيحت امامهم فرصة المراجعة والتنقير والبحث للوقوف على اسلم الطرق واكثرها فعلًا في محاولة جادّة لجمع شتات اللغة، وبناء معجمها، وتقعيد نظامها سالكين من اجل ذلك طريقاً يتّفق الى حدّ بعيدٍ مع ما تقدره النظريات اللغوية الحديثة بهذا الشأن، ويمكن بيان ابعاد المنهج الذي سلكوه وهم يتأملون لغتهم بالآتي:

اولاً: اعتماد المنطوق

عوّل اللغويون العرب على المنطوق من اللغة، وعدّوا ذلك اصلاً في عملهم

= وقد تحدث المهتمون بالساميات عن اقرب اللغات السامية الباقية اليوم إلى السامية الا[ولى] حديثاً يشير الى ان العربية اقرب تلك اللغات لاحتفاظها بكثير من عناصر السامية الاولى.
انظر: اللغات السامية تخطيط عام. تيودور نولدكه. تر.: د. رمضان عبد التواب، القاهرة ١٣٦٨ هـ، ص١٣ وما بعدها.
ـ اشتات ومجتمعات في اللغة والادب. العقاد، ط٢، ص١٥ وما بعدها.
ـ فقه اللغة. ابراهيم محمد نجا، مصر ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٦ م، ص٩ ومابعدها.
ـ دراسات في فقه اللغة. د. صبحي الصالح، ط٣، ص٥٩.

«فلم يجيزوا الاعتماد على النص المكتوب، وانما استندوا على المشافهة والتلقي، وحذّروا العالم من الاعتماد على النص المدوّن، وحذروا ايضاً المتعلّم من تلقي العلم على من يفعل ذلك. و«ليس لاحد اذا اجمع اهل العلم والرواية الصحيحة على ابطال شيء منه، أن يقبل من صحيفة، ولا يروي عن مصحفي»(٤).

فالمسموع من اللغة هو بالنسبة الى جميع الناس اكثر مما يحصى، ولا يمكن أن يقاس عليه المقروء؛ وقد الحّ علماؤنا الاقدمون على اهمية المشافهة، فما اللغة الّا اصوات مسموعة، قبل أن تكون مكتوبة وانّ الخطّ تابع للفظ «ومن هنا جاء في كتبهم من التحليلات لظواهر التادية ما يؤكد اهمية السماع والمشافهة، ورصد الظاهرة اللغوية عن كثب»(٥)، حتى عيب على الكسائي (ت: ١٨٩ هـ) «انّه لم يقم بالبدو اربعين يوماً»(٦)، بمعنى انه لم يقم بالتلاقي والاختلاط والمعايشة المباشرة مع مَن يريد أن يسجّل لغتهم ليتمكن من الاخذ الدقيق عنهم.

وهم بهذه الطريقة لا يختلفون كثيراً عن المنهج الحديث في دراسة اللغة الذي يعتمد على الكلام المنطوق دون المكتوب.

ولعلّ اهم ما يأخذون عليه في هذه الناحية هو ظنهم أنّ اللغة شيء وراثي يتناقله الابناء عن الآباء، وترضعه الامهات للأطفال، ولذا سيطرت عليهم فكرة ارتباط الفصاحة بالجنس ارتباطاً وثيقاً، وانكروا على الفارسي او اليوناني وغيرهما امكان اتقان اللغة العربية كما يتقنها اهلوها من العرب، مهما بذل هؤلاء في تعلّمها، وثابروا على المران عليها، وتلقوها منذ الصغر، ومهما كان حظهم من الثقافة العربية، ولهذا رفض اللغويون العرب الأخذ عن (ابن

(٤) المزهر في اللغة، ١/ ١٠٤.
(٥) اثر اللسانيات في النهوض بمستوى اللغة. عبد الرحمن الحاج صالح، الرياض، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م، ص١٠٨.
(٦) مجالس العلماء، الزجاجي، تحقيق: عبد السلام هارون، الكويت ١٩٦٢، ص ١٧١.

المقفع) مثلًا لاصله الفارسي، على الرغم من فصاحته، في حين كانوا لا يتورعون من الاستشهاد بكلام الاطفال والمجانين؟ قال (السيوطي): «قال ابن دريد في اماليه، اخبرنا عبدالرحمن عن عمه الاصمعي قال: سمعت صبية بحِمى ضَريّة (بين البصرة والكوفة) يتزاجرون، فوقفت وصدّوني عن حاجتي، واقبلت اكتب ما اسمع، اذ اقبل شيخ، فقال: أتكتب كلام هؤلاء الاقزام الأدفاع؟»(٧) وقال: «وكذلك لم أرهم توقوا اشعار المجانين من العرب، بل رووها، واحتجوا بها»(٨).

– ويعاب عليهم في هذا المجال ايضاً، خلطهم بين مستويين من اللغة لا يصح الخلط بينهما، وهما مستوى اللغة الادبية النموذجية المتمثلة في القرآن الكريم، والحديث والسفر والخطب والامثال، ومستوى اللهجات العامية المتمثلة في القراءات القرآنية، ولغة الخطاب، كما انهم لم يكونوا على حق في ربطهم الفصاحة بالبداوة لان اللغة بنت الحاجة والاستعمال، وهي لا تنشأ في فراغ، وانّما لتعبّر عن تجارب وحاجات وثقافات معينة. ولا شك أنّ تجارب البدوي وحاجاته تختلف عن تجارب الحضري وحاجاته، ولذلك ليس من المعقول أن تغني احد اللغتين عن الاخرى، وليس من الحقّ أنْ نعدّ لغة البدوي ارقى من لغة الحضري، رغم انها لا تفي بحاجاته(٩).

ثانياً: التحديد الزماني والمكاني

لما كانت اللغة نظاماً اجتماعياً، كالدين والحكومة، تخضع لتأثير الزمان والمكان فقد عني الباحثون العرب القدماء بهذين المؤثرين، وهم يستقرئون اللغة، بما يمنح الدرس اللغوي عندهم سمة وصفية مرموقة.

(٧) في اللسان (دفع) دفع الشي: جهَد، وجاع، واشتهى وطمع والرجل: حصع، وذل ولؤم.
(٨) المزهر، ١/١٤٠. وانظر: البحث اللغوي عند العرب. د. احمد مختار عمر، مصر ١٩٧١، ص٣٨.
(٩) انظر: البحث اللغوي عند العرب، ص٣٧.

ومسألة الزمن لا تؤثر هنا إلّا بمقدار تلازمها مع الاطار الاجتماعي والحضاري للبيئة العربية حتى انّه «لو فرضنا اليوم أنّ في بعض القفار النائية عن العمارة قوماً من العرب لا يخالطون غيرهم، وكانوا قد اخذوا اللغة عن مثلهم، وكذلك الى حين ابتداء الوضع لوجب أن يكون قولهم حجة كاقوال المتقدمين وان كانوا محدثين»(١٠).

فحرص اللغويين العرب على احكام الحدود الزمانية والمكانية التي يجب أن تحيط بلغة الاحتجاج هو الذي قادهم الى اعتبار الزمن حدثاً فاصلًا بين الفصيح وغيره حيث تتوالى بعد هذا الزمان المعين، وبعد الحيز المكاني المحدد الانفصامات التي نفذت الى جسد اللغة طاعنة اياه بما لم يألفه العربي من قبل، من ضروب اللحن والخطأ، يوم كانت اللغة كاصحابها منغلقة على ذاتها، ممعنة في الانغلاق حفاظاً على وجودها.

وقد حدد اللغويون الحيز الزماني بمنتصف القرن الثاني للهجرة بالنسبة للحضر، واواخر القرن الرابع بالنسبة للبادية، فهذا الزمان هو الذي لم يتسرب خلاله الى اللغة شيء من اللحن، أو العجمة، انه حيّز (الصحة اللغوية) إن جاز هذا التعبير، الحيز القابل لأنْ تُستقرأ اللغة في ضوئه وتنظر. وما بعده تتفكك نواة الامّة الصلبة – اقصد: اللغة – على المستويات الصوتية والبنائية والتركيبية، مما مهّد لظهور اللهجات العامية في مقابل الفصحى، واللهجات كما سنرى «بدايات قديمة في تاريخنا لدى الشعب المستعرب، بدايات تكبتها الفصحى، وتقلّصها فتتوارى، إلا انها استحالت مع الانحسار نهايات، وامتدّت وانتشرت، فاصبح لكلّ قطر، لكل جنس، لكلّ مدينة، لكل قرية، ولكلّ حي من احياء المدينة الواحدة لهجتها أو لهجته»(١١)، ومثلما حُدد الزمان، حُدد المكان، وأشترط في المصدر البشري الذي تؤخذ عنه اللغة

(١٠) سر الفصاحة، ص٢٧٦. وانظر: تجليات الحداثة في التراث العربي. محمد عبد المطلب، مجلة فصول ٣، ١٩٨٤، ص٦٥.
(١١) قضايا الادب وضرورة انتاجه. انطوان مقدسي، تونس ١٩٧٨، ص٧٤.

شروط معينة، اهمها صحة اللسان العربي، وسلامته اللغوية، وبُعده عن كلّ المنافذ الاجنبية، وقرر اللغويون الاوائل وهم بصدد استقراء اللغة أنّ هناك اماكن هي وقف على الفصحى، ولذلك حرصوا على أن يأخذوا منها، فقاموا بتحديد هذه الاماكن، ومَن سكنها من القبائل، وعيّنوا لنا ما يمكن الاخذ عنهم، والاحتجاج لهم، وما لا يمكن، معللين ذلك كله، فقد ذكروا أن قريشاً «كانت اجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ، واسهلها على اللسان عند النطق، واحسنها مسموعاً، وابينها إبانة عما في النفس»[١٢]. وسبب ذلك عندهم «أنّ العرب كانت تحضر الموسم في كلّ عام، وتحجّ البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلّموا به، فصاروا افصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الالفاظ»[١٣].

«وكانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة السنتها، اذا اتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم، واشعارهم احسن لغاتهم، واصفى كلامهم فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات الى سلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك افصح العرب»[١٤].

فاذا زدنا على هذا ما لقريش من مكانة بين القبائل العربية الاخرى بفعل نفوذها الديني، والتجاري، والسياسي، عرفنا الاسباب الكامنة وراء تكوين اللغة الادبية النموذجية التي توحدت قبل الاسلام، واصبحت اللغة القومية المشتركة التي تمثّل القبائل جميعاً، وهي اللغة الفصحية (لغة قريش) التي ارتفعت عن كلّ انحراف لغوي، وعلى ايّ مستوى من مستوياتها مما اصاب اغلب لهجات القبائل الاخرى، فقد ارتفعت لغة قريش عن «عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجّع قيس، وعجرفية ضبّه، وتلتلة

(١٢) المزهر: ١/٢١١.
(١٣) نفسه: ١/٢٢١.
(١٤) نفسه: ١/٢١٠.

بهراء»[١٥]. وغير ذلك مما اصاب اللهجات العربية الاخرى[١٦].

«والذين عنهم نقلت العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس، وتميم، واسد؛ فانّ هؤلاء هم الذين أُخذ عنهم اكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم أتكل في الغريب وفي الاعراب والتصرف، ثم هذيل، وبعض كنانه، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم»[١٧].

فلم يؤخذ عن حضري قطّ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم؛ فلم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام؛ لمجاورتهم اهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسّان، واياد لمجاورتهم اهل الشام. واكثرهم من النصارى يقرءون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن؛ فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد قيس وأزد عمان؛ لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من اهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة؛ ولا من بني حنيفة وسكان اليامة، ولا من ثقيف واهل الطائف؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين

(١٥) الخصائص: ٢/١١. وانظر: الاقتراح. السيوطي. حيدر آباد الدكن، ص٢٢. والمزهر: ١/٢١١.
والعنعنة؛ ابدال همزة (أن) عيناً. اذا وقعت اول الكلمة، واصحابها هم تميم ومن جاورهم من اسد، وقيس، والكشكشة: ابدال كاف المؤنث شيناً في الوقف ليتميز المذكر من المؤنث في هذه الحالة، فيقولون: عليش، ومنش. ولها صورة اخرى، وهي زيادة الشين بعد كاف المؤنث، لتظهر الكسرة عليها عند الوقف، ويعرف المخاطب على حاله وحقيقته، فيقولون: عليكش. وهي منسوبة لربيعة ومضر.
والكسكسة: ابدال كان المؤنث سيناً. فيقولون: ابوس دامس، ونُقل انها زيادة سين بعد كاف المؤنث، فيقولون: عليكس. وهي منسوبة لربيعة ومضر، ونسبها الحريري لبكر، ونسبها بعض العلماء لهوازن والتضجّع: هو لغة الخفض والدعة، والتضجيع في النطق هو التأني فيه والعجرفة والعجرفية: الجفوة في الكلام، والتقعر فيه، او السرعة فيه.
والتلتلة: كسر تاء تِفعلون، تِقولون، تِعلمون، تِشهدون، وغيرها.
(١٦) انظر: فقه اللغة. ابراهيم محمد نجا، ص٣١-٣٤.
(١٧) المزهر: ١/٢١١.

عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لانّ الذين نقلوا العربية صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الامم وفسدت السنتهم »[18].

والتحديد المكاني لم ينفصل حتى عن المعايير النقدية، وبخاصة فيما يتصل باللغة التي تبدو الخواص الجمعية فيها اكثر وضوحاً. ففي ضوئها يحكم على النتاج الفني بالرفض أو القبول، والتحديد المكاني هذا قد جعل هناك تصوراً لنوع من الجماعية للنتاج الادبي، (فابن سلام) يخصّ (شعراء القرى العربية) بحديث مستقل في طبقاته؛ وهنّ خمس: المدينة، ومكة، والطائف، واليمامة، والبحرين، مما يشير الى أن تقسيم الشعراء على طبقات ليس إلا تأكيد لهذه الجماعية، وتبعاً لذلك تأخذ الخواص الفنية جماعية، « فاشعار قريش فيها لين يشكل بعض الإشكال » و (كثيّر) شاعر حجازي، ومكانته غير منكورة عند اهله، لكنه كان منقوص الحظ عند غيرهم. قدم على (عبد الملك) فانشده و (الاخطل) عنده. فقال له (عبد الملك): كيف ترى يا ابا مالك؟ قال: ارى شعراً حجازياً مقروراً لو ضغطه برد الشام لاضمحل »، ومن هذا المنطلق نفسه كان (ابو عمرو بن العلاء) يعيب جريراً والفرزدق بطول مقامهما في الحضر؛ كما ابطل الرواة الاحتجاج ببعض الشعراء لكونهم في الحضر[19].

ولعل السبب الاساس عند مَن تصدّوا لجمع اللغة في الأخذ من هنا، وعدم الأخذ من هناك؛ هو أنّ الذين أُخذ عنهم قد اتخذوا لانفسهم قياساً يتصرفون في ضوئه باللغة حين يحتاجون الزيادة فيها للتعبير عن حاجاتهم،

(١٨) مقدمة ديوان الادب. الفارابي ابو نصر محمد بن محمد (ت. ٣٢٩ هـ). تحقيق وتقديم د. احمد مختار عمر. مجلة معهد المخطوطات العربية ـ المجلد السابع، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٦١، ص١٣١.
وانظر: الحروف: الفارابي. تر.: د. محسن مهدي. بيروت، ص١٤٦ ـ ١٤٧. والمزهر ٢١٢/١.

(١٩) انظر: طبقات الشعراء. ابن سلام، ص٨٧. وتجليات الحداثة في التراث العربي. محمد عبد المطلب، ص٦٨.

قياساً لا يخالف ما كان سبق، لا في اصواته، ولا في تراكيبه، ولا في اعرابه، فاللغة عند هؤلاء إرث يتوارثونه آخر عن أول، وتابع عن متبّع، لا يخالف الثاني الاول، ولا الثالث الثاني.

وليس كذلك مَن لم يؤخذ عنهم من الحضر، فقد كان هؤلاء « يتظاهرون بينهم بأنهم قد تركوا، وخالفوا كلام من ينتسب الى اللغة العربية ا لفصيحة، غير انّ كلام اهل الحضر مضاهٍ لكلام فصحاء العرب في حروفهم وتأليفهم إلّا انهم اخلّوا من اعراب الكلام الفصيح..»[20].

ولهذا كان الاصمعي قد جلس الى ابي عمرو عشر حجج فلم يسمعه يحتج ببيت اسلامي.

وقد عاب (ابو عمرو بن العلاء) (جريراً) (والفرزدق) بطول مقامهما في الحضر وابطل الرواة الاحتجاج بشعر (الكميت) و (الطرماح) لانهما كان حضريين. وكان (الاصمعي) ايضاً يقول: « وليس الكميت بن زيد بحجة، لان الكميت كان من اهل الكوفة، فتعلّم الغريب، وروى الشعر، وكان معلماً فلا يكون مثل اهل البدو، وانْ لم يكن من اهل الحضر »[21].

وانه « جرمقاني من جراميق الشام لا يحتج بشعره »[22].

وروى (ابن نوفل) « قال: سمعت ابي يقول لابي عمرو بن العلاء: اخبرني عما وضعت مما سميته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كلّه؟ فقال: لا. فقلت: كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة؟ قال: اعمل على الاكثر، واسمي ما خالفني لغات »[23].

(٢٠) الخصائص: ٢/ ٢٩٠.

(٢١) الموشح في مأخذ العلماء والشعراء. للمرزباني، المطبعة السلفية، ١٣٤٣ هـ، ص١٩٢.

(٢٢) الوساطة. القاضي الفاضل. تر.: محمد ابو الفضل، وعلي محمد البجاوي، البابي الحلبي، ص١٠.

(٢٣) طبقات النحويين واللغويين. الزبيدي. تر.: محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٧٣ ص٢٢.

ومن هنا يمكن القول بانّ اللغة العربية المشتركة، لغة العرب جميعاً قد صبّت فيها لهجات العرب من مختلف بيئاتهم، ثم عمل المجتمع العربي في عمومه، وبكلّ قبائله وامصاره على تطوير هذه اللغة، فلم يكن نموّها في قبيلة بعينها، أو بيئة واحدة، وانّما تقبّلت في نموّها إعناصر من جميع لهجات القبائل، وهي في الاساس لهجات تقترب الى حدّ بعيد من الفصحى، وهذا ما يفسّر لنا امرين مهمين:

اولها: «سبب قرب اللغة الفصحى من كلّ لهجة»(٢٤). على الرغم من كون الفصحى أرقى صورة للعربية.

وثانيها: ان هذه اللغة الفصحى ليست لغة مصنوعة كما يرى بعض الباحثين(٢٥). ولم يكتفِ رواة اللغة وجامعوها. ومدوّنوها بتحديد المساحة التي عنها ينقلون ويسمعون، وانّما حرصوا على معرفة الفاظ وعبارات من نقلوا عنهم، ورصد أذواقهم، ومقاييسهم الجمالية لا على مستوى الافراد، وانما على مستوى الجماعات، وفي اغراض معينة من الشعر التي كثيراً ما تتصل بحياة العربي آنذاك، فكانوا يسألون الاعراب عن اجمل ما قيل في الغزل عندهم او في الفخر او الهجاء او غير ذلك مما يشيع بينهم، ولم يكتفِ علماء اللغة ونقاد الادب بالتعرف على اذواق الاعراب فحسب، وانما تناولوا الجزئيات التي تضمّها بعض الاغراض، بل قد يلجأ اللغوي الى الاعراب محاولاً التعرف على ما يبدو له من مستغلق القول، فهذا (ابو عمرو) يقول عن بيت (لامرئ القيس):

نطعنهم سلكى ومخلوجة   كرك لامين على نابل

(٢٤) اللغة بين الوصفية والمعيارية، ص٦١-٦٢. وانظر: الادب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة د. هاشم الطعان. بغداد ١٩٧٨، ص١٣٧.

(٢٥) من هؤلاء (فوللرز) و(پاول كالة) انظر: فصول في فقه العربية د. رمضان عبد التواب. ص٣٣٤.

«كنت اسأل منذ ثلاثين سنة عن هذا البيت فلم اجد احداً يعلمه حتى رأيت اعرابياً بالبادية فسألته عنه ففسّره لي»(٢٦).

وقد كثرت المواضع التي تدخّل فيها الاعراب مصحّحين بعض المفاهيم الخاطئة في اقوال اللغويين التي يفسّرون بها الشعر، أو تدخلوا لتصحيح رواية بعض النصوص الشعرية التي شاع فيها التصحيف، او لتفسير بعض الكلمات المشكلة المعاني، أو لتقويم بعض المسائل العروضية، او غير ذلك مما يعرض للغويين من امور اللغة.

وعلى الرغم من أنّ المنهج الذي اعتمده اللغويون العرب في جمع اللغة وتسجيلها يشير الى عدم اهتمام اللغويين في الثاني للهجرة -وهو الزمان الذي بدأ فيه جمع اللغة وتسجيلها- بالتنوع اللغوي في الجزيرة العربية، وقصروا اهتمامهم على تقرير فصاحة لغة القبيلة المعينة، او عدم فصاحتها، فشغلتهم قضية الفصاحة هذه عن باقي القضايا الكثيرة التي يمكن طرحها في العمل اللغوي الميداني، ويشير ايضاً الى عدم محاولة اولئك اللغويين جمع الظواهر اللغوية من اجل بحثها بحثاً شاملاً، ينسب لكل قبيلة كلّ ما عندها من ظواهر لغوية في حدود زمانية ومكانية معينة. وانّما قصروا همهم على تسجيل بعض الظواهر التي لفتت انظارهم عند بعض القبائل، كذلك لم يهتموا باللهجات العربية الكثيرة، بعد أن قاسوها بمقياس اللغة الفصحى، وعدّوها فساداً لغوياً لا يجوز الأخذ به.

وبذلك لم يكن العمل اللغوي هذا تسجيلًا لجوانب الحياة اللغوية عند ابناء العربية بكلّ مشاربها والوانها التي يفترض أن يطمح اليها الدارسون والباحثون بل كان محاولة «للبحث عن الصيغ الفصيحة، والكلمات الفصيحة عند القبائل العربية التي يقترب استخدامها للغة من المستوى اللغوي المنشود... وظلّ

(٢٦) انظر: شرح ديوان امرئ القيس. ابو بكر بن عاصم البطليوسي. مصر ١٣٠٧، ص١٣٤. وانظر: النقد عند اللغويين في القرن الثاني الهجري. ص٣٣ وما بعدها.

اللغويون في القرون التالية يقصرون عملهم على المادة اللغوية التي اعترف علماء القرن الثاني الهجري بفصاحتها، وبذلك حددت حركة جمع اللغة في هذا القرن في اطار النظرية العامة للعمل اللغوي في القرون التالية، وظلت التعبيرات الشائعة في كتب اللغة مثل (لغة الحجاز) او (لغة اهل الحجاز) او (لغة تميم) او (لغة هذيل) لا تعني الاستخدام اللغوي عند هذه القبائل عموماً، بل تعني الاستخدام اللغوي عند هذه القبائل في القرن الثاني الهجري، وبذلك لا تختلف الظواهر التي عالجها (السيرافي) مثلًا في القرن الرابع الهجري، عن الظواهر التي ناقشها (السيوطي) في القرن التاسع الهجري، فهما يناقشان مثل باقي اللغويين العرب. ما سجله الباحثون في القرن الثاني الهجري، وعندما يذكر (ابن منظور) (ت. ٧١١ هـ) و (الزبيدي) (ت ١٢٠٥ هـ) في لسان العرب وتاج العروس مجموعة من الملاحظات حول دلالات الالفاظ، فانهما لم يسجلا هذه الملاحظات عن الاستخدام اللغوي في القرن السابع او القرن الثاني عشر للهجرة، بل نقلاها عن كتب تعود بدورها الى كتب قام اكثرها على اساس ما جمعه اللغويون في القرن الثاني الهجري، وبذلك تعدّ حركة جمع اللغة في القرن الثاني الهجري اساس المادة اللغوية ونظرية اللغة عند اصحاب المعاجم العربية التالية »(٢٧).

ومع هذا فانّا لا نعدم بعض اللغويين في القرن الثاني الهجري أو في غيره، ممن حاولوا أن يخرجوا عن الطوق الذي فرضه غيرهم. رافضين كثيراً من الصفات والاحكام الواجبة والجائزة، والممنوعة، والحسنة، والقبيحة، وغير ذلك مما أطلق على بعض الظواهر اللغوي عند من لهج بها من العرب، وعمل هؤلاء مما يفرضه واقع اللغة، ولا يرى ضرورة لمخالفته في كثير من الاحيان ما دام ذلك يمثّل واقعاً لغوياً مستخدماً، فكم تعلّق اصحاب اللغة باستعمال أو حكم هو في عرف اللغويين ممنوع؟ ولكنّهم تركوا استعمالًا او حكماً آخر هو

(٢٧) علم اللغة العربية. مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية. د.محمود فهمي حجازي، الكويت ١٩٧٣، ص٩٧ ـ ٩٨.

عند اللغويين صواب يجب اتباعه. ولقد قال العرب قديماً « خطأ مشهور خير من صواب مهجور »(٢٨).

وهذا يعني أنّ الوجوب في الاحكام ليس واجباً، فانّ الحكم الخاطئ أو الممنوع بسبب ذلك الخطأ اذا شاع واشتهر، اصبح واجباً، وبذلك يصبح ذلك الواجب ـ الصواب ـ ممنوعاً لانّه هُجر وطرح من لدن المتكلمين. وكأنّي (بالكسائي. ت. ١٨٩ هـ) قد ادرك ذلك اذ يقول: « فسألت (عيسى بن عمر) عن: همك ما اهمك. قال: فذهب يقول: يجوز كذا وكذا ويجوز كذا، قال: فقلت: عافاك الله، انما اريد كلام العرب، ولم تجئ بكلام العرب(٢٩).

وكان ابو حيان الاندلسي (ت. ٧٤٥ هـ) يقول: « قال سيبويه: وسألت الخليل عن قوله: كيف تصنع اصنع. قال: مستكرهة، وليس من حروف الجزاء، ومخرجها عن الجزاء لان معناه، على أيّ حال تكن اكن، والصحيح أنّ الجزم بها لا يجوز لانه احداث لغة... فلا يجوز الجزم إلا بسماع، وينبغي ايضاً ألّا يجوز المجازاة من حيث المعنى إلا أن يثبت ذلك من لسان العرب بحيث تصير قانوناً كلياً يبني على مثله القواعد، ولا تنبغي ان تلتفت الى مثل النحاة بقولهم: كيف تصنع اصنع، وكيف تجلس اجلس، وإنْ كان لا ينبو عنه الطبع، حتى يثبت دالّ من كلام العرب، فكم من كلام يقبله الطبع، وليس من كلام العرب »(٣٠).

ولكنّ امثال (الكسائي)، و(ابي حيان)، وغيرهما لم يكونوا بالكثرة التي تؤثّر في منهج اللغويين، وخاصة ابتداء من أواخر القرن الثالث الهجري. فلم يكتف غيرهما بالتسميات والنعوت التي اطلقت على ما خالف سبيلهم في الاخذ

(٢٨) انظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، تاريخه، اعماله، محمد رشاد الحمزاوي، ص٤١٣.
(٢٩) مدرسة الكوفة. د.مهدي المخزومي، القاهرة ١٩٥٨، ص١١٦.
(٣٠) الرواية والاستشهاد باللغة. د.محمد عيد، ص١٨٧. نقلًا عن التذييل والتكميل في شرح التسهيل لابي حيان الاندلسي.

والتسجيل والتقعيد، بل راحوا يستدلون على ما وجب من احكام او جاز، أو امتنع، او ما كان منها حسناً أو قبيحاً، دون أن يضعوا للقبيح والحسن، والشاذ، والنادر، والإكثر، والكثير، والاقل، والقليل، معالم يعرف بها، ولا خصائص اذا توافرت في الحكم كان حسناً، واذا انتفت منه كان قبيحاً، مما ادخل الدرس اللغوي في بلبلة، واضطراب ترفضه اللغة، لكون مسألة الحسن والقبح من مشمولات الاخلاقيات والدين، ثم انها مما ينبني على التحكم، إذا اعتبرناها مما يدخل في نطاق الذوق، والذوق لا يمكن باية حال أن يحكّم في دراسة اللغة دراسة موضوعية.

إنّ اللغويين العرب حين قصروا (الصحة اللغوية) على قوم معينين، وقصروها على زمن معين، وبيئة معينة، فنشأ في مخيلتهم ما يمكن أن يعبّر عنه بـ (دكتاتورية الزمان والمكان) على حدّ تعبير الدكتور ابراهيم انيس[31]، نجد انّ لهذه (الدكتاتورية) جانبين. اولها: ايجابي، تفرضه طبيعة المنهج الوصفي التي تقتضي تحديد الزمان والمكان في الدراسة المعينة؟ وثانيها: سلبي. لانّه لم يضع الفصحى في مستوى واحد من اللهجات الاخرى. حين اخضع اللغة للدرس.

وعلى الرغم من أن (سيبويه) (ت. ١٨١ هـ) قد فطن الى الفروق اللغوية بين اللهجات[32]، إلا أننا نرى أنّ عدم وضع الفصحى في صف اللهجات قد فوّت علينا كثيراً مما نطقت به القبائل التي لم يعتد اللغويون بلهجاتها، في حين أن لهجات القبائل العربية على اختلافها يمكن أن تعدّ صحيحة، فصيحة وكلّ واحدة منها يصح الاخذ بها والقياس عليها[33]، على الزغم من ان اكثرها

(٣١) من اسرار العربية. د. ابراهيم انيس، ط ٥، مصر ١٩٧٥، ص٣٦.

(٣٢) انظر: الكتاب، طبعة بولاق. ٢٨/١، ٧٣، ١٨٧ و٤٠/٢، ٤٧، ٦٧، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٨٦، ٤٢٤.

وانظر: المزهر: ٢٧٥/٢.

(٣٣) انظر: الخصائص. ٤١٠/١. (باب اختلاف اللغات وكلها حجة).

اكثر شيوعاً، واوسع نفوذاً، واجلّ وقعاً، ولكنّ هذا لا يوجب أن يُقتصر عليه وحده، ولا يحول دون الاستشهاد بغيره، والاحتجاج به.

وانّ العربي قد يستخدم لهجة غير لهجته قبيلته، او الفاظاً غير الفاظها، ويستغني بها عن لغته، او لا يستغني، وانه قد ينفرد بالابتكار والتجديد[34]، وقد يكون ما تفرد به راجعاً الى لغة عربية قديمة وصلت اليه، ولم تصل الى الناس[35].

وإنّ قصر اللغويون الاخذ عن قبائل معينة قد ترتّب عليه جمع اشتات مختلفة من خصائص اللغة المختلة، واللهجات في تلك القبائل، مع أنّ لكل منها خصائص تنسجم مع عناصرها الاخرى، ولا يمكن أنْ يُفترض هذا الانسجام اذا اختلطت بغيرها، فاذا زيد على هذا المدى الزمني الطويل الذي لم يدرس بهذا الوصف بل درس على انّه مدى واحد، ومرحلة واحدة، واخذ في الاعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية تتطور باستمرار، وانّ لكل مرحلة منها خصائص مستقلة قد تكون جديدة تماماً، او متجددة عما سبقها، يكشف لنا عمل اللغويين هذا في موقف لا يتفق مع صفة اللغة الاجتماعية، وترتّب عليه هذه التركة المثقلة بالأقيسة المتعددة المتضاربة، والى التمارين غير العمليـة، والى نوازع القسر والوجوب والفرض في مسائل اللغة، ويكشف لنا ايضاً عن سرّ ثورات بعض اللغويين التي لم يكتب لها النجاح[36]، والى تعارض واضح بين الطبع اللغوي، وبين القيود اللغوية التي اراد اللغويون فرضها على المتكلم،

(٣٤) انظر: الخصائص. ٤٢٤/١. وفيه: «ان العربي اذا قويت فصاحته، وسمت لغته تصرف وارتجل، ما لم يسبقه احد قبله به؛ فقد حكى عن رؤبة وابيه: انهما كانا يرتجلان الفاظاً لم يسمعاها، ولا سُبقا اليها».

(٣٥) اللغة والنحو بين القديم والجديد. الاستاذ عباس حسن. دار المعارف، مصر ١٩٧١، ص٥٤.

(٣٦) من ذلك ثورة ابي مضاء القرطبي في كتابه: الرد على النحاة. حققه وقدم له. د. شوقي ضيف، القاهرة ١٩٤٧.

وانظر: اصول النحو العربي. د. محمد عيد، مصر ١٩٧٣، ص١٢٣.

والمحاورة بين (الفرزدق) و(عبدالله بن اسحق الحضرمي) خير دليل على ذلك، فقد خاطب (الفرزدق) (عبد الملك بن مروان) بقصيدة منها:

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتاً او مجلّفُ

فقال (الحضرمي): علام رفعت: مجلف.

فقال الفرزدق: «على ما يسوءك وينوءك، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا»(٣٧).

وهكذا وجدنا خلطاً بين المستوى النحوي ـ وهو قواعد صارمة ـ والمستوى اللغوي ـ وهو كائن متحرك متأثر ـ، وظهر على صحيفة اللغة كثير مما نُعت بالكثير او القليل، أو النادر، او الشاذ، او القبيح، وغيرها من النعوت التي لم يستطع اللغويون تفسير المراد منها بدقة، وكلّ ما يمكن فهمه في ضوئها انها تدعو الى صورة مثالية للغة، لا يمكن أن نلحظ خلالها حركة اللغة، أو رصد تطورها في ضوء الواقع والتاريخ، ما دامت الحياة الجمعية في تبدل وتغيّر، بما يلزم اللغة أن تساير هذه الحياة في تبدّلها وتغيرها، وتعدد شؤونها، وتنوع اتجاهات حاجاتها، فيتسع من اللغة متنها وتزيد مفرداتها بالوضع او الاشتقاق او الاقتباس، وتسمو اساليبها، وتتباين فنون القول فيها.

«إنّ الصورة المثالية القديمة التي كانت تفرض للغات لا يقرها العلم المعاصر، ولا يقول بها، فقد اصبح يدعو الى مثالية اخرى عملية ونافعة، فاللغة المثالية هي تلك التي تصدر عن روح العصر، وتتمشى مع حاجاته ومطالبه على اخصر صورة، واوضح مظهر»(٣٨).

ورحم الله صاحب شرح (درة الغواص) الذي قال: «لو اقتصرنا في

(٣٧) نزهة الالباء لابي البركات بن محمد بن الانباري. تحقيق د.ابراهيم السامرائي، بغداد ١٩٧٠، ص٢٧-٢٨.

(٣٨) في اللغة والادب. د.ابراهيم بيوهي مدكور، دار المعارف، مصر ١٩٧١، ص

الالفاظ على ما استعمله العرب العاربة والمستعربة حجّرنا الواسع، وعسر التكلم بالعربية على من بعدهم»(٣٩).

إن مسألة الصواب والخطأ في اللغة مسألة نسبية، فالصواب صواب بالنسبة الى ظروف معينة تمرّ بها اللغة اجتماعياً، وتاريخياً، وبالنسبة الى النموذج الذي يقاس اليه، ومستوى هذا النموذج، سواء اكان من اللغة الادبية ام من لغة التأليف، والكتب، وبالنسبة الى مستوى اللغة ذاتها، فصحى كانت أم عامية. وهكذا تتحكم النسبية في المشكلة التي شغلت جانباً كبيراً من مناقشات العلماء والادباء خلال القرون(٤٠).

وكأنّي بالعالم العربي الجليل (ابن جني) قد ادرك هذه الحقيقة فلم يرفض مبدأ وجود توحد لغوي عربي بفعل اتصال القبائل العربية بعضها ببعض وانْ تباعدت هذه القبائل مكانياً وبهذا الاتصال سمع العربي لغة غيره افيراعيها ويعتمدها، أو يلغيها ويّطرح حكمها(٤١).

ولهذا ساوى (ابن جني) بين اللغات، وكان الفيصل عنده هو الاستعمال، فكل ما جاء عن العرب صواب(٤٢)، لان اللغة ملك مشترك للمجتمع، ونشاط اجتماعي فمن البداهة أن يتّسع باب القياس اللغوي وتُستقرأ اللغة ويقرر واقعها دون وجوب او جواز أو الزام، وليس من حقّ احد ان يحكم على ظاهرة لغوية بالصواب او الخطأ دون أن يبني حكمه في ضوء حكم السلطة العليا، أعني (العرف الاجتماعي) القائم بين من ينطقونها، «واقصى ما يمكن أن نطالبَ به اللغويين هو القواعد المتفقه مع الاستعمال وليست القواعد التي تتحكم في سلوك اللغة»(٤٣).

(٣٩) شرح درّة الغواص في اوهام الخواص (للحريري). لاحد شهاب الدين الخفاجي، الطبعة الاولى، الجوائب-قسطنطينية ١٢٩٩ هـ، ص٧٠.

(٤٠) في علم اللغة العام. د.عبد الصبور شاهين، ط٣ بيروت ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص٢٤٠.

(٤١) انظر الخصائص: ١٥/٢. وهامش رقم (٧)، ص

(٤٢) انظر الخصائص (باب فيما يرد عن العربي مخالفاً لما عليه الجمهور) جـ١/٣٨٥.

(٤٣) الرواية والاستشهاد باللغة، ص٦٩.

ومع هذا كلّه فانّا نبقى نوكّدُ أنّ المنهج الذي اعتمده اللغويون العرب في جمع اللغة واستقرائها، لا يخلو من خصائص موضوعية بارزة يقرّها علم اللغة الاجتماعي المعاصر، وتُدلّ على حقيقتها وعلميتها كلّ الدراسات والبحوث التي اقيمت في هذا المجال، ومن ابرز هذه الخصائص ما يمكن بيانه بالآتي:

اولاً: إنّ وضع الحدود بين اللهجات وقبائلها، وانْ لم يأخذ صورة علمية صارمة تهتم بايجاد خرائط مفصلة عن وجود الظواهر اللغوية المعينة وانتشارها، بما يساعد في النهاية على تكوين (الاطلس اللغوي) الخاص بلهجة او مجموعة من اللهجات، او بلغة او مجموعة من اللغات، كما الحال اليوم، إلا أنّ فصل اللغويين العرب القدماء يشير الى وجود فكرة (الجغرافية اللغوية) لديهم، على الرغم من كون هذه الاعراب في البوادي، ونسبوا كلّ ما سمعوه الى قائله، او الى قبيلته، وحين وضعوا المسموع والمروي في مقابل ما يروونه من المستوى نفسه عن بدوي آخر، من قبيلة اخرى، وحين ميزوا في رواياتهم بين بعض القبائل التي يصفونها بالفصاحة، وهي قبائل التي يصفونها بالفصاحة، وهي قبائل شمالي الجزيرة، ووسطها، وشرقيها، في مقابل الحدود والتخوم التي يرون أن لغاتها (تأشبت) أي: فسدت، بتأثير القبائلَ المجاورة، فقبائل اليمن متأثرة بلغة الحبشة، وقبائل لخم وجذام متأثرة بمصر وباللغة القبطية، وقبائل الغساسنة او المناذرة متأثرة بمجاوريها من الفرس والرومان.

وقد أصبح اليوم كما هو معروف من إهداف الدراسات اللغوية الحديثة وفي ظلّ علم جديد سمّاه (سوسور) بـ(علم اللغة الجغرافي) (٤٣ب) Linguistique Géograhique، بيان اوجه العلاقة بين الظاهرة اللغوية ومجال انتشارها، بما يشبه صنيع اللغويين العرب القدماء محاولتهم وضع الحدود بين اللهجات والناطقين بها، على الرغم من أنّ (سوسور) ومن تابعه قد قدّموا «دراسات عميقة عن تنوع اللغات واختلافاتها الجغرافية، وتعايش اللغات

(٤٣ب) انظر: علم اللغة العام، سوسور، ص١٤، وما بعدها.

عديدة في مكان واحد، وعن قضايا اللغة الادبية واللهجات المحلية، وعوامل الاختلاف الجغرافي، وأثر الزمن في هذا الاختلاف، وتأثيره كذلك على الرقعة الجغرافية، وغير ذلك مما لم يُسبق اليه بكمّه، وكيفه، ومعطياته العلمية(٤٤).

ثانياً: إنّ العامل الحضاري عند اللغويين العرب القدماء هو الحدّ الفاصل بين السلامة اللغوية وعدمها، وهو كذلك الاساس في الأخذ والتسجيل أو عدم الاخذ، فكلّما كانَ المصدر البشري للغة منعزلاً عن المؤثرات الحضارية، والتأثر بلغات اخرى نتيجة للاحتكاك الاجتماعي. كان هو المؤشّر على سلامة المصدر اللغوي ونقائه من شوائب الفساد اللغوي، وقد حدد اللغويون القفار التي يصح عنها الاخذ والمناطق التي لا يصح عنها ذلك. واساس هذا التحديد هو البعد عن المؤثرات الحضرية حيث القفار النائية عن العمارة، وسبق أنْ سقنا رأي (ابن سنان الخفاجي) (ت. ٤٦٦ هـ) في تأكيد هذا النهج(٤٥)، الذي أعاد تأكيده (السيوطي) (ت. ٩١١ هـ) بقوله «لو علم أنّ اهل المدينة باقون على فصاحتهم لم يعرض للغتهم شيء من الفساد، لوجب الاخذ عنهم كما يؤخذ عن اهل الوبر، وكذلك لو فشا في اهل الوبر ما شاع في لغة اهل المدر من الخلل والفساد لوجب رفض لغتها»(٤٦).

ثالثاً: إنّ الطريقة التي اتبعها اللغويون العرب في جمع اللغة تؤكّد صفة اللغة الاجتماعية باعتبارها ظاهرة اجتماعية لا تخصّ رواة اللغة والمهتمين بشئونها في ذلك الزمان، وانما هي ملك المجتمع؛ فجمعها ودراستها تقتضي فهم البناء الاجتماعي نفسه، والاحاطة بعاداته، واعرافه، واذواقه، بما هيأ لنا تراثاً ضخماً ينبئ عن ادراك القدماء أنّ اللغة العربية كانت آنذاك عرضة لغزو لغوي خارجي، ولتأكيد وترسيخ هوية هذه اللغة، والحفاظ على نقائها راحوا يتقصونها ما وسعهم الى ذلك سبيل - في بطون القبائل البدوية حيث تكون

(٤٤) انظر: في علم اللغة العام. د. عبد الصبور شاهين، ص١٥٠ - ١٥١.
(٤٥) انظر: هامش رقم (١٠) ص٩٣.
(٤٦) الاقتراح: ص٢٤.

خاليه من الشوائب التي قد تعلق بها في المدن والحواضر وعلى السنة العامة من الناس، بما يخرجها عن اصولها العربية التي حددوها، وقد اهتموا في الوقت نفسه بلغة الحواضر، وراحوا يسجلون ما اصابها من لحن فوضعوا كتباً كثيرة تعالج بعض جوانب اللهجات، وما فيها من انحراف عن القيود الصوتية والبنائية والتركيبية المعتمدة في الحكم على فصاحة اللغة او عدم فصاحتها. فقد وضع (الكسائي) (ت. ١٨٩ هـ) كتابا: في (لحن العامة) او (ما تلحن فيه العوام)، وقد عُدّ هذا الكتاب اول ما وصل الينا في هذا الضرب من التأليف، وحذا نفر من اللغويين حذو (الكسائي)، ومن هؤلاء (الفراء) (ت. ٢٠٧ هـ)، و (ابو عبيدة معمر بن المثنى) (ت. ٢٩٠ هـ)، ووضع (ابن السكيت) (ت. ٢٤٤ هـ) كتاباً في (اصلاح المنطق)، و (ابن قتيبة) (ت. ٢٧٦ هـ) كتاباً في (ادب الكاتب)، و (ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الاشبيلي) (ت. ٣٧٩ هـ) كتاباً في (لحن العامة)، و (ابن الافليلي) (ت. ٤٤١ هـ) كتاباً في (شرح الخلل الواقع في الجمل)، و (الحريري) (ت. ٥١٦ هـ) كتاباً في (درّة الغواص في اوهام الخواص)، و (ابن الجزري) (ت. ٥٧٩ هـ) كتاباً في (تقويم اللسان)، وغير ذلك كثير مما حاول به اصحابه تنقية اللغة، والتوجه الى فصيح الكلام ومقاومة اللهجات العامية.

وتعدُّ هذه الكتب سجلًا لاغلب الالفاظ، والمعاني المستعملة في لهجات الخطاب في البيئات العربية المختلفة، مما تهتم به الدراسات اللغوية الاجتماعية، وما سنأتي على بيانه في مواضعه.

- **رابعاً**: واخيراً فانّا نجد في العمل المعجمي عند العرب في بعض اوجهه ضرباً من ضروب الدرس اللغوي الاجتماعي، فعلى الرغم من تحكّم المعجمات المطولات في الاستعمال اللغوي بما اخرجها عن أنْ تكون وصفاً للاستعمال الفعلي للغة وسجلًا لها الى انْ تصبح معايير يقاس بها «خير استعمالات الكلمات»[٤٧] فانا نلحظ أنّ المعجميين واللغويين العرب قد وضعوا كتباً

(٤٧) دراسات في اللغة. د. ابراهيم السامرائي، بغداد ١٩٦١، ص١٣٣.

اختصت بناحية لغوية معينة يمكن تقسيمها بحسب موادها على الاقسام الآتية:

اولًا: **كتب النوادر**:

وهي كتب تبحث في الالفاظ العربية التي لم يشك في اصلها العربي، ولكنها لم تجرِ كثيراً على السنه العرب آنذاك، أو انّها تدوّن الالفاظ الغريبة من لغات القبائل وممن ألّفَ في موضوع النوادر اللغوية هذه يُذكر (ابو عمرو بن العلاء) (ت. ١٥٧ هـ)، و (القاسم بن معن الكوفي) (ت. ١٧٥ هـ)، و (يونس بن حبيب) (ت. ١٨٢ هـ)، و (الكسائي) (ت. ١٨٩ هـ)، و (الفراء) (ت. ٢٠٧ هـ)، و (الاصمعي) (ت. ٢١٥ هـ)، و (الاخفش) (ت. ٢١٥ هـ)، و (ابو زيد الانصاري) (ت. ٢١٥ هـ). ولم يصلنا من آثار هؤلاء إلا نوادر ابي زيد الانصاري.

ثانياً: **كتب لغات القرآن**:

وقد اهتمت بما ورد في القرآن الكريم من لغات العرب، ومنها: كتاب (اللغات في القرآن) (للفراء)، الذي احصى محققه عدد الالفاظ معزوة للقبائل فوجد أن لقريش مئة واربعة الفاظ، ولهذيل خمسة واربعين، ولكنانة ستة وثلاثين، ولحمير، ثلاثة وعشرين، ولجرهم واحد وعشرين، ولتميم وقيس وعيلان ثلاثة عشر، وقبائل اخرى بلغت اثنتين وعشرين قبيلة ترددت الفاظها بين لفظة واحدة وستة الفاظ[٤٨]. وهناك كتب اهتمت بايراد الالفاظ التي عُدّت غريبة عن العربية منها: غريب القرآن، (لابي عبيدة)، و (لسعيد بن تغلب البكري) (ت. ١٤١ هـ)، و (لابن سلام الجمحي) (ت. ٢٢١ هـ).

ثالثاً: **كتب المعرّب والدخيل**[٤٩]:

التي حاول اصحابها فيها جمع ما عُدّ دخيلًا على العربيّة من اللغات

(٤٨) اللغات في القرآن. المسند لابن عباس. تح. د. صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٣٦٥ هـ-١٩٤٦ م، ص٦-٨

(٤٩) المعرب: هو الكلمات التي نقلت من اللغة الاجنبية الى العربية سواء وقع فيها تغيير أم لم=

الاجنبية كالفارسية، والرومية والارامية، وغيرها، ومن اشهرها نذكر كتاب (الغريب المصنّف) (لابي عبيدة القاسم بن سلام) (ت.٢٢٤ هـ) و (ادب الكاتب) (لابن قتيبة) (ت.٢٦٧ هـ)، و (المعرّب من الكلام الاعجمي) (لابي منصور الجواليقي) (ت.٤٦٥ هـ) وغيرها مما سنتحدث عنه في موضع لاحق.

رابعاً: **كتب المعاني:**

وقد اهتمت بتسجيل مستوى بعينه من مستويات اللغة وفي موضوع واحد، فهناك كتب في: خلق الانسان، والخيل، والشجر، والحلي، والماء والمطر، والابل، والسلاح، وغيرها مما يتعلّق بالانسان وحياته الاجتماعية[٥٠]، مما يُعدّ مرحلة اولى من مراحل تدوين اللغة، وجمع نواة معجمها، ويعدّ ايضاً اساساً في الدراسات اللغوية الاجتماعية، بل أنّه من اهم فروع هذا العلم المعاصر، التي تطمح الى بيان اوجه الاستخدام اللغوي المعين في البيئة والزمان المعينين، وما جرى لهذا الاستخدام من تطور عبر الزمان والمكان.

كما أنّ المتأمل في هذه المؤلفات يجد أن اللغويين العرب القدماء ممن اهتموا بمثل هذا النوع من التأليف قد فطنوا الى الفروق الدقيقة بين دلالات الالفاظ، وصرفوا جهداً كبيراً في تسجيل الالفاظ الدالة على المعاني الخاصة بشؤون الحياة في المجتمع الكلامي الواحد، او في المجتمعات المتعددة على الرغم من صعوبة البحث في مثل هذا المجال لتداخل المعاني احياناً، أو تضادها أو اشتراكها.

= يقع. والدخيل: هو اللفظ الاجنبي الذي دخل العربية دون تغيير.

(٥٠) انظر فيها: المعجم العربي: نشأته وتطوره، د.حسين نصار، القاهرة ١٩٥٦، الجزء الاول.

- المبحث الثاني -
(تطوّر اللغــة)

ذكرنا فيما مرّ من صفحات إنّ اللغة هي المحور الرئيس لحركة التاريخ الانساني بأسْره، وهي لهذا في تفاعل لا ينقطع مع المجتمع الناطق بها، وانّها من اخطر الظواهر الاجتماعية التي تصاحب سلوك الناس في كلّ لحظة، وترافق المجتمعات في اطوارها التاريخية المتلاحقة، فيصيبها ناموس التغيّر، ولما كانت الظواهر الاجتماعية من عادات واعراف وتقاليد وانشطة تتطور، فكذلك اللغة في جريان واندفاع مستمرين، في اية فترة كانت من وجودها، وفي اية بيئة عاشتها، وهي في تطورها الدائم المستمر هذا انما يتنازعها عاملان متناقضان «تجاهد اللغة في الاحتفاظ بتوازنها بينهما، وبقدر احتفاظها بهذا التوازن يكتب لها طول العمر بين الناطقين بها، وهذان العاملان هما: عامل المحافظة من ناحية، وعامل التطور من ناحية اخرى»[١].

اما عامل المحافظة، فكان دائماً كابحاً التطور اللغوي، لانه ينطلق من فكرة اساس على جانب كبير من الاهمية، وهي ان اللغة تراث قومي، وقد يكون دينيًّا ايضا: تقتضي الامانة الحفاظ عليه، والاعتزاز به كما كان على عهد السلف ولهذا اصبحت النصوص المقدسة مثلًا في بعض اللغات نماذج لغوية عليا، وحواجز صارمة في وجه التطور اللغوي الطبيعي، كما هو الحال

(١) اللسان والانسان، ص٩٨.

في اللغة اللاتينية التي ماتت في اوربا لغةً للتخاطب بعد سقوط الدولة الرومانية بقليل، ولكنها ظلّت مع ذلك لغة التعليم في اوربا كلها قروناً طويلة بعد هذا التاريخ، لان المثقفين هناك كانوا يرون فيها لغة الكنيسة، وفقه البابوات، ولغة الطقوس والصلوات في الكنيسة الكاثوليكية.

وعند العرب كان القرآن وما زال نصّاً مقدّساً، ومعجزة بلاغية وبذلك خففت قيوده اللغوية على الكتاب والمؤلفين، واستطاعوا أن يبنوا حضارتهم الفكرية على تطور لغوي اكثر مرونة واقلّ تعنتاً. «لانّ القرآن الكريم لم يلزم العرب على تقليده، كما هو الحال فيما يظنّه المسيحي الكاثوليكي في قرارة نفسه، من أنّ الكتاب المقدّس في ترجمته اللاتينية (الفولجاتا) التي كتبها القدّيس (جيروم) نمطاً يجب تقليده، بل أن العربي قد آمن في قرارة نفسه بأن القرآن الكريم معجزة لا يمكن تقليدها»(٢).

ومع هذا فانّ ارتباط اللغة العربية بالدين الجديد قد اثراها، وساعد على انتشارها وخلدّها خلود القرآن «فلم يحدث حدث في تاريخ اللغة العربية، ابعد اثرا: في تقرير مصيرها من ظهور الاسلام. عندما رتّل محمد ﷺ القرآن على بني وطنه، بلسان عربي مبين، تأكّدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد، كانت ذات دلالة عظيمة النتائج في مستقبل هذه اللغة، ولا ينحصر هذا في المقام الذي اخذته العربية منذ ذلك الوقت في العالم الاسلامي كله، من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الاطلاق، بل يتجاوزه بمقدار اعظم الى النتائج التي تركتها غزوات الفتح على ايدي عرب البوادي، تحت راية الاسلام في لغتهم، وبذلك صارت العربية لغة الطبقات الموجهة في دولة سرعان ما امتدت رقعتها في اوج عظمتها من اسبانيا غربا، الى اواسط آسيا نحو الشرق»(٣).

(٢) نفسه، ص١٠٠ «بتصرف».
(٣) العربية دراسات في اللغة واللهجات والاساليب. يوهان فك. تر.:د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي-مصر ١٣٧٠ هـ-١٩٥١ م. ص١.

إنّ العلاقة بين اللغة وبين اعتزاز الجماعة بقوميتها، وتثبيت هذه القومية واحيائها علاقة خطيرة الشأن، حتى أنه من الممكن بعث لغة طال موتها كما فعلت اسرائيل في بعث العبرية في العصر الحاضر كي تجتمع عليها اليهود مختلفو الالسنة، وقد نجحت في ذلك ايّما نجاح، في بعث لغة كانت حتى القرن التاسع عشر لغة منحسرة الظل والفعل الحضاري يلغو بها شتات من الناس متفرقين، فاصبحت العبرية اليوم لغة الحضارة والعلم الاسرائيلي المتطور.

ومن مظاهر اعتزاز الامم بلغاتها القومية أنْ يتخذ اصحابها، كلهم أو بعضهم مواقف عدائية نحو كل دخيل، من اجل تقليل هذا الدخيل، او نبذه وتحريم استعماله. «ومن أبرز الامثلة على هذا ما حدث في اللغة الالمانية في القرن العشرين حيث تمّ تطهير منظم لكلمات فرنسية دخيلة كان الزمان قد طال على قبول الالمانية لها»(٤).

اما عامل التطور فهو الجريان التاريخي والطبيعي لعناصر اللغة هذا الكائن الحي الذي «يخضع للتطور الدائم في حياته» كما يقول (شلايشر)(٥)، ويصلح أن يكون «معياراً دقيقاً لرقي الامة وانحطاطها في ميدان الثقافة والعلم والحضارة»(٦)، وما يسير عليه الناطقون في شئونهم الاجتماعية، فعقائد الامة، وتقاليدها، وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة، والتشريع، والقضاء، والتربية، والاخلاق، وحياة الاسرة، وما تعتنقه من نظم بصدد العمارة، والنحت، والرسم، والموسيقى، وسائر الفنون، والانشطة الانسانية الاخرى، كلّ ذلك يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها: في الاصوات، والمفردات، والدلالة، والقواعد، والاساليب... وهلم جراً(٧). فكل تطور

(٤) اللغة والمجتمع: راي ومنهج. د. محمود السعران. بنغازي ١٩٥٨، ص٤٥
(٥) Mautice Loroy, The Main Trends in Modren Linguistics English. Translation by, G. Price Oxford 1967. p. 15.
(٦) الاعلام ولغة الحضارة. عبد العزيز شرف. مجلة اللسان العربي. المجلد ١١ جـ١، الرباط ١٩٧٦، ص٣٣٣.
(٧) اللغة والمجتمع. د. وافي ص١١.

يحدث في ناحية من تلك النواحي يتردد صداه في اللغة، وسواء أكانت اللغات الحديثة صوراً متقدّمة عن اللغات الانسانية البدائية، ام انّها بشكلها الحديث ليست سوى تبسيط، وتسهيل للغات البدائية «التي كانت تتصف بتركيب معقد من حيث قواعدها، ونوعية وعدد مفرداتها»(٨)؛ وإنّ الانسان قد عمد في مختلف مراحل حضارته الى الاختصار من القواعد اللغوية، وتبسيطها لكونها عبئاً على ذاكرته وعلى جهازه الناطق.

اقول: سواء أكان هذا ام ذاك، فانّ اللغة لم تنشأ طفرة واحدة ولم تكتمل لها الوسائل التعبيرية دفعة واحدة، بل تنمو بنمو الإنسان فكراً ووعياً وتحضراً، ولهذا كانت اللغة وستظل في تطور دائم تبعاً لتطور النشاط الإنساني، ومقتضيات الحياة الاجتماعية وشئونها، من انتقال، او احتكاك الجماعات الناطقة بغيرها، فتنشأ الفاظ، و تهجر اخرى، أو تنقرض انقراضاً تاماً(١٠).

بل قد تنقسم اللغات على لهجات، أو تبعد اللغة فتكون لغات، فعوامل نشوء اللهجات واللغات واحدة، والاختلاف بين النشوءين كميّ، وهذا ما التفت اليه العالم العربي (ابن حزم) (ت.٤٠٢ هـ) فاوضحه تمام الوضوح، اذ جعل اسباب اختلاف اللغات العربية، والسريانية، والعبرانية، كاسباب الاختلاف بين لهجه (فحص البلوط) و (قرطبة)، وبين الاندلسي والقيرواني، تبدّلت بتبدل مساكن اهلها، واختلاف بيئاتهم وتقاليدهم، وظروف معيشتهم قال: «إنّ الذي وقفنا عليه، وعلمناه يقيناً أنّ السريانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة ـ لا لغة حمير ـ لغة واحدة تبدّلت بتبدل مساكن اهلها، فحدث

(٨) Otto Jasperson. Language Its Nature Development and Origin, London: Allen and Unein 1922 p. 102.

(٩) اللغة في اطارها الاجتماعي. ص١٧.

(١٠) يشير ابن سيده في مخصصه كثيراً الى أنّ اللفظة المعينة مماته، وذلك يعني استجابة اللغة الى الحياة، فتميت الفاظاً وصيغاً لا شك في اصالتها لمجرد أنّ الحياة الاجتماعية لم تعد تهضمها. وكذلك فعل الفراهيدي في (العين) فذكر المهمل من الالفاظ، او غير المستعمل.

فيها جرس كالذي يحدث من الاندلسي اذا رام نغمة اهل القيروان، ومن القيرواني اذا رام نغمة الاندلسي، ومن الخراساني اذا رام نغمتنا.

ونحن نجد من سمع لغة اهل (فحص البلوط)، وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد أنْ يقول إنّها لغة غير لغة (اهل قرطبة). وهكذا في كثير من البلاد فانّه بمجاورة اهل البلدة بأمّةٍ اخرى، تتبدل لغتها تبدلّا لا يخفى على مَن تأمّله، ونحن نجد العامة قد بدّلت الالفاظ في اللغة العربية تبديلًا، وهي في البعد عن اصل الكلمة كلغة اخرى، ولا فرق، فنجدهم يقولون في (العنب): العِينب، وفي (السوط): اسطوط، وفي (ثلاثة) دنانير: ثلثراد؛ واذا تعرّب البربري فاراد أن يقول: الشجرة. قال: السجرة، واذا تعرّب الجليقي ابدل من العين والحاء والهاء فيقول: مهمد. اذ اراد ان يقول: محمد. ومثل هذا كثير. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ايقن أنّ اختلافها من نحو ما ذكرناه من تبديل الفاظ الناس على طول الازمان، واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم، وانّها لغة واحدة في الاصل»(١١).

وهذا التطور اللغوي مرهون بعوامل سياسية، واجتماعية، ونفسية وجغرافية، ولغوية، ودينية، وعوامل شعبية تتحدد في الفروق بين الاجناس والفصائل الانسانية، وجسمية تتجدد في التكوين الطبيعي لاعضاء النطق. وغيرها من العوامل التي كتب فيها الكثير(١٢).

والذي يعنينا من ذلك اثر المجتمع في اللغة، وهو المؤثر المباشر بل أن «أهم المؤثرات في مختلف ظواهر اللغة ترجع الى امور تتعلق بالحياة الاجتماعية نظم العمران»(١٣).

(١١) الاحكام في اصول الاحكام. ابن حزم: جـ١/٣٠. وانظر: مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية. د.هاشم الطعان. الموسوعة الصغيرة (١٩) بغداد ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م. ص٤٣.

(١٢) انظر على سبيل المثال: اللغة والمجتمع. د.وافي. ص٨ـ٩٤. واللغة والمجتمع رأي ومنهج. د.السعران، ص٣٨ وما بعدها.

(١٣) علم اللغة. د.وافي، ط٧. ص٢٩٧.

وإننا: «بالوقوف على المراحل التي اجتازتها اللغة، وفي ضوء خصائصها في كلّ مرحلة منها، يمكن استخلاص الادوار التي مرّ بها اهلها في مختلف مظاهر حياتهم»(١٤).

فقد يضع المجتمع المعين بمحض ارادته الفاظاً جديدة يسمّي بها ما يستجد في حياته من صناعات ومبتكرات، او ما يعبّر عنه (ابن جني) بـ«اختراعات الصناع لآلات صنائعهم»(١٥) فيسمّي كلّا منها باسم؛ وكلما اكتشف الانسان في الطبيعة شيئاً ازداد ثراء فكره، وثراء لغته، فحين اكتشف الحديد فتح آفاقه على عمليات حسيّة كثيرة كصنع الفؤوس، والاسلحة، وعلى اعمال تستدعيها هذه المخترعات كاعمال القنص والصيد واساليبها، والحفر في التراب، والزراعة، والنبات، والنمو؛ وهذه الانشطة تحتاج بالضرورة الى اسماء من اللغة، وجد الفكر الانساني نفسه غير عاجز عن اختراعها بارتجالها، او توليدها من كلمات سابقة، وهكذا نجد أنّ مفهوم الكلمة مرتبطة بمحيطه، واذا عجزت اللغة عن التعبير عن ظروف الحياة المستجدة، فقد يُقضي على معالمها.

أو قد يَهجر المجتمع الفاظاً لانّ مسمياتها لا تعدو طرفاً في حياته، فتطور اللغة داخل المجتمع لا يكون دائماً بمعنى التقدّم والارتقاء، فالثورات الاجتماعية لا سيما الفكرية، بسبب ما تؤدي اليه من تبدل الاشياء التي يراها الانسان، أو يستعملها، أو تبدّل المفاهيم التي يؤمن بها، تؤدّي في غالب الاحيان الى تطور لغوي، فالمبدع يستوحي هذا العالم بما فيه من مادة الطبيعة، وتجارب المجتمع، حتى اذا شعر ازاءه بشعور جديد احتاج الى الفاظ جديدة تعبّر عما يحسّ به، فاذا وفّق في اصطناعها، واذاعتها في البيئة المعينة، صارت جزءاً من جسد اللغة العام، وحينئذٍ يفقد المبدع احساسه الذي صاغه بكلمات،

(١٤) نفسه: ص٢٥٧.
(١٥) الخصائص: ١/٤٥.

ويصير عرضة لاحساس جديد، والفاظ جديدة، وهكذا دواليك. وقد يكون سبب التطور شخصاً ذا مكانة خاصة بين جماعته، بحيث يستحق التقليد والمحاكاة من لدن المحيطين به، ثم ينتشر هذا التقليد الجديد الى دوائر ومجموعات اخرى، وخير مثال على ذلك ما يسمّى بـ(الضرورة الشعرية) من حيث هي مظهر من مظاهر الخروج على الاستعمال العادي للغة، وتعبير عن الارادة الشعرية الخلاقة التي تتجلى بها الخصائص الفردية للاديب على مستوى الالفاظ والتراكيب. وهي لهذا «ليست دليلًا على قصور لغة الشاعر وعجزه عن استيفاء حقوق العمل الشعري ـ كما يظن الكثير ـ، بل هي عكس ذلك، من مظاهر اقتدار الشاعر ونشاطه الخلاق»(١٦).

فالشاعر لا يخرج عمّا عليه الاستعمال اللغوي للالفاظ والعبارات إلا ليبلغ بالتعبير مستوى آخر من مستويات الاستعمال الواقعة في اللغة، اي أنّ الشاعر يظل محدوداً بدائرة اللغة لا يتجاوزها. أما اذا لم يبلغ بالتعبير مستوى له وجود حاصل في اللغة فهذا من قبيل الخطأ الذي لا يجوز في الشعر او الكلام. وقد دل سيبويه (ت. ١٨٠ هـ) على ذلك في (باب ما يحتمل الشعر) قرر فيه: «ليس شيء يضطرون اليه إلا وهم يحاولون به وجهاً آخر»(١٧). و«لو اضطر شاعر فاضاف الكاف الى نفسه، قال: ما انت كي، وكَيْ خطأ، من قِبل أنه ليس في العربية حرف يفتح قبل ياء الاضافة»(١٨).

وعندي أنّ التجديد اللغوي على مستوى الافراد لا يُنكر أو يرفض إلا اذا أقصى عرفاً لغوياً قائماً ومعتمداً من لدن الجماعة الناطقة، وذلك بالخروج على سننها في القياس، أو لم يُبلغ به وجهاً اخر مقبولًا يمكن في ضوئه أن يدخل في مجال البحث اللغوي بعد اعتماده وشيوعه في المجتمع المعين» ولو ظل

(١٦) الضرورة الشعرية. دراسة اسلوبية. السيد ابراهيم محمد. ط٢، دار الاندلس، بيروت ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م. ص١٢٧.
(١٧) الكتاب. طبعة بولاق ١/١٣.
(١٨) نفسه: ١/٣٩٢.

على المستوى الفردي- لما كان موضوع بحث في علم اللغة»[19]. فاذا كان العرف هو الذي يحدد المقاييس الاجتماعية من عادات وتقاليد ودين، وطرائق معايش، فالصحيح أنّ العرف هو الذي «يحدد معايير الاستعمال في اللغة»، واذا كان الفرد خاضعاً دائماً لما يحدده العرف من المقاييس الاجتماعية فهو خاضع ايضاً لما يحدده العرف من معايير اللغة، فالمتكلم الذي يستعمل لغة المجتمع الذي نشأ فيه يستعمل اصواتها، وصيغها ومفرداتها، وتراكيبها حسب اصول استعمالية معينة، يحذقها بالمشاركة في التخاطب، ويمرّن عليها، ويطابقها دون تفكير في جملتها، أو تفاصيلها، وقلّما يرد عليه موقف من المواقف يدفعه الى التفكير في السبب الذي من اجله يتكلم بطريقة خاصة؛ واذا دفعه الى ذلك سبب من الاسباب وقف حائراً دون الاجابة عليه، وانما يكون جوابه «إنّا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مقتدون»، وسيكون هذا جوابه عن كل سؤال يدور حول الامور العرفية التي ذكرناها، كالعادات، والتقاليد، والمعتقدات، والملابس، وهلم جرا. وسيجد المتكلم انّ اللغة منظمة اجتماعية عرفية، قوامها عدد من الاجهزة التي تمثّل في نظره معايير معينة[20].

وهذه المنظمة الاجتماعية العرفية دائبة التطور بما يتلاءم وتطور الحياة التي يعيشها الناطقون. فالتطور الذي اصاب مجتمع ما قبل الاسلام بعد أن بعث الله في الناس رسولاً، قد بانت نتائجه -فيما بانت- على اللغة فقد دفعت العقيدة الجديدة المجتمع العربي الى ابداع لغوي صحب هذه الثورة الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية التي جاء بها الاسلام فاستجدت كلم، واميتت كلمات، وتغيّرت دلالات كثيرة من الالفاظ انحساراً أو اتساعاً، أو. أُستجدت لها معان لم تكن لها من قبل، ودخلت العربية الفاظ وعبارات من لغات اخرى، وعمليات لغوية اخرى أجد من الاطالة ذكرها، فقد فصّل

(١٩) انظر: اللغة والمجتمع. ص٨٥. والمدخل الى علم اللغة. د. محمود فهمي حجازي. القاهرة ١٩٧٦؛ ص٢٥.

(٢٠) انظر: اللغة بين المعيارية والوصفية. ص٩.

القول فيها كثيرون[21]، لعل المحاولة القديمة (لابي حاتم احمد بن حمدان الرازي ت.٣٢٢هـ) من المحاولات الجادة في هذا المجال، فقد اوقف جل كتابه الموسوم بـ(الزينة في المصطلحات الاسلامية العربية) على تسجيل ما اصاب الالفاظ العربية من تطوّر وتغيير في الدلالة، فقد ذكر ما كان لبعضها من معان قبل الاسلام، وما طرأ عليها من تغيير في الدلالات بظهور الاسلام، وساق لنا كثيراً مما جاءت به الشريعة الاسلامية من الفاظ جديدة في القضاء، والسياسة، والشرائع، والمعتقدات. والفاظاً جديدة لم يألفها الناطقون من قبل في لغتهم من نحو: الملائكة، والعرش، والجن وجهنم والصراط وغيرها، وساق كذلك تراكيب جديدة لم تكن موجودة من قبل من نحو: لا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبك الله ونعم الوكيل، وانا لله وانا اليه راجعون. وغير ذلك[22].

وقد صنع (احمد بن فارس) (ت.٣٩٥هـ) صنيع (ابن حمدان الرازي) اذ عقد في كتابه الصاحبي باباً ذكر فيه ما جاء به الدين الجديد من الفاظ، وما تغير، من الدلالات تضييقاً أو توسعاً، معللاً ذلك، تعليلاً يتفق وقوانين التطور اللغوي الذي تعتمدها الدراسات المحدثة، يقول: «كانت العرب في جاهليتها على ارث من ارث آبائهم في لغاتهم، وآدابهم، ونسائكهم، وقرابينهم، فلما جاء الله-جلّ ثناؤه-بالاسلام حالت احوال، ونُسخت ديانات، وابطلت امور، ونقلت من اللغة الفاظ من مواضع الى مواضع آخر بزيادات زيدت، وشرائط شُرطت، فعفى الآخر الاول... فكان مما جاء به الاسلام ذكر المؤمن والمسلم، والكافر، والمنافق، وأنّ العرب اذا عرفت المؤمن

(٢١) من بينهم من المحدثين نذكر الدكتور السعران في كتابه: اللغة والمجتمع ص٤٦ وما بعدها. والدكتور وافي في كتابه: اللغة والمجتمع ص٢٠-٢١. والدكتور حسن ظاظا في كتابه اللسان والانسان ص١٠٣. وما بعدها. وغيرهم.

(٢٢) انظر: الزينة في الكلمات الاسلامية العربية. لأبي حاتم الرازي. عارضة باصوله وعلّق عليه حسين بن فيض الله الهمزاني. القاهرة ١٩٥٧، جـ١، ص٥٦-٥٧.

من الأمان والايمان وهو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط واوصافاً بها سُمّي المؤمن بالاطلاق مؤمناً، وكذلك الاسلام والمسلم وانّما عرفتْ منه اسلام الشيء، ثم جاء في الشرع من اوصاف ما جاء.

وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر، فأمّا المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم ابطنوا غير ما ظهروا، وكان الاصل من نافقاء اليربوع. ولم يعرفوا في الفسق إلّا قولهم: فسقت الرُّطبة اذا خرجت من قشرها رجاء الشرع بانّ الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله ـ عزّ وجلّ ـ ومما جاء في الشرع الصلاة، واصله في لغتهم الدعاء..»[٢٣].

وكان الاحتكاك الاجتماعي بين العرب وغيرهم من الاقوام الاجنبية سبباً في دخول كثير من الالفاظ الاعجمية على وفق ما اقتضته حياة العرب وحاجاتهم اليومية من ادوات حرف، واطعمة، واشربة، ومظاهر حضارية، فمن الثابت أنّ ما تأخذه لغة عن لغة اخرى انّما يختلف باختلاف العلاقات التي تربط المجموعتين الناطقتين، وما يتاح لهما من فرص الاحتكاك المادي والثقافي، فكلما قويت العلاقات ازداد تأثر اللغات بعضها ببعض ونشطت بينهما حركة التبادل اللغوي، ومهما كان شكل الاحتكاك كيفاً وكماً فان من المسلم به انه يرجع «الى ظواهر الاجتماع، وتدعو اليه مقتضيات العمران»[٢٤] تنعكس خلاله بعض نواحي الحياة الاجتماعية العامة» ويتمثل فيه بعض مقومات المجتمع واتجاهاته، وما يكتنفه من شئون.

وقد حاول (ابن جني) أن يضع حدوداً للاستدلال على عربية الاعجمي، وان كان قد قصر حديثه عن حدود معينة فلم يتعرض لذكر لغة من الساميات، وانما ذكر امثلة منسوبة للفارسية او الرومية، وقد كان من الممكن أن يعرض لذكر الحبشية، او العبرية، او السريانية، لو كان يرى نسبة بعض

(٢٣) الصاحبي: ص٧٨ـ٨١.
(٢٤) اللغة والمجتمع. د.وافي. ص٢٤ـ٢٥.

الكلمات اليها، ولم تتعدد تلك الحدود التي رسمها واحتكم اليها (ابن جني) في اثبات نسبة اللفظ المعين الى اللغة العربية أو عدم نسبته مقولته المشهورة التي ترى أنّ اللفظ عربي اذا كان قد قيس على كلام العرب، واعتمد اساليبهم في ابنية الكلمات او اعرابها، وقد ضمن ابن جني مقولته هذه في باب خاص سمّاه باب (ان ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) ذكر فيه قوله: «قال ابو علي: اذا قلت: «طاب الخُشكُنان» فهذا من كلام العرب، لانك باعرابك إيّاه قد ادخلته كلام العرب، ويؤكّد هذا عندك أنّ ما اعرب من اجناس الاعجمية قد اجرته العرب مجرى اصول كلامها؛ ألا تراهم يصرفون في العلم نحو: آجُرّ، وإبرَيْسَم، وفِرِنْد، وفيروزج، وجميع ما تدخله لام التعريف، وذلك انه لما دخلته اللام في نحو: الديباج، والفيرند، والشِّهريز، والآجُرّ، أشبه اصول كلام العرب، اعني النكرات فجرى في الصرف، ومنعه مجراها»[٢٥].

وقال في موضع آخر «ومما يدلّك على أنّ ما قيس على كلام العرب فانّه من كلامها انك لو مررت على قوم يتلاقون بينهم ابنية التصريف؛ نحو قولهم في مثال (صَمَحْمَح) من الضرب (ضَرَبْرَب) ومن القتل (قَتَلْتَل) ومن الاكل (أكلكل) ومن الشرب (شَرَبْرَب)... ونحو ذلك. فقال لك قائل: بأي لغة كان هؤلاء يتكلّمون؟ لم تجد بُدًّا من أن تقول: بالعربية، وإن كانت العرب لم تنطق بواحد من هذه الحروف»[٢٦].

وهناك قواعد اخرى للغويين العرب مما يعرف بها اللفظ الاعجمي الذي دخل العربية لا نجد لها مجالًا فيما نحن فيه[٢٧].

(٢٥) الخصائص. ٣٥٧/١. وانظر: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث. د.عبد الصبور شاهين. القاهرة ١٩٦٦، ص٣٣٦ـ٣٣٩.
(٢٦) الخصائص: ٣٦٠/١.
(٢٧) انظر في ذلك: المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم. ابو منصور الجواليقي. تر.:احمد محمد شاكر. ط٢، القاهرة ١٩٦٩، ص٥٩، ٣٨٣، ٣٨٥. والمزهر: ٢٧٠/١ـ٢٧١.

وعلى الجملة فانّ اللغويين العرب قد نهجوا سبيلًا قويماً في تعريب الالفاظ الاجنبية ونقلها الى العربية، وذلك بانّ وضعوا الفاظاً عربية جديدة مقابل اللفظ المنقول يجري مجرى القياس العربي، وذلك بابدال حروفه او تغيير بنائه بالحذف أو الزيادة قال سيبويه: «لما ارادوا أن يعرّبوه -اي اللفظ- الحقوه ببناء في كلامهم كما يلحقون الحروف بالحروف العربية»[٢٨].

أو أن يشتقوا الفاظاً جديدة من اصول عربية او معرّبة للدلالة على المعنى الجديد.

فان تعذّر عليهم هذا وذاك، اجازوا دخول المعنى المراد بلفظه دون تغيير فيه، وهذا ما سميّ عندهم بالدخيل.

وسنرى أن اللغويين العرب قد فطنوا الى أنّ اختلاط العرب بالاعاجم قد نشأ عنه فرق في التعبير الصحيح، والتعبير الملحون على مستوى الاصوات والابنية والتراكيب، ومعاني المفردات، مما يُعدّ عاملًا من عوامل التطور اللغوي. ومن عوامل التطور اللغوي ايضاً استخدام الناس بعض الالفاظ بغير ما عرفت به في اصل اللغة دون مراعاة للفروق بين الدلالات قياساً الى الاستخدام القراني مثلًا، وقد رصد (ابو عثمان الجاحظ) هذه الظاهرة فسجّلها قائلًا «وقد يستخف الناس الفاظاً ويستعملونها وغيرُها احق بذلك منها، ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، لو في موضع الفقر المدْقِع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر؛ لانك لا تجد القران يلفظ به إلّا في موضع الانتقام. والعامة واكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر، وبين ذكر الغيث، ولفظ القران الذي عليه نزل أنّه اذا ذكر الأبصار لم يقل الاسماع، واذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الارض أرضين ولا السمع اسماعاً. والجاري على افواه العامة

(٢٨) الكتاب: ١/٣٥.

غير ذلك، لا يتفقدون من الالفاظ ما هو احق بالذكر واولى بالاستعمال... والعامة ربّما استخفت اقلّ اللغتين واضعفها، وتستعمل ما هو اقلّ في اصل اللغة استعمالًا وتدع ما هو اظهر واكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو اجود منه، وكذلك المثل السائر»[٢٩].

والى مثل ذلك اشار (ابن قتيبة) (ت. ٢٧٦ هـ) في ادب الكاتب بقوله: فما رأيت احداً منهم يعرف فرق ما بين الوكع والكوع، ولا الحنف من الفدَع ولا اللّمى من اللّطع، فلما رأيت هذا الشأن كلّ يوم الى نقصان، وخشيت أن يذهب رسمه، ويعفو اثره، جعلت له حظاً من عنايتي وجزءاً من تأليفي»[٣٠].

وعلى الرغم من أن كلمة اللغويين العرب لم تكن متحدة بازاء (ظاهرة الترادف) في اللغة فقد انكره فريق منهم (كابي على الفارسي) (ت. ٣٧٧ هـ) و (ثعلب) (ت. ٢٩١ هـ) و (ابن فارس) (ت. ٣٩٥ هـ)[٣١]، وذهب فريق آخر الى اثبات وجوده مطلقاً (كابن خالويه) (ت. ٣٧٠ هـ) بسبب تعدد الوضع، وذلك امّا أن يكون على سبيل لغات القبائل المختلفة، وهو السبب الاكثر لديهم، وامّا أن ينشأ من واضع واحد نادراً، ويغلب في ذلك أن يكون سبيله المجاز حتى يشتهر، ويصبح في درجة الحقائق، نرى ان السبب الرئيس في وقوع الترادف، ومثله (المتضاد) هو التطور في الاستعمال «كما أن

(٢٩) البيان والتبيين. ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، القاهرة ١٣٦٧ هـ-١٩٤٨ م، جـ١/٢٠.
(٣٠) ادب الكاتب. ابن قتيبة الدّينوري. دار صادر، بيروت ١٣٨٧ هـ-١٩٦٧ م. ص٩. وانظر الصفحات: ٢٧، ٢٨، ٣٣، ٣٥، ٥٦، ٦٦.
(٣١) من انكر الترادف احد رجلين. رجل انكره مطلقاً، فلا يوجد عنده لفظان إلا ويوجد بينهما فرق في المعنى. ويمثل هذا (ابو علي الفارسي)، ورجل انكر وجود الترادف المطلق فهو يرى بان الألفاظ التي تدل في ظاهرها على الترادف والتساوي لا بد وان يكون في كل منها زيادة على الأصل ما ليس في الاخرى. ويمثل هذا (ثعلب، وابن فارس) انظر: فقه اللغة. ابراهيم محمد نجا. ص٥٣.

للمعرب والدخيل واختلاف اللغات أثراً في ذلك اقلّ شأناً »[32] وقد يكون العجز عن طريق نطق بعض الاصوات أو الالفاظ، أو سماعها من افواه الآخرين منطوقة خطأ سبباً آخر من اسباب التطور اللغوي. فقد ينطق احد المتكلمين ببعض الاصوات او العبارات نطقاً خاطئاً بسبب عيب في اعضاء النطق او لحرصه على تأكيد نطق بعض الاصوات، أو لحدثه بسرعة، مما يؤدي الى تناسخ الاصوات وحلول بعضها محل بعض، فيتحول الصاد مثلًا الى سين أو العكس، والضاد الى ظاء، والغين الى قاف، والعين الى طاء، وهلم جرا، مما يغيّر صوت اللفظ المعين، فيشيع الصوت الجديد ويتفشى، وهذا ما نلحظه بوضوح في اللهجات العامية في الوطن العربي « فالسين قد تحوّلت الى صاد في بعض المواطن، فيقال في (ساخن): (صاخن) في عامية الشرقية المصرية وغيرها؛ والصاد الى السين في كثير من الالفاظ في عامية القاهرة وغيرها، (فبدلًا من: يصدق، مصير... الخ. يقال: يسدق، مسير)؛ والضاد الى ظاء في عامية العراق والمغرب العربي وخاصة ليبيا، وفي لهجات القبائل النازحة الى مصر (فبدلًا من: وضوء، يضيع، يضرب، يضم... الخ. يقال: وظوء، يظيع، يظرب، يظم... الخ.)؛ والعين الى نون في بعض الكلمات في لهجات العراقيين (فيقال مثلًا: « ينطي » بدلًا من « يعطي »)؛ واللام الى ميم في بعض الكلمات في عامية القاهرة (« امبارح » بدلًا من « البارحة »)؛ والميم الى نون احياناً في عامية المصريين (فيقال: « فاطنة » بدلًا من « فاطمة »)... وهلم جرا[33].

وقد يخطئ السامع احياناً إستقبال بعض الاصوات او الالفاظ، فيقلّد ما سمعه بطريقة خاطئة دون أن يعي ذلك.

وقد تنشأ اخطاء لغوية على السنة بعض الناطقين لا تصحح في حينها،

(٣٢) الترادف في اللغة. حاكم مالك لعيبي. بغداد ١٩٨٠، ص٣٠٥-٣٠٦.
(٣٣) اللغة والمجتمع. د.وافي، ص٨٥.

فتتمكن في الالسنة وتشيع، وتحلّ الفاظ جديدة موجهة توجيهاً صوتياً خاصاً، وتسير في السبيل التي تريدها على السير فيها سنّة من سنن التطور اللغوي، وسبب من اسبابه. وقد ألمح (ابن جني) الى هذا السبب، وعقد له باباً في خصائصه سماه (باب في اغلاط العرب) ذكر فيه انّ (ابا علي) -رحمه الله- « كان يُرى وجه ذلك -يعني اغلاط العرب- ويقول: إنما دخل هذا النحو في كلامهم؛ لأنهم ليست لهم اصول يراجعونها، ولا قوانين يعتصرون بها، وإنما تهجُمُ بهم، طباعهم على ما ينطقون به؛ فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد... فمَن ذلك ما انشده احمد بن يحيى:

غدا مالك يرمي نسائي كأنّما ... نسائي لسَهْمي مالكٍ غرضان
فيا ربّ فاترك لي جُهينة اعصُرا ... فما لك موتٍ بالقضاء دهاني

هذا رجل مات نساؤه شيئاً فشيئاً، فتظلم من مَلَك الموت عليه السلام، وحقيقة لفظه غلط وفساد، وذلك أنّ هذا الاعرابي لما سمعهم يقولون: ملك الموت، وكثر ذلك في الكلام، وسبق إليه أنّ هذه اللفظة مركبة من ظاهر لفظها، فصارت عنده كانها (فَعَل)؛ لانّ مَلَكاً في اللفظ على صورة (فَلَك)، فبنى منها فاعلًا، فقال: مالك موتٍ، وغدا مالك. فصار في ظاهر لفظه كانّه فاعل وانما مالك هنا على الحقيقة والتحصيل (مافِل) كما أن ملكاً على التحقيق (مَفَل)، واصله (مَلأك) فالزمت همزته التخفيف، فصار ملكاً. واللام فيه فاء والهمزة عين، والكاف لام. هذا اصل تركيبه..»[34]، ومن ذلك قولهم: مصائب في (مصايب) وفي (زاي) زاء، و(منائر) في (مناير) و(مزائد) في (مزايد) وغير ذلك كثير[35] مما عدّه (ابن جني) من اغلاط العرب التي خالفت الظاهر والقياس جميعاً، مما يؤكد ما نذهب اليه من أنّ التغيير الصوتي الذي يطرأ على نطق بعض الالفاظ، والصيغ، مظهر من مظاهر التطور اللغوي على السنة الناطقين.

(٣٤) الخصائص: ٣/٢٧٣-٢٧٤.
(٣٥) انظر الخصائص: ٣/٢٧٤-٢٨٢.

ـ المبحث الثالث ـ
(الصراع اللغوي)

مثلما تتفاعل المجتمعات، وتتصارع على البناء والغلبة، فكذلك اللغات، اذ يحدث بينها ما يحدث بين الكائنات الحيّة وجماعاتها من احتكاك، فالالفاظ «كالناس تنتقل كما ينتقلون، وتهاجر كما يهاجرون»[1] ويؤدي انتقالها، وهجرتها، واحتكاكها مع غيرها الى تسرّب الفاظ واساليب كثيرة منها او اليها، وقد يؤدي صراعها مع غيرها الى انتصارها، او انكسارها، ومن ثم موتها واندثارها.

ويذكر اصحاب النظرة الاجتماعية للتطور اللغوي الناجم عن الصراع بين اللغات ثلاثة اشكال[2].

اولها: أن تموت اللغة موتاً طبيعياً بسبب كثرة الناطقين بها، وتباعد بيئاتهم، مما يؤدي الى تولّد لهجات محلية منبثقة من اللغة الام، وقد تتسع لهجة جديدة وتنمو على حساب اللغة الام. لتكون هي اللغة، وتندثر اللغة الاصل من ذاكرة الابناء وعلى السنتهم، كما حدث للسامية الاولى، والسنسكريتية.

وثانيها: أن تُغزى اللغة المعينة من لغة اخرى، حيث يكون الغزاة اكثر عدداً من اهل اللغة المغزوّة، كما هو الحال في غزو الساميين القدماء حيث تغلبت لغتهم السامية على الشومرية.

---

(١) ضحى الاسلام. احمد امين. ط٦، القاهرة ١٩٦١، جـ١/٣٧٣.
(٢) انظر: اللسان والانسان، ص١٢٧ وما بعدها.

اما في حالة الصراع المتساوي العدد، فيكون النصر للغة التي اصاب اصحابها نوعاً من الرقي والحضارة، كما هو الحال في (التتار) بعد اسقاطهم بغداد، فقد اعتنق اكثرهم الاسلام، وتعلّموا العربية لما عليه اصحابها من رقي وفعل حضاري يفوق ما عند الغزاة.

وثالثها: أن تموت اللغة بالتسمم، وذلك بتسرب رشح الدخيل من لغات اخرى تحتاج اليه اللغة، فتقبله، بل تحس مع تعاطيها له في البداية بمزيد من الانتعاش والقوة والنشاط يشجعها على تقبّل جرعات اكبر، فاكبر من هذا الدخيل، ولكنّ قدرتها على هضم ذلك كلّه واستيعابه في بنيتها العامة تخونها في النهاية، فتسقط من الاعياء تاركة المجال للبقية الباقية من الدخيل تتسرب اليها بدون اية مقاومة حتى تجهز عليها. كما هو حال اللغة العربية يوم غزا سيل دخيلها على الفارسية حتى اصبح العلم والادب والسياسة جميعاً لا تعرف تعبيراً غير العربية، وتقلّص ظل الفارسية، فاصبحت رطانة للطبقة الدنيا من الفلاحين والرعاة، وصغار التجار والصناع، وعقمت (البَهلوية)[٣] مدة قرنين من الزمان، فلم يؤلف بها إلا نزراً يسيراً، ولم يشرع الفرس بالكتابة بها إلا اواخر القرن الثالث، «حيث ترجم تفسير الطبري في عهد الدولة السامانية (٢٢٦ هـ-٣٨٩ هـ)»[٤].

وكان سلاطين وملوك ووزراء الدولة البويهية (٣٢٠ هـ-٤٤٧ هـ) ينظمون ويكتبون بالعربية ويكفي أن نذكر منهم: ابن العميد، وان عباد، والوزير المهلبي.

وظل الشعر العربي مسيطراً حتى القرن السادس الهجري، وان كنّا نجد

(٣) هي (الفارسية الوسيطة) (لغة البائيين) وهي امتداد للفارسية القديمة التي تعود الى الفترة بين ٦٠٠ و٤٠٠ ق.م. وكانت في عهد الساسانيين اللغة الرسمية في الدولة الايرانية.
انظر: المدخل الى علم اللغة. د. محمود فهمي حجازي، ص١٢٨-١٢٩.

(٤) صلات اللغة العربية واللغات الاسلامية. د. عبد الوهاب عزام. مجلة المجمع القاهري ١٩٥٣ ص٢٣، م٧.

الشعر الفارسي قد بدأ يترعرع في القرن الرابع الهجري.

وكان امر التركية مثل ما كان امر الفارسية، فقد صارت العربية بعد الفتح الاسلامي لغة العلم والحضارة في تركستان الشرقية والغربية حتى اواخر القرن السادس.

وحكم اللغة السندية[٥] حكم الفارسية والتركية في وضوح تأثير اللغة العربية عليها فقد كانت العربية في السند، لغة العلم والتليف على مدى القرنين الاول والثاني الهجريين، وبعد انّ فتح السلطان (محمود الغزنوي) الهند في القرن الرابع اصبحت العربية ايضاً لغة العلم والحضارة، حتى القرن العاشر اذ نشأة (الاردية)[٦]، مزيجاً من السنسكريتية والعربية والفارسية، والتركية.

إنّ تأثّر اللغات بعضها ببعض واقع منذ أن وجدت اللغات، ولكنْ من الثابت في قوانين اللغات ان اللغة المؤثّرة او المنتصرة لا تخرج سليمة من صراعها، بل أنّ طول احتكاكها باللغات الاخرى، وشدّة كفاحها معها يترك في اللغة الغالبة آثاراً كثيرة من اللغات المغلوبة في نواحي الاصوات، والاساليب، والمفردات، ويبدو هذا التأثّر باوضح صورة في النواحي ا لتي تعوز اللغة الغالبة، فاللغة الغالبة تعمد في العادة إلى خصمها المقهور، فتمتص منه ما تحتاج اليه، وتستلّ منه ما يعوزها قبل أن تجهز عليه، وان كان التأثر بين اللغات يحدث -في الغالب- بطريقة تلقائية لا عن قصد أو تدبر[٧]، وقد يحدث ايضاً عن تدبّر سابق. واصرار مرسوم، حين يضع الغازي في إعتباره

(٥) في اقليم السند (كراتشي)، وهي من اللغات التي تستوعب مجالات الحياة اليومية في الباكستان اليوم الى جانب: الاردية، والبنجابية، والبلوشية، والباشتو.
انظر: المدخل الى علم اللغة. ص١٢٤.

(٦) هي لغة واحدة آخذه في الانقسام، يطلق عليها عند المسلمين (الاردو) اي الجيش وتسمّى عند الهندوس الهندوستاني، ويكتبها المسلمون اليوم بالخط العربي اما في الباكستان فالاروية احدى لغات المنطقة الغربية.
انظر: المصدر نفسه، ص١٢٤.

(٧) فقه اللغة. د. وافي، القاهرة ١٩٦٨، ص١٢١.

القضاء على لغة من يعاديه، من اجل القضاء على حضارته وقطع صلته بتراثه وامته، ودينه، كما هو شأن الفرنسيين في العصر الحديث مع عرب القطر الجزائري، حين دبّروا، وعملوا المستجيل من اجل مسخ هذا الشعب العربي عن امته، والغاء دوره في عالم العروبة الرحب، ولولا تمسك عرب الجزائر بعروبتهم، ودينهم، وتراثهم، لحلّت الفرنسية محل العربية، ولعاشت الاخيرة غربة قاتلة الى الابد.

إنّ ارتباط الجماعات الناطقة بروابط الحضارة او التجارة، أو تنازعها حضارياً أو سياسياً، أو دينياً يرسم آثاره على اللغات، فالاحتكاك بين اللغات نتيجة لازمة للاحتكاك بين المجتمعات، وما يكتنفها من مقومات حضارية، واتجاهات فكرية، وانشطة اجتماعية أو اقتصادية، ومن ثم يختلف ما تأخذه لغة عن اخرى باختلاف العلاقات التي تربط بين الشعبين الناطقين، وما يتاح لهما من فرص الاحتكاك المادي والثقافي، فكلّما قويت العلاقاتُ التي تربط احدهما بالآخر، وكثرت فرص الاحتكاك نشطت بينهما حركة التبادل اللغوي، ولذلك تبلغ هذه الحركة اقصى شدتها حينما يتجاور شعبان، ولهذا السبب بلغت حركة التبادل اللغوي اقصى صورتها بين العربية والفارسية والتركية. وبلغ من تأثير العربية في اللغات الاخرى بعد الفتح الاسلامي شأواً عظيماً، اذ عمّ تأثير العربية فيما يزيد عن مائة لغة من لغات شعوب آسيا، واوربا، وافريقيا، وكان ذلك بفضل وفعل الدين الاسلامي من جهة، والى سمو الفعل الحضاري ونقائه من جهة اخرى.

ومن المعروف أنّ ما تقتبسه اللغات من بعضها اكثر ما يكون على مستوى المفردات، ويتّصل عادةً بامور قد اختصّ بها اهل اللغة المأخوذ عنها، او امتازوا بانتاجه، فمعظم ما انتقل الى العربية من اللغات التي احتكت بها، كاليونانية، والفارسية مثلًا يتّصل بنواحٍ مادية، او علمية، أو بنظم ادارية، امتاز بها اليونانيون والفرس آنذاك. واخذها عنهم العرب الذين انطلقوا بعد الاسلام في رحاب جديدة من الرقي والتقدم، ووجدوا انفسهم امام اشياء

كثيرة، ليس في الفاظهم ما يدل عليها فافترضوها، وادخلوها في المعجم العربي، امّا بلفظها، او بايجاد المقابلات اللفظية العربية لها على وفق الانظمة الصوتية، والصرفية الموجودة في العربية، ومن جانب آخر منحت العربية نفسها للناطقين بغيرها، فاقترضوا ما شاءوا من الفاظ، واساليب. وهكذا تبدو اللغات في حياتها كما يبدو الناطقون مؤثرين ومتأثرين، مانحين وآخذين، فقد أثرت العربية، وتأثّرت، ومنحت وأخذت، ولكنّ ما أخذته قليل، وما أعطته كثير لا يحصى.

ان هذه الحركة النشطة من التأثّر والتأثير اللغويين، من الاخذ والعطاء، هي التي اطلق عليها اليوم مصطلح (الاقتراض اللغوي)، ولما كان الاقتراض اللغوي لا يعني أنّ اللغة المستعيرة مطالبة بردّ ما استعارته أو اقترضته من غيرها، من اللغات بدا لنا ما في المصطلح من التجوّز؛ ولهذا لم يكن معروفاً في الدراسات اللغوية العربية القديمة، بل شاعت في هذه الدراسات مصطلحات اخرى كالدخيل، والمعرّب والمولّد مما يشير بوضوح الى انتباه الاقدمين الى عمليات التبادل اللغوي.

وعلى الرغم من أنّ ما جاء في كتب (المعرّب) (والدخيل)، (واللغات)، التي حفل بها التراث العربي لا يستقصي جميع الالفاظ التي دخلت العربية من غيرها من اللغات، او خرجت منها، وانه كذلك لا يوحي لنا بانّ القدماء العرب في حكمهم على عروبه اللفظ المعين او اعجميته يصدرون عن دراية فاحصة باللغات الاعجمية «وانما كانت اقوالهم مبنية على الظن والتوهم، وعندهم ان كل كلمة لم يشتهر فيها استعمال جاهلي دخيلة، واذا كانت دخيلة فهي أن تكون عند احدهم فارسية، وعند آخر عبرانية، أو سريانية، أو حبشية».

اقول على الرغم من هذا كلّه لا يجوز القول بانّ اللغويين العرب القدماء «لم يهتدوا الى انّ بين العربية والعبرانية والسريانية والحبشية ولغات اخرى علاقات تاريخية، وقرابات لغوية مردها الاصول السامية الاولى التي دلّ عليها

البحث الحديث» كما يقول بعض المحدثين[٨].

اذ أن في عمل اللغويين العرب القدماء في هذا المجال وفي حدود الامكانات العلمية المتاحة لهم آنذاك ما يشير الى انهم كانوا منذ القرن التاسع والعاشر الميلاديين منتبهين لصلات القرابة بين اللغات، وعلى وعي بتأثير بعضها ببعض، يؤيد هذا ما ذكره اللغوي الفرنسي (جان بيرو) في كتابه (علم اللغة) من «انّ الامام (ابن حزم الاندلسي) المتوفي في القرن الخامس الهجري قد ذكر ان اللغة العربية، متفرعة من اصل واحد»[٩]، كذلك قال الامام اللغوي (ابن سيده) (ت.٤٥٨ هـ) «وكنعان بن سام بن نوح، واليه ينتسب الكنعانيون وكانوا امّة يتكلمون بلغة تضارع العربية»[١٠].

ومن هنا يتبين لنا ادراك هذين العالمين أن العبرية والسريانية والكنعانية من نفس العائلة اللغوية التي تنتمي اليها اللغة العبرية. بل أنّ كثيراً من علماء المسلمين عند تفسيرهم القرآن الكريم، كانوا يشيرون الى بعض الفاظ تشابهت في العربية والفارسية والسريانية، ونذكر منهم (الراغب الاصفهاني) (ت.٥٠٢ هـ) في كتابه (مفردات القرآن)[١١]، وقد كثر بين اللغويين العرب من يتكلمون، في اصول بعض الالفاظ، كالمصحف، والمنبر، والسورة، والآية، والملائكة ويتلمسون لها المنابع الاولى في الحبشية أو السريانية أو غيرها[١٢].

ولا يعنينا في هذا المجال الضوابط والعلاقات التي اعتمدها الاقدمون في الحكم على عروبة او اعجمية اللفظ المعين، وانّما الذي يعنينا أنّ اللغة العربية

(٨) دراسات في اللغة. د.ابراهيم السامرائي، بغداد ١٩٦١، ص١٤٥.
(٩) انظر: الاحكام في اصول الاحكام. ابن حزم، جـ١/٣١. واللسان والانسان. ص١٥٩.
(١٠) المخصص. ابن سيده. السفر الثالث عشر. المجلد الرابع، ص١٦٧.
(١١) انظر: المفردات في غرائب القرآن: الراغب الاصفهاني. تـز.:محمد سيد كيلاني ١٣٨١ هـ-١٩٦١ م، ص٤٣، ٩٥، ١٨٤، ٢٣٠
(١٢) انظر: اللسان والانسان. ص١٥٩.

قد دخلت في صراع مع نفسها، ومع غيرها، وكان من نتائج صراع العربية مع غيرها من اللغات كما راينا أن اعطت واخذت، ولا ضير على العربية في أن تستمد من اللغات الاخرى ما تمسّ حاجتها اليها، ومهما كات شأن ما اخذته العربية من غيرها من حيث الكم والنوع فانه لم يضعفها ولم يمسك من بنائها المحكم، ولكنه على اية حال امر كائن، وظاهرة واقعة وكان للغة العربية قدرة فائقة في هظم كل لفظ اجنبي، وجعله في اغلب الاحيان مثل اللفظ الاصيل فيها، أو اثرائه بضروب من الاشتقاقات بما يوسّع دائرته كماً ودلالة، فكلمة (فيلسوف) مثلًا كلمة يونانية، مركبة ومعناها الاول: محب الحكمة، قد دخلت العربية في عصر الحضارة الاسلامية مع مئات الكلمات الاخرى، ولكنّ العربية لم تكتفِ باستخدام الكلمة فحسب، بل كوّنت منها كلمات جديدة، وصاغت الفعل: تفلسف، ومنه صاغت: كلمة: فلسفية، وكلمة المتفلسفة، وغيرها مما يساعد عليه مبدأ الاشتقاق المعروف في العربية.

وقد دخلت معظم الالفاظ اليونانينة الى العربية عبر اللهجات الارامية التي سادت الشام والعراق قبل الاسلام، ولا سيّما السريانية التي حملت حضارة اليونان الى العرب، فحياة البادية العربية القديمة لم تكن تعرف زراعة التفاح، أو التوت، او الحمص او الخوخ، او الرمان أو غير ذلك من الثمار التي لم تعرفها البادية إلا طريق المناطق الزراعية في الشام والعراق، وكانت هذه المناطق كما هو معروف آرامية، وعندما تعرّبت احتفظت بهذه الكلمات للتعبير عن تلك السلع، ومن الثابت انّ هذه الكلمات، كلمات ارامية استقرت في العربية[١٣].

والجاهلي لم يعرف البيوت المشيدة بالاحجار، ولذا لم يعرف العرب قبل

(١٣) انظر: تفسير الالفاظ الدخيلة في العربية مع ذكر اصلها بحروفه: طوبيا العنيسي، القاهرة ١٩٦٥، ص١٣٠.
/ السناميون ولغاتهم. تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية للعرب. د.حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧١، ص١٢٣.

الاسلام كلمة (لبنة)، ولم نعثر عليها في شعر جاهلي على الرغم من تتبعنا الدائم، ولكنّ هذه الكلمة دخلت العربية عن الارامية بعد الفتح الاسلامي، ومثل ذلك يقال في جملة من الالفاظ القبطية التي دخلت العربية في مصر من نحو: «برسيم، حنطور، هوش..» والناظر لديوان الشعر العربي عصر ما قبل الاسلام يجد عشرات بل مئات من الالفاظ المستعملة في الشعر العربي.

وعلى الرغم من الخلاف الواسع بين اللغويين والعلماء العرب حول عروبة أو عجمة بعض الالفاظ القرآنية[14] إلا اننا لا نرى ضيراً على القرآن أو على اللغة العربية من أن نجد ما ينعت بالعجمة مستعملاً في نصّ عربي، فقد دخلت هذه الالفاظ اللغة العربية في عصورها المختلفة، وتشكلت بشكلها، ونسجها العربي، حتى صارت كالعربية في كثير من الاحوال، فصقلت وطبعت عليها الالسنة العربية، واصبحت بمرور الزمن، وبعد مراحل التطور لا تعرف عجمتها إلا عند علماء اللغة ـ وهم في ذلك مختلفون ـ وجاء بعض من هذه الالفاظ في القرآن الكريم، الذي نزل بلغة العرب النموذجية، بعد أن مرّت هذه اللغة نفسها بمراحل من التطور والامتزاج عبر عصورها الاولى.

هذا على صعيد صراع اللغة العربية الخارجي، وعلى صعيد آخر فقد دخلت العربية في صراع داخلي مع نفسها، حين تعددت لهجاتها بفعل اختلاف البيئات العربية، وما صاحبه من اتجاه الالسنة الى الاختلاف بين القبائل في النطق، وقد ازداد هذا الخلف بتفرع القبائل، حتى وصل الى الالفاظ ومعانيها، فكان ذلك ايذانا بتعدد اللغة المشتركة الى لهجات تبتعد عن بعضها

(١٤) يرى فريق من اللغوين العرب بان في لغة القرآن كلمات اعجمية الاصول عربية الالفاظ ومن هؤلاء (ابو عبيدة القاسم بن سلام الأزدي) (ت. ٢٢٤ هـ) و(الثعالبي) و(ابو حاتم الرازي). وغيرهم. وذهب آخرون الى عدم وقوع الاعجمي في القرآن. ومن هؤلاء (الامام الشافعي) و(ابن فارس) وغيرها. ولكل فريق حججه.
انظر: الزينة ١/١٩، المزهر: ٢/٣١٢، فقه اللغة: للثعالبي ٣١٥. الاتقان في علوم القران: للسيوطي ١/١٣٥. وما بعدها.

بظواهر عديدة منها الصوتي، ومنها الدلالي، ومنها التركيبي[15]، وقد اضطرت القبائل الى الاتصال ببعضها لتبادل المنافع من تجارة، وغيرها، فاجتمعت في الاسواق، واتصلت عند شنّ الغارات، مما اوجد سبيلًا لتصارع اللهجات، فساد الضعيف، وانتشر القوي، وما زالت اللهجات تتصارع حتى كتب للقرشية التغلب آخر الامر لاسباب هيأت لها سبيل النصر[16]، وامكنتها من أن تصبح لغة العرب جميعاً، لان اللغات اذا تصارعت وكتب لاحدها الفوز، اتجه الجميع الى التكلم بها، ولذلك صارت القرشية لغة الشعراء في اشعارهم، والخطباء في خطبهم، ويؤكد ذلك أنّ العرب على اختلاف قبائلهم ورد الينا شعرهم لغة موحدة إلا في القليل النادر، وهو الذي كان عليه الاعتماد في أن تعرف البقية من لهجاتهم.

وقد استفادت القرشية من صراعها مع اللهجات اموراً كثيرة، منها ما يخصّ المفردات وتنوع الاساليب، فغنيت بالمترادف، والمشترك، والمتضاد وغيرها من الامور التي كان لها كبير الاثر في نمو اللغة وسعتها، ومنها نزول القرآن الكريم بها مما زادها غنى على غنى: وثراء على ثراء.

وعندما انطلق العرب المسلمون في رحاب اوسع من المكان مبشرين برسالة السماء، خالطوا امماً كثيرة، فكان ان ظهر داء جديد اذ شاع اللحن، وفشا على الالسنة «وتغيّرت ملكة اللسان المضري، فتكونت في الامصار والبوادي لغات جديدة تختلف عن (لغة مضر) في كثير من الموضوعات اللغوية، وبناء الكلمات، فاصبحت (لغة مضر) لا يمكن اكتسابها بالمعاشرة، والمخالطة والمباشرة وصارت مما يفتقر الى تعليم خاص»[17].

(١٥) ادلة تعدد العربية الى لجهات كثيرة. نذكر منها: وجود المشترك، والمتضاد، والمترادف والاختلاف في: الاعراب، الزيادة والنقصان، الفك والادغام، التصحيح والاعلال، هيئة النطق وهي تشمل (الامالة، والترقيق، والتفخيم، والاخفاء، والاظهار) وغير ذلك من الادلة. انظر: فقه اللغة: ابراهيم محمد نجا، ص٢٢.
(١٦) من اسباب انتصار القرشية. نفوذ اهلها الديني والتجاري، والسياسي، واللغوي بين القبائل.
(١٧) مقدمة ابن خلدون: ص٥٥١، ٥٨٢.

وتسرّبت الى اللغة العربية مئات الالفاظ الاجنبية بحكم اتصال العرب بغيرهم، واتصال غيرهم بهم، فبدا اختلاف جديد بين لهجات الامصار الاسلامية علله (الجاحظ) بقوله: «واهل الامصار انما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من الغرب ولذلك تجد الاختلاف في الفاظ اهل الكوفة والبصرة، والشام، ومصر»[١٨].

«ألا ترى أنّ أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بالفاظ من الفاظهم، ولذلك يسمّون البطيخ الخِرْبز، ويسمّون السميط الرَّزْدَق، ويسمّون المصُوص المزور، ويسمّون الشطرنج الاشترنج في غير ذلك منَ الاسماء. وكذلك اهل الكوفة؛ فانّهم يسمّون المساة، بال، وبال بالفارسية»[١٩].

والامثلة التي ساقها (الجاحظ) كثيرة مما يعكس لنا صورة جديدة من صور الحياة اللغوية للغة العربية في القرن الرابع الهجري.

ومهما يكن من أمر تأثّر او تأثير العربية فانّ العربي قد التزم قوانين الفصحى حين حتّمت عليه ظروف معينة مثل هذا الالتزام، ولكنه كان من جهة ثانية ملتزماً إمام لهجته القبلية، حين يكون تعامله مع الآخرين في حدود المكان المعين الذي يحيط بتلك اللهجة، ومن هنا يمكن القول إنّ اللغة العربية في تطورها القديم قد مرّت بمرحلة «اللغة الاجتماعية حين كانت تخضع لظروف المجتمع العربي قبل الاسلام، وقد كان الادباء والشعراء من سائر القبائل يلتزمون قوانين الفصحى المشتركة لا ينحرفون عنها ابداً، فاذا عادوا الى مواطنهم القبلية استعملوا لهجتهم الخاصة، وكان العربي في كلتا الحالتين ملتزماً بالمستوى الصوابي الذي ارتضاه مجتمعه الخاص للهجته، ولذلك الذي

(١٨) البيان والتبيين: ١/١٨.

(١٩) نفسه: ١/١٩. والسميط. الأجر القائم بعضه فوق بعض. والرزدق فارسي معرب. واصله بالفارسية «رسته» ومعناه السطر والصف من النخل وغيره. والمصوص: لحم ينقع في الخل ويطبخ.

ارتضاه المجتمع العام للغته المشتركة، فاذا بدرت من احدهم بادرة تخل المجتمع ـ والنقاد فيه كثيرون ـ بتقويم المخطئ سواء بالتوجيه الفردي، أم بحكم ما استقرّ من حسّن المجتمع من استنكار لموقف الخارجين عن تقاليد الفصحى»[٢٠].

ولكنّا نجد بمرور الزمن أنّ الفرد قد افلت من تلك الرقابة اللغوية الاجتماعية فراح يجابه اللغة المشتركة بما يفسدها من ملحون القول على المستوى الصّوتي والصرفي، والتركيبي، والدلالي، خاضعاً لذلك الى تأثيرات خارجية اقتضتها ظروف الاجتماع الجديد بما ضمّ من اجناس وبيئات مختلفة، وثقافات متعددة، وما نشأ عليه من عادات وتقاليد متباعدة عما الفه سلفه، كل ذلك انعكست آثاره على اللغة.

ومهما يكن من أمر فانّ الامثلة العديدة لتطور اللغات عبر التاريخ يدفع الى الاعتقاد بانّ التطور اللغوي لا يتّم عن طريق الانتقال المفاجئ من كيفية قديمة الى كيفية جديدة، ولا يمكن اعتباره اندفاعاً واحداً لضربة حاسمة تعطى ثمارها في سنوات قلائل، إنّه عملية طويلة، تأخذ من الزمان مئات السنين، ومن الخطأ أنّ نظن أن التطور اللغوي يؤدي الى نشوء لغة جديدة لا صلة لها باللغة الام. ولا تحمل شبهاً منها. ومن هنا فانّ المستوى الصوابي بما يثبّته من معايير وظوابط وقواعد للغة المعينة يبقى الدليل الوحيد على قرب الناطق المعين او بعده من تلك المعايير والضوابط، وتظل المعطيات الحضارية والفكرية للشعب الناطق إساساً في بقاء لغته وفعلها وثباتها في حومة الصراع، وكان للغة العربية من معطيات اهلها الحضارية ومن تشريفها بالتنزيل الحكيم عربياً مبيناً سبباً حاسماً في بقاء هذه اللغة وانتصارها في كلّ صراع.

فاللغة نشاط اجتماعي مكتسب وهي اذا تمكنت في الالسنة، سيظل صاحبها مقصوراً بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه ألا ترى أنّ السندي كما

(٢٠) في علم اللغة. د.عبد الصبور شاهين، ص٢٣٢.

يقول (الجاحظ) « اذا جُلب كبيراً فانّه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً، ولو اقام في عُليا تميم، وفي سفلىٰ قيس، وبين عجُز هوازن خمسين عاماً، وكذلك النبطيّ القحُّ، خلاف الغلاق الذي نشأ في بلاد النّبط، لانّ النبطي القح يجعل الرأي سيناً، فاذا اراد أن يقول زورق قال سورق؛ ويجعل العين همزة، فاذا أراد أن يقول مُشمعلّ، قال مشمئل »(٢١).

وهكذا نجد المستوى الصوابي ايضاً هو الذي يحدد سلامة نطق الناطق للغة المعنية، وهويته اللغوية، فيما اذا كان عربياً ينطق بلغة اعجمية، او اعجمياً ينطق بالعربية.

واذا كانت اللغات تنشأ كما تنشأ الاجسام الحيّة، ويعتورها التغيير والتبديل كما هو شأن الكائن الحيّ وانشطته المختلفة، فانّا نرى في العوامل الاجتماعية التي هي ناشئة عن العوامل البيئية سبباً رئيساً في تطور اللغات سلباً او ايجاباً، وفي صراعها مع غيرها، وانتصارها او انكسارها في هذا الصراع ولعل من اظهر الاتفاقات التي عثرنا عليها في المجال أن العالم العربي (ابن خلدون) في حديثه عن نشأة لغة الامصار من اللغة الاولى انما يقرر حقيقة علمية تعدّ من احدث ما توصل اليه الباحثون اللغويون في العصر الحاضر، اعني بها ادراك هذا العالم العربي لاثر البيئات على الظواهر الاجتماعية ومنها اللغة، يقول: « إن كلًا منهم متوصل بلغته الى تادية مقصوده، والابانة عما في نفسه، وهذا معنى اللسان واللغة، وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم »(٢٢) ويتحدّث عن فنون الشعر في الامصار قائلًا « والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي اذا سمعها، ويمجّ نظمهم اذا انشدوا، ويعتقد أنّ ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها، وفقد الاعراب منها، وهذا انما يأتي من فقدان الملكة في لغتهم (اي علماء اللسان) فلو حصلت له

(٢١) البيان والتبيين. ١/٧٠.
(٢٢) المقدمة. لابن خلدون. ص٤٩٣.

ملكة من ملكاتهم (اي اهل الامصار) لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها، وا
كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره، وإلا فالاعراب لا دخل له
البلاغة، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه اهل الملكة، فاذا عرف اصطلاح
ملكة واشتهر صحّت الدلالة، واذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتض
الحال صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك، واساليب الشع
وفنونه موجودة في اشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب في اواخر الكل
فان غالب كلماتهم موقوفة الاخر »(٢٣).

(٢٣) نفسه. ص٥١٣.

ـ الفصل الرابع ـ

وسائل التواصل غير اللغوية

ـ المبحث الاول ـ
(اللغة ووسائل التواصل غير اللغوية)

من الثابت انّ اللغة وانْ كانت الوسيلة المثلى للتواصل بين الناس، ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة، فقد عرف الانسان قبلها وما يزال يعرف وسائل عديدة يتواصل بواسطتها[١]، وهذه الوسائل ذات صور متنوعة، منها رموز مادية تفسّر بمعنى معين، ومنها اشياء تستوحى من الطبيعة حمّلها الانسان دلالات خاصة «حتى ظنّ الانسان في حقبة زمانية أن للطبيعة لغة، وللحيوان لغة»[٢].

ولا شك أنّ لغة الطبيعة، ولغة الحيوان تختلفان كلّ الاختلاف عن أية محادثة، او تبادل للمعلومات بين الاحياء البشرية كما سنرى، ومع ذلك فانّ

---

(١) قد يكون التواصل بالسمع وهو الاكثر، وقد يكون بالنظر الى ما يرمز به للمعنى المراد، وقد يكون باللمس كما هو عند المبصرين، او بالشمّ كأنْ يضاف الى بعض الاشياء مادة ذات رائحة معينة للتنبيه الى فكرة معينة كما هو الحال في اضافة مادة كريهة الرائحة للغاز الشديد الاشتعال ـ وهو اصلًا بدون رائحة ـ خوفاً من تسربه فيكون شمّ تلك الرائحة الكريهة اشارة الى وقوع التسرب. وقد يكون بالتذوق فتقديم القهوة المرة للزائر اشارة الى معنى يختلف عنه تقديم القهوة الحلوة أو مشروباً آخر.

(٢) تستخدم كثير من الحيوانات كالنحل والطيور والقطط وغيرها اصواتاً وحركات دالة، ولبعضها قابلية ابلاغية مدهشة اذ اظهر البحث الذي قام به العلماء الامريكيون أنّ للغربان لغات عديدة، فغربان المدينة لا تفهم غربان الريف، وغربان المدن لا تفهم اشارات بعضها.
انظر: اصوات واشارات: دراسة في علم اللغة. أ. كوندراتوف. نقله عن الانكليزية ادوار يوحنا. بغداد ١٩٧٠ ص٩.

علم اللغة قد اولى اهتماماً خاصاً بنظرية الاشارات والرموز ونظمها في مجتمع ما، ومثلما تدرس الاشارة اللغوية المنطوقة، تدرس ايضاً لغة الطبيعة ولغة الحيوانات وكثير من انظمة الاشارات والرموز غير اللغوية، كالاشارات البحرية، والعسكرية، وقوانين الطرقات والخرائط، والطقوس الرمزية، وآداب التصرف، والحركات الجسمية بانواعها، وكلّ ما يستعمل من الكيانات والتشكيلات الدالة بغض النظر عن ماهيتها وانواعها[٣].

ومن المعروف لدى الباحثين اللغويين المحدثين أن (سوسور) هو صاحب الفضل الاول في لفت الانظار الى ضرورة دراسة حياة الرموز في المجتمعات[٤] بل انّه هو الذي تصوّر مولد هذا الضرب من الدرس الذي لم يكتب له النمو الّا ابتداء من الستينيات من هذا القرن، ولعل فيما ذكره (سوسور) في محاضراته ما يؤكد ريادته في الدعوة الى هذا العلم اذ يقول: «ويمكننا أن نتصور علماً يتخذ موضوعاً له دراسة حياة الرموز في رحاب الحياة الاجتماعية، ويصبح هذا العلم جزءاً من علم النفس الاجتماعي وبالتالي من علم النفس العام، ونحن نطلق عليه (علم الاشارات) (السيميولوجية)[٥] Semiology، وندرس فيه كيفية تكون الرموز والقوانين التي تحكمها، ولما كان هذا العلم لم يظهر الى الوجود حتى الآن، فلا يمكننا التكهن بطبيعته وماهيته

(٣) يميز علم الدلالة بين ثلاثة انواع من الاشارات: الاشارات الطبيعية، والاشارات الصورية ويسميها الجاحظ بـ (النصبة) وهي عنده: الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد. والاشارات الجسمانية. وهي في جملتها تشترك في سمة واحدة هي انها تتكون من المومى اليه والمومى.
انظر: اصوات واشارات. ص٦-٧. البيان والتبيين. ١/٨١.

(٤) يرى بعض الباحثين مثل (جاكبسون) أن الدعوة الى دراسة حياة الرموز دعوة قديمة ذات تاريخ طويل نسبياً، اذ بدأت كعلم في القرن التاسع عشر على يد (بيرسي) الذي أخذ يدرس الرموز ودلالاتها وعلاقاتها في جميع الاشياء والموضوعات الطبيعية والانسانية. والحق أنّ (سوسور) هو الذي بشر بمولدها وحدد موضوعها.
انظر: نظرية البنائية في النقد الادبي. ص٣٦، ٣٤٥.

(٥) عرّبت الى (السيمائية) او (السيمية) حتى لا تختلط بعلم السيماء والفراسة العربية.

وكيف سيصبح، ولكننا نؤكد أنّ من حقه أن يوجد وأنّ مكانه محفوظ له مسبقاً، وليس علم اللغة إلا جزءاً من هذا العلم العام، والقوانين التي سيكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللغة، وبهذا يحتلّ مكانه المحدد في مجموعة العلوم التي تدرس الوقائع الانسانية المختلفة»[٦].

وتُعدُّ الاشارات والرموز وسيلة غير دقيقة للتواصل، نظراً لفقرها ومحدويتها في التعبير عن الافكار والحاجات والمشاعر الانسانية، بما لا يجوز في ضوئه اعتبارها بديلًا لغوياً يمكن احلاله بطريقة من الطرق محل الإشارة اللغوية، فليست تلك الرموز إلا وسيلة مساعدة بامكانيات محدودة جداً يلجأ اليها الانسان لكي يرمز بواسطتها الى معنى معين، أو لتأكيد هذه النقطة أو تلك من كلامه.

وعلى الرغم من أنّ مقارنة الرموز والاشارات باللغة الكلامية «يشبه تماماً مقارنة المعزقة الخشبية البدائية بالجرار الحديث بمحاريثه الخمسة أو بالحفّارة الحديثة»[٧] الا أنّ من المفيد أنْ نقف على اهم الفوارق بينها وبين اللغات المنطوقة[٨] فنقول:

اولاً: إنّ الاشارة اللغوية لا تجمع بين شيء وبين اسم، وانما تجمع بين مفهوم وبين صورة سمعية اي «بين الشيء والتسمية» وليست الصورة السمعية هي الصوت المادي أي الشيء الفيزيائي الصرف، وانما هي بصمة نفسانية لهذا الصوت هي التمثّل الذي يعطيه لنا حكم حواسنا، وهي لهذا صورة حسية، بمعنى ان الاشارة اللغوية حقيقة نفسانية ذات وجهين: المعنى المجرد، والصورة السمعية[٩] والصلة بينهما وثيقة، فكلّ منهما يوحي بالآخر، ويستدعي احدهما

(٦) نظرية البنائية في النقد الادبي. «بتصرف» ص٣٧.
وانظر: علم اللغة العام. سوسور: ص٣٤.

(٧) الماركسية وقضايا علم اللغة. ص٦٠.

(٨) انظر التفاصيل في: علم اللغة العام. سوسور: ص٨٥ وما بعدها.
مفاتيح الالسنية. ص٣٥ وما بعدها.

(٩) الالسنية (علم اللغة الحديث): ص٢٣٨.

وجود الآخر. ومع هذا فان الرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول في اللغة كما اشرنا من قبل رابط كيفي، أو «اعتباطي» كما يقول (سوسور)[١٠].

«ففكرة الاخت Sister لا ترتبط بأية علاقة داخلية بتعاقب الاصوات s-o-r التي تقوم بوظيفة الدال في اللغة الفرنسية، فهذه الفكرة يمكن التعبير عنها باستخدام اي تعاقب صوتي آخر، وخير دليل على ذلك اللغات المختلفة (التي تستخدم اشارات مختلفة) فالمدلول (ثور) له الدال (bof) عند طرف من الحدود الفرنسية الالمانية، و(ochs, o-k-s) على الطرف الآخر»[١١].

اما الرمز أو (الدال البصري) فمن خصائصه ألا يكون كيفياً بصفة مطلقة فهو ليس خالياً من المضمون بل يحتوي على رابط أوّلي وطبيعي بين الدال والمدلول. فلا يمكن ابدال رمز العدالة ـ أي الميزان ـ بغيره، على سبيل المثال لا يمكن ابدال هذا الرمز بسيارة عسكرية[١٢]. فهناك خاصية تصويرية للرمز قائمة بين شكله وما يدل عليه، فخيال دراجة يُدل على دراجة، ويدلّ رسم ملعقة وشوكة متقاطعتين على مطعم.. الخ. فالصلة بين الرمز والمرموز اليه بديهية عند الجميع وعلى وفق ما اصطلح عليه المجتمع المعين، فرسم جمجمة انسان تدلّ عند مجتمعات معينة على الخطر، ولكنها تُعدّ الصورة العادية للحلوى المكسيكية، والسواد الذي لنا ببداهة اللون الطبيعي للحداد والموت؛

(١٠) علم اللغة العام. سوسور: ص٨٦.

(١١) نفسه: ص٨٧. واعلم انه قد يُتخذ من كلمات المحاكاة دليل على أن اختيار الدال ليس كيفياً بصورة مطلقة. إلا ان هذه الكلمات لا تمثل اطلاقاً عناصر بنائية لاي تنظيم لغوي، وعددها قليل وما يدخل منها الى اللغة يخضع بطرق ما لفعل التطور الصوتي الذي تخضع له بقية المفردات. امّا علامات التعجب ـ وهي قريبة من اصوات المحاكاة ـ فيمكن اعتبارها تعابير عفوية عن الواقع الذي تمليه علينا ـ إن صح التعبير ـ (الطبيعة) زيادة على ذلك فانه بالامكان ان تنفي بشأن اغلبها أن يكون ثمة رابط ضروري بين الدال والمدلول. وباختصار: انّ كلمات المحاكاة وعلامات التعجب هي ذات قيمة ثانوية وأن اصلها الرمزي مشكوك فيه الى حدّ ما.

انظر: الالسنية (علم اللغة الحديث) ص٢٤٢ـ٢٤٣. وعلم اللغة العام. سوسور ٨٨.

(١٢) الالسنية (علم اللغة الحديث): ص٢٤٢.

هو لون الرجولة عند الكناكيين. وهذا يعني «موقفاً متجهاً الى اعتبار الرمز لا في ذاته وانما فيما يرمز اليه، اي أنّ الرمز له طاقة خاصة به منبثقة عنه تميزه عن الاشارة اللغوية التي لا حول لها في نفسها»[١٣].

ثانياً: لما كان للرمز خاصيته التشكيلية التصويرية لا يجوز التصرف به، كما هو الحال في الاشارة اللغوية القابلة للتصرف على وجوه مختلفة، اذ يمكن التصرف بالتركيب اللغوي ابدالًا، أو تقديماً وتأخيراً، أو حذفاً[١٤]، ولوجود هذه السمة امكن للاشارة اللغوية التعبير عن الاف الافكار، وذلك مما لا نجده في ايّ نوع من انواع الرموز الابلاغية الاخرى، حيث اننا نجسد دائماً أن الوحدات الدنيا التي تتركب منها الرموز غير اللغوية وحدات دلالية لها شكل ومحتوى دلالي، لا يمكن التصرف فيها او تحليلها الى وحدات اصغر تكوّن بدورها دلالة جديدة كما هو الحال في اللغات البشرية حيث يتم التصرف المزدوج التقني الذي يبرز العنصر الاقتصادي لهذه اللغات المتمثل في امكانية التعبير عن ملايين الافكار من خلال وحدات بنائية تتراوح بين ٢٥ ـ ٥٠ رمزاً صوتياً. فاللغة بهذا الاعتبار هي التي تجعلنا نخضع الواقع الى مقولاتها، وليست الاشياء هي التي تملي قوانينها على الكلمات. وقد ساعدها على ذلك أن العلاقة بين الاشارة اللغوية ودلالتها كامنة فقط عند الجماعة الناطقة التي اصطلحت أو تواطئت على استعمال كلمة معينة علماً لدلالة معينة، فليس للغة خاصية تشكيلية تصويرية كما هو الحال في بقية الرموز، انها نظام من العلاقات بين اللفظ والشيء، والدال والمدلول، بين المعنى اللساني والشكل اللساني، انها «نظام متمفصل كما يرى البنائيون»[١٥] حيث كل شيء يوجد، وحيث كل شيء يتضامن وحيث انّ كلّ عنصر يأخذ قيمته من وضعيته البنائية.

(١٣) نظرية البنائية في النقد الادبي: ص٣٥٥.

(١٤) انظر تفاصيل اوجه التصرف بالاشارة اللغوية في: مفاتيح الالسنية ص٥٠ وما بعدها.

(١٥) انظر: البنائية في اللسانيات. ص٣٦٠.

اما رموز الابلاغ الاخرى فانه وإنْ كان لبعضها انظمة خاصة مثل خريطة الطرقات حيث أنّ لكلّ مسافة تمثيل رمزي لها، فمسافة على الخريطة لها ما يساويها على الارض على وفق نظام حسابي معين؛ وكذلك الشأن بالنسبة لكلّ الاتجاهات، أو الرسوم الاخرى الدالة كرسم طائرة للدلالة على المطار، أو رسم صليب للدلالة على المقبرة او غير ذلك، غير أنّ هذه الانظمة جزئية لانّ مفهوم النظام اللغوي يتضمن وجود دلائل قارة من بلاغ الى آخر تحدد وظيفياً بتقابلها.

ففي حركة المرور، لا دلالة للاضواء الحمراء إلا في نطاق نظامها باعتبار تقابلها والضوء الاخضر أو البرتقالي، امّا الاضواء الاصفر والازرق المستعملان في اشارات السكك الحديد فلا تندرج في نفس النظام وانما في نظام آخر وهكذا. إنّ اشارات المرور، والاشارات الصوتية وجميع العلامات والرموز الاخرى انما هي اشارات ورموز محدودة بسيطة لا غاية لها في ذاتها، فقد تكون الاشارة محسوسة (لوحة زيتية) او (لحن موسيقى) او (لافته) ولكنها «تتعالى دائماً فوق واقعها المادي»[١٦] رغبة في تحقيق غاية تواصلية ما، اصطلح المجتمع على دلاتها، وتعارف على ذلك.

ثالثاً: واخيراً فان اللغة عملية ارادية لا تتم إلا برموز صوتية يشترط فيها أن تكون صادرة من اعضاء معينة مهيأة بطبيعتها التشريحية الى أنْ يكيفها الانسان في نطق الاصوات، فلا يُعدّ مثلًا من اللغة الطرقُ على الطاولة لاستدعاء النادل، على الرغم من أنّ هذا الطرق يترجم الى جملة مفيدة او اكثر منها، وانما هو اشارة وليس لغة لانه لم يصدر عن اعضاء النطق الطبيعية. ويجب الانتباه هنا الى انه ليس كل ما يصدر عن اعضاء النطق يُعدُّ لغة، فهذيان المحموم، وكلام الببغاء، وبكاء الاطفال وغير ذلك ليس لغة ولا كلاماً، لانّه فقد عنصر الارادة وهو عنصر اساس من عناصر الفعل اللغوي.

(١٦) في اللغو واللغة. ص٤٨.

وكذلك فان الاصوات التي تحدثها الطبيعة او الحيوانات لا توجه الى مخاطب معين، ولا تهدف الى ابلاغ شيء معين بالذات كما هو الحال في اللغة - لان الطبيعة «تخبر ولكنّها لا تتكلم»[١٧] بمعنى أن نيّة الابلاغ غير متوافرة، فالسماء عند العاصفة لا تنوي البتة أن تبلغ الارصادي شيئاً، وهذيان المحموم، وعطس المريض أو ارتفاع درجة حرارته لم يحدث قصداً لاخبار الطبيب بمرض ما، وانّما هذه علامات تدرك في الحين فتعرفنا بشيء معلق بما لا يدرك كذلك، انها كما يقول (الجاحظ) - تشير - «بغير اليد»[١٨]، في حين نجد أنّ «الوظيفة المركزية بلغة النوعية للغات البشر الطبيعية هي وظيفة الابلاغ»[١٩] المقصود قصداً والحيوانات وإنْ كانت تطلق اصواتاً، وتستخدم اشارات متنوعة، غير أن اصواتها واشاراتها هذه محسوسة (ليست تجريدية)، انها كما كانت تقترن بالحادثة أو الوضع، فالديك لا يستطيع أن يقول للدجاجة ما الذي حدث بالامس، وما الذي سيحدث غداً؛ ولا يستطيع ذلك حتى الشمبازي الثرثار، فالاشارة تحدث في فترة معينة فقط، وفي وضع محسوس معين «إن معناها آني وللحاضر فقط»[٢٠] في حين يستطيع الانسانُ أن يفصل الاشارة اللغوية عن وضعها، ويستطيع هو فقط التكلّم عن حوادث الماضي وعما سيحدث في المستقبل، وتخيل اشياء واقعية وغير واقعية.

واذا كان علماء اللغة المحدثون يرون أنّ أول تمييز اساس بين لغة الانسان واصوات الطبيعة، والحيوانات، ومجموعة المقاييس والرموز والاشارات الصالحة للتواصل هو (نيّة الابلاغ) المقصود قصداً، فالاشارة اللغوية ابلاغ ارادي مقصود، وغيرها لا يبلغ وانما (يشير) دون قصد، بمعنى أنّ الطير مثلًا عندما يطلق صوتاً ليجلب انتباه الشخص الذي يطعمه لا يكون على علم بكون

(١٧) اصوات واشارات: ص٤.
(١٨) البيان والتبيين: ٨١/١.
(١٩) مفاتيح الالسنية: ص٣٨.
(٢٠) اصوات واشارات: ص٩.

الصيحة التي يطلقها «اشارة»، إنّ الاشارة والمضمون في لغة الحيوانات يقترنان بشكل لا انفصام له، وهذا السرّ وراء عدم تطور لغتهم، فهي تتواصل بالاسلوب نفسه الذي اعتادت عليه قبل الوف السنين، وما هذه حالة اللغات الانسانية.

اقول اذا كان علماء اللغة المحدثون يرون ذلك، فانّ (أبا عثمان الجاحظ) في تناوله الفرق بين لغة الانسان ومجموعة الاصوات التي تطلقها الحيوانات قد قال بحقائق علمية سبق في اكثر وجوهها ما استطاع علماء اليوم بيانه وتأكيده. قال في الحيوان[٢١]: «وزعم صاحب المنطق أنّ كلّ طائر عريض اللسان فالافصاح بحروف الكلام منه أوجه، ولابن آوى صياح يشبه صياح الصبيان، وكذلك الخنزير، وقد تهيأ للكلب مثل: عَفْ عَفْ، وَوَوْ وَوْ، واشباه ذلك. وتهيأ للغراب القاف، وتهيأ للببغاء من الحروف اكثر. فاذا صرْتَ للسنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير، ومتى احببْت أن تعرف ذلك فتسمّع تجاوب السنانير، وتوعُّدُ بعضها لبعض في جوف الليل، ثم أحصِ ما تسمعُهُ وتتبعْه، وتوقف عنده، فانك ترى من عدد الحروف ما إن كان بها من الحاجات والعقول والاستطاعات، ثم ألّفتَها، صارت لغة صالحة الموضع، متوسطة الحال.

واللغات إنّما تشتدّ وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله باماكنها التي وضعت فيها، وعلى قدر كثرة العدد وقلّته، وعلى قدر مخارجها وخفتها، وسلسها وثقلها، وتعقدها في أنفسها. كفرق ما بين الزنجي والخوزي، أن الرجل يتنخس في بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلم بعامة كلامهم، ويبايع الخوز، ويجاورهم زماناً فلا يتعلّق منهم بطائل...».

ولو تأمّلنا هذا النص لبانت لنا حقائق من علم اللغة عامة، وعلم اللغة خاصة جديرة بالاثبات، لانّ الباحثين الاوربيين ـ كما يقول الدكتور حسن

(٢١) الحيوان: ٢٨٦/٥.

ظاظا «ما يزالون يقبلون احتمالاتها على جميع الوجوه الممكنة بعد (الجاحظ) باكثر من الف عام»[٢٢] حقائق اقامها (الجاحظ) على التجربة المباشرة، والاستقراء والاحصاء، ومن هذه الحقائق نذكر الآتي[٢٣]:

اولاً: إنّ لغة الانسان ليست مجرد القدرة على استعمال الصوت الطبيعي في الصياح او تقطيعه الى حروف ذات مخارج متميزة، فهناك حيوانات قادرة على ذلك كالببغاء والسنانير، وانّما وراء ذلك بواعث اجتماعية او نفسانية وفكرية أو ما سمّاه الجاحظ (بالحاجات)، ووراء ذلك ايضاً ما سمّاه الجاحظ بـ (العقول) وهي القدرات المفكرة المدبرة التي تستطيع الملاحظة والقياس والاستنباط، وتعمل على كشف مجاهل الكون.

واخيراً ما يسميه (بالاستطاعات) وهي الارادة او (نية الابلاغ) التي يشترطها في الاشارة اللغوية علم اللغة اليوم، فهي التي تجعل المتكلم لا ينطق بباعث الغريزة الكلامية أو الحالة الشعورية القويّة الموقتة فحسب، ولكن كلّما راى هو ذلك مناسباً له مرغوباً فيه. وهو بهذا يكاد يعطينا للغة نفس الحدود والرسوم التي اعطانا اياها علماء اللغة المحدثون، اذ يرى أن اللغة ليست مخارج الحروف فقط، وانما هي القوة الانسانية الارادية المفكرة المعبرة في مجتمع. وإنّ لغات البشر تتفاوت صعوبة وسهولة، لا في ذاتها فقط، وانما بالنسبة للغريب الذي يريد أنْ يتعلّمها على الخصوص، فيقول إنّ الالفاظ تصعب عليه كلما ازداد جهله بمعناها الدقيق واستعمالها، وكثرة عدد الفاظها، وامكان نطق حروفها بسهولة نطقاً صحيحاً او عدم امكان ذلك.

رابعاً: واخيراً فليست عملية التواصل بين طرفي الاشارة اللغوية تكمن في الابلاغ فحسب، وانما نجد في هذه الاشارة اللغوية التي يقصد المتكلم اشياء اخرى يمكن عدّها من مشمولات وظيفة الابلاغ هذه، فالاشارة اللغوية تنقل

(٢٢) اللسان والانسان: ص٤٥.
(٢٣) انظر: المصدر السابق: ص٤٥ وما بعدها.

زيادة على محتواها اللغوي الصرف علامات او امارات تخبر السامع نفسه عن المتكلم نفسه دون أنْ يكون في نيته ابلاغها، فصوت المتكلم كثيراً ما يخبرنا عن سنّه، وجنسه، وربما بدانته، وعن حالته الصحية، ومنشئه الجغرافي، وطبقته الاجتماعية، وحالته النفسية. وما نجد في الرموز والاشارات ووسائل التواصل الاخرى مثل هذه المعطيات.

ـ المبحث الثاني ـ
(الاشارات والحركات الجسميّة المصاحبة للغة)

من المسائل التي يوليها علماء اللغة الاجتماعيون اهتماماً متميزاً دراسة مجموعة الاشارات والحركات الجسمية التي تصاحب الاشارة اللغوية، أو التي تستعمل للتعبير عن دلالات معينة، فهذه (المصاحبات اللغوية) تمثّل جانباً هاماً من جوانب التواصل بين الناس، وهي ايضاً قمم جيد للغة لا يجوز اغفاله، بل انها تُعدّ عن بعض الجماعات والافراد، وفي ظروف واحوال معينة الوسيلة الوحيدة للتواصل.

« فلسكانُ استراليا الاصليين لغة اشارية متطورة جداً، أنها تستعمل في العديد من الحالات: عندما تكون المحادثة عبر مسافات شاسعة لا يمكن للصوت أداءها ـ عندما تلتقي القبائل التي تتكلم لغات عديدة ـ واخيراً عندما يكون النطق بالكلمات محظوراً. ففي استراليا لا يسمح للارملة التي دفنت زوجها حديثاً باستعمال الكلمات، ولا يسمح الشيء نفسه بالنسبة للشباب المقبلين على مرحلة الرجولة.. الخ. وحتى الامم المتحضرة لم تنفض عن نفسها مثل هذه المحرمات الكلامية، تذكّر القسس المسيحيين الصامتين الذين لم ينبسوا ببنت شفة لسنوات عديدة، فتحدّثوا بلغة الاشارة، لان الكلمة المنطوقة كانت خطيئة »[1].

---

(١) اصوات واشارات. ص١٢-١٣.

ان (اللغـة اليـدويـة) Hand Language، لمجمـوعـة (أرانــدا) Aranda الاسترالية تملك حوالي (٥٠٠) اشارة جسمية واضحة، وهذه الاشارات تمثّل أشياء واعمالًا وصفات وعبارات اجتماعية، وحتى اسئلة تامة وعبارات كاملة (٢).

ولقد تمخض اهتمام العلماء بدراسة هذه الاشارات والحركات الجسمية وتحليلها عن علم حديث يعرف اليوم بعلم الحركة الجسمية او (الكينات) Kinesice (٣)، ولهذا العلم مبادؤه العامة، مثله في ذلك مثل سائر العلوم.

ويُعدّ العالم الانتربولوجي (راي بيردوسيل) من اشهر المحدثين الذين اهتموا بدراسة الحركات الجسمية التي يستخدمها الانسان في عملية التواصل، أو التي تصاحب لغته المنطوقة بما يفيد في فهم العملية اللغوية نفسها، ويفيد ايضاً في فهم ظواهر البناء الاجتماعي للجماعة المعينة، فالحركات الجسمية ليست حركات عضوية يستخدمها الانسان كيفما اتفق، وانما هي نظام يتعلمه الانسان داخل المجتمع، «نظام له انماطه الخاصة التي تتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية والحضارية للشعب المعين أو الامة المعينة» (٤).

واذا كانت الاشارات والحركات الجسمية لمختلف الشعوب الاوربية تتشابه احياناً تشابهاً كبيراً، فالانكليزي والروسي والفرنسي والالماني كلّهم يهزون اكتافهم بمعنى (لا اعرف) (٥).

وحركة الراس الى الاعلى من العراقي او السوري او الفلسطيني وغيرهم من العرب في مختلف اقطارهم تعني (الرفض)، نرى من جانب آخر أن هناك اختلافات معينة في دلالة الحركات الجسمية من شعب الى آخر؛ فحركة الحاجبين الى الاعلى من لدن السوري او الفلسطيني تعني (الرفض) لكنها تفيد عند المصريين مثلًا دلالة اخرى...!

---

(٢) انظر المصدر السابق: ص١٣.
(٣) عُرفت الاشارة تقليدياً في الانكليزية باسم (GESTURE).
(٤) انظر: The New Encyclopedia Britannice. V. 5 p.
(٥) اصوات واشارات: ص١٣.

وفي روسيا تتجسد الاشارات الجسمية للوداع بتحريك اليد والاصابع، ويفسّر هذا في البرازيل بمعنى (تعال هنا)، ومن اجل التعبير عن (تعال هنا) يدير الروسي كفّه باتجاه الاعلى محرّكاً اياه اماماً وخلفاً، وفي العديد من الدول الغربية تتم اشارة الوداع بتحريك اليد مع الابقاء على الكفّ بعيداً عنها (٦).

ولا شك أنّ هناك فروقاً واضحة في استعمال الحركة الجسمية داخل المجتمع الواحد على وفق الجنس، او المهنة، او المستوى الثقافي، او التقاليد والاعراف الخاصة بكلّ طبقة من الطبقات الاجتماعية (٧).

فحـركـات الرمـوش والعيـون مختلفـة الدلالات بين الرجـال والنســاء، والابتسامة مثلًا تدل على السرور والابتهاج دائماً، انّما تختلف دلالاتها من بيئة اجتماعية الى اخرى، وتختلف ايضاً في البيئة الواحدة بين موقف وآخر فابتسام آنسة لرجال غرباء في مجتمع معين قد يدلّ دلالة حضارية لكنّه يكون غير مقبول في مجتمع آخر؛ والابتسامة قد تدلّ على السرور او المرح او السخرية او البله، وقد تكون دليلًا على رقّة الانسان وطيب اخلاقه، وقد تكون دليلًا على الشك أو القبول أو التعالي أو التواضع، وقد تكون اهانة، أو استنكاراً للاهانة، وغير ذلك مما يمكن أن تؤديه هذه الحركة من معان وفقاً لانماط اجتماعية وطبقية وبيئية وحضارية.

وهكذا يمكن للمرء أنْ يقف على مئات الامثلة التي تستحق الدرس لفهم طرائق الاتصال داخل المجتمع، ومن خلال الحركات الجسمية، وارتباط هذه الحركات بالنظام اللغوي.

واذا امكن للانسان أنْ يحذق انماط الحركات الجسمية ودلالاتها في ثقافة معينة ولمجتمع معين يستطيع أن يعرف من خلال هذه الحركات اللغة التي

---

(٦) نفسه: ص١٣.
(٧) انظر: The New Encyclopedia Britannice V. 5 p. 815.

يتكلّم بها المتكلم، وان لم يسمع صوتاً لغوياً؛ وعلى هذا الاساس تُعدّ الحركات الجسمية نظاماً اتصالياً ينشأ في المجتمع متمماً للغة، ومعيناً المتحدّث على نقل ما يريده من افكار وحاجات الى الآخرين، بل انّ هذه الحركات قد تكون في ظروف معينة بديلًا عن اللغة يوم تكون اللغة محرّمة لاعتبارات معينة. واذا كان (ابن فارس) قد اشار الى «أن الانسان الابكم قد يدلّ باشارات وحركات له على اكثر مراده، ثم لا يسمّى كلاماً»[٨].

وان (السيوطي) قد عقد في مزهره باباً في ذكر «من عجز لسانه عن الابانة في تفسير اللفظ فعدل الى الاشارة والتمثيل[٩]، بدا لنا من خلاله أنّه قد حدس فكرة لغوية اجتماعية هامة دون أن يحللها، نباشر موضوع الاشارات والحركات الجسمية التي يستعملها الانسان، وما تختلف فيه عن اللغة، فانّ ما جاء به (الجاحظ) في حديثه عن اصناف الدلالات عموماً، وفي حديثه عن الاشارات والحركات الجسمية خصوصاً ينطوي تحت معظم مبادئ علم الحركة الجسمية في معطياته المعاصرة.

فما ذكره (الجاحظ) في كتابيه الشهيرين: البيان والتبيين، والحيوان، بشأن الاشارات والحركات ـ يمكن ردّه الى الاسس العلمية التي يعتمدها علم الحركة الجسمية اليوم[١٠]. فقد رأى (الجاحظ) إنّ اصناف الدلالات خمسة:

قال: «وجميع اصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ: خمسة[١١]

(٨) الصاحبي: ص٤٠.
(٩) المزهر: ٣٢٩/٢.
(١٠) احصت الدكتورة فاطمة محجوب في البيان والتبيين اربع عشرة فقرة بشأن الاشارة يمكن ردها الى اربعة عشر مبدأ من مبادئ علم الحركة الجسمية.
انظر: اللكنة والحركة الجسمية من خلال البيان والتبيين. د.فاطمة محجوب. مجلة الثقافة السنة الثانية العدد ٢١ يونيه ١٩٧٥ ص٣٣ وما بعدها.
(١١) جعلها في كتابه الحيوان اربعة: اللفظ، والخط، والعقد، والاشارة. ورأى ان من جعلها خمسة بادخال النصبة «فقد ذهب ايضاً مذهباً له جواز في اللغة».
انظر: الحيوان: ٣٣/١-٣٤.

اشياء لا تنقص ولا تزيد: اولها اللفظ، ثم الاشارة، ثم العَقْد[١٢]، ثم الخطّ ثم الحال التي تسمّى نُصبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف، ولا تقصّرُ عن تلك الدلالات، ولكلّ واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن اعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن اجناسها واقدارها، وعن خاصّها وعامّها، وعن طبقاتها في السارّ والضارّ، وعما يكون منها لغواً بَهْرَجاً، وساقطاً مُطّرحاً»[١٣].

اما الاشارة فاقرب المفهوم منها عند (الجاحظ) «رفع الحواجب، وكسْرُ الاجفان، وليّ الشفاه، وتحريك الاعناق، وقبض جلدة الوجه»[١٤]. وهي ايضاً بـ «باليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب، والمنكِب اذا تباعد الشخصان، وبالثّوب وبالسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجراً ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً»[١٥].

والاشارة واللفظ «شريكان، ونعم العون هي له، ونعم التّرجمان هي عنه، وما اكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تُغني عن الخطّ، وبعد فهل تعدو الاشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحِلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الاشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مَرْفَق كبير، ومعونة حاضرة، في امور يسترها بعض الناس من بعض، ويُخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الاشارة لم يتفاهم الناسُ معنى خاصّ الخاصّ، ولجهلوا هذا الباب البتةّ»[١٦].

(١٢) العقد: ضرب من الحساب يكون باصابع اليدين، يقال له حساب اليد. وقد ورد في الحديث أنه «عقد عقد تسعين» وقد ألفت فيه كتب واراجيز.
انظر: البيان والتبيين: ٧٦/١ هامش رقم (١).
(١٣) البيان والتبيين: ٧٦/١.
(١٤) الحيوان: ٤٨/١.
(١٥) البيان والتبيين: ٧٧/١.
(١٦) البيان والتبيين: ٧٨/١.

ويزيد الجاحظ قوله: «وكان ابو شمر اذا نازع لم يحرّك يديه ولا منكبيه، ولم يقلّب عينيه، ولم يحرّك راسه، حتى كأنّ كلامه انما يخرج من صدْع صخرة. وكان يقضي على صاحب الاشارة بالافتقار الى ذلك، وبالعجز عن بلوغ ارادته. وكان يقول: ليس من حقّ المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلّمه ابراهيم بن السيّار عند أيوب بن جعفر، فاضطرّه بالحجة، وبالزيادة في المسألة، حتى حرّك يديه، وحلّ حُبوته[١٧]، وحبَا إليه حتى أخذ بيديه. وفي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر الى قول ابراهيم. وكان الذي غرّ ابا شمر وموّه له هذا الرأي أن اصحابه كانوا يستمعون منه، ويسلّمون له، ويميلون إليه، ويقبلون كلّ ما يُورده عليهم، ويُثبّته عندهم. فلما طال عليه توفيرهم له، وتركُ مجاذبتهم إياه، وخفّت مؤونة الكلام عليه. نَسِي حال منازعة الأكفاء ومجاذبة الخصوم..»[١٨].

والمتأمل لما جاء به (الجاحظ) يبدو له بوضوح حقائق من علم الحركة الجسمية جدير بالاثبات، وجدير بانْ يكون صاحبها من اوائل المفكرين في التراث الانساني ممن قصدوا بالتحليل العميق الى موضوع يرتبط باللغة كل الارتباط، وتوصلوا من ذلك الى نتائج لا نغالي كثيراً اذا قلنا أن المحدثين لم يزيدوا عليها شيئا.

فاذا كان من المبادئ الاساسية التي يقررها علم الحركة الجسمية اليوم هو أن تبادل المعلومات، ونقل الافكار قد يتمّ بوسائل اخرى غير اللغة المنطوقة، واذا كان للغة اعضاؤها، كاللسان والاسنان والحبال الصوتية، فللحركة الجسمية اعضاء ذكرها (الجاحظ) كالراس والعينين واليدين، وقد تؤدّى الحركة بالجوارح وحدها، كأن نشير بالسبابة أو الراس، أو الكتفين، كما قد تؤدّى الحركة باشراك جارحة أو اكثر مع شيء خارج الجسم كأن يجذب

(١٧) أي: غيّر جلسته.

(١٨) البيان والتبيين: ١/٩١-٩٢.

الطفل كمّ رداء امّه لكي يجعلها تلتفت الَيه وانّ لكل حركة دلالتها الخاصة كما أنّ لكل لفظ دلالته الخاصة، فانّا نجد الجاحظ قد اوضح هذه المبادئ ايّما وضوح، فبعد أن ذكر الاشارة قد تكون بجارحة أو غير جارحة، أو أن تكون باشراك جارحة أو اكثر مع غيرها أو ما عبّر عنه «بالثوب وبالسيف»، راى أن لكل حركة دلالة فقد تكون «تهديداً أو وعيداً، أو زجراً» وغير ذلك.

مما يؤكّد ما يقرره علم الحركة الجسمية اليوم من أنّ الحركات الجسمية قد تحلّ محلّ الكلام أو أن تكون متمماً فاعلًا- له في تأكيد الكلام أو زيادته وضوحاً، ولم يزد اصحاب هذا العلم عما يقوله الجاحظ من انّ الحركات والاشارات «نعم العون (للغة) ونعم الترجمان هي عنه».

ويقول علم الحركة الجسمية: «إنّ للحركة كما للفظ شكلًا خاصاً، وبناء محدداً، وتتعاقب العناصر المكونة لها بترتيب معين، فالحركة التي دلالتها: (تعال هنا). تختلف في تركيبها وتعاقب عناصرها عن الحركة التي دلالتها: (اذهب بعيداً) أو (اليك عنّي)»[١٩] وهذا ما يعنيه (الجاحظ) بقوله: إنّ الاشارة لا تعدو أنْ تكون ذات صور معروفة وحلية موصوفة».

والاشارة عند (الجاحظ) «طبقات ودلالات»، ويعني بالطبقات ما يعنيه علم الحركة الجسمية اليوم من تعدد انواع وطبقات الحركة من حيث صلتها بالكلام المنطوق، ومن حيث وظيفتها، فمنها ما يكون رمزاً يحلّ محل الكلام، ومنها ما يكون لتأكيده وايضاحه، ومنها ما يتفاهم به اثنان بطريقة تخفى على الحاضرين، أو كما يقول (الجاحظ) «في امور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس»، ومنها ما يكون حركة وصفية تتخذ شكل الاشياء التي يتحدّث عنها المتكلم، كأنْ يصف بناءاً معيناً، وذلك باداء حركة توضّح تركيبه المعماري حجماً أو طولًا أو عرضاً. وثمّة انواع اخرى

(١٩) الكلفة والحركة الجسمية. ص٣٤.

للحركة الجسمية تتصل باتجاهها، ومداها، وعدد مرات تكرارها [٢٠].

ويقرر علم الحركة الجسمية اليوم أنّ الحركة تستخدم بدلًا من الكلام حين تكون المسافة بين المباث والمستقبل بعيدة، بحيث لا يسمع الصوت أو عند وجود ضجيج يحول دون السماع الجيد، فنلوح باليدين مودعين، أو غير ذلك من الحركات التي يستخدمها البحارة في عرض البحر، أو العاملون في المطارات، مما تكون فيه الحركة الجسمية أو الاشارة في مثل هذه المواضع وغيرها هي الاكثر ابلاغاً، لانّ مبلغها كما يقول (الجاحظ) «ابعد من مبلغ الصوت»، ـ وهذا ـ ايضاً باب تتقدم فيه الاشارة الصوت» [٢١].

واذا كان من الحقائق المعروفة في علم الحركة الجسمية أنّ للحركات الجسمية اثراً على حسن البيان، والتأثير على الجماهير، وانّها تعدّ اساساً في التعبير التمثيلي (الدرامي)، ولهذا اصبح من مهام هذا العلم دراسة الآثار المترتبة على هذه الحركات، اثناء الكلام أو الخطابة، ايجاباً أو سلباً مما جعل بعض الكتاب يعيب على شعوب البحر الابيض المتوسط كالفرنسيين والايطاليين والاسبان انها تكثر من الحركات الجسمية اثناء الكلام، ويعدّ ذلك نقصاً، ويمتدح الشعب الانكليزي لانّه يعتمد على التعبير اللغوي اكثر من اعتماده على الحركة الجسمية، ورأى بعض الباحثين أنّ المتكلم أو الخطيب انما يكثر من الحركات الجسمية اثناء خطابه، انما يفعل ذلك لافتقاره الى المقدرة البلاغية وحاجته الى البيان والتأثير [٢٢].

وقد طرق (الجاحظ) هذه الافكار عينها، فقد ذكر لنا انّ (ابا شمر) كان يدين بعدم جدوى الحركة في التأثير على المخاطبين، لكنّه قد تخلّى عن رأيه هذا حين فرض عليه الموقف أن يستعين بها «فحرّك يديه وحل حُبوته» ويُفسّر هذا في ضوء علم الحركة الجسمية اليوم بانّه لما كان من وظائف الحركة

(٢٠) انظر: المرجع السابق. ص٣٤.
(٢١) البيان والتبيين: ١/٧٩.
(٢٢) انظر الكلفة والحركة الجسمية: ص٤١.

تأكيد الكلام، وتوضيحه في مواقف انفعالية معينة، فانّه لا يجوز الاقتصار على هذه الحركات دون الكلام، لانها لا تحمل حينئذٍ أيّ معنى، ولا تتميز بنمط تركيبي خاص يجعلنا أن نتعرف عليها. وهذا مما يضيف حقيقة جديدة تتصل بالجانب النفسي من الحركة الجسمية، اذ تكون الحركة في مواقف المجابهة والانفعال تنفيساً عن التوتر الداخلي الناشئ عن شدة الانفعال [٢٣]؛ وهكذا نجد أنّه حين احتدم النقاش بين (ابي شمر) و(ابراهيم بن سيّار النظام) واخذ (ابراهيم) ينازع (ابا شمر) منازعة الاكفاء، ويجاذبه مجاذبة الخصوم، يحدث عند ابي شمر ذلك التوتر الداخلي والانفعال الناجان عن المجابهة، مما يحدو به الى التخلّي عن مبدئه الخاص بعدم الاستعانة بالاشارة.

واذا كانت الحركات الجسمية والاشارات والرموز وغيرها من وسائل التواصل قد اخذت جانباً من اهتمام اللغويين المعاصرين، فمن المفيد أن نذكر إنّه قبل اكثر من الفي سنة اعتاد (شيشرون) أنْ يعلّم الخطباء أنّ «جميع حركات الروح يجب أنْ تكون مصحوبة بالاشارات القادرة على تفسير الاعمال والافكار، مثل اشارات المعصم، والاصبع واليد كلها ممدودة الى الاعلى، والقدم وهي تضرب الارض واخيراً، وبشكل خاص، تمثيل العيون، فالاشارات تشبه (لغة البدن) Body Language التي تفهم حتى من قبل المتوحشين والهمج» [٢٤].

اما الخطيب الروماني المشهور (كونتيليان) فانّه قد كوّن شيئاً اشبه بمعجم للاشارات [٢٥].

ولقد مضت الفاسنة منذ (شيشرون)، ومضى على ما قاله عالمنا العربي الكبير (الجاحظ) اكثر من الف ومئتي سنة، دون أن يضيف علماء اليوم إلا النزر اليسير على ما قرره (الجاحظ).

(٢٣) انظر: المرجع السابق: ص٤١.
(٢٤) اصوات واشارات: ص١٥.
(٢٥) نفسه: ص١٥.

ـ الفصل الخامس ـ

المستويات اللغوية ونظرية السياق

ولعل مردّ ذلك يكمن في عدم وجود لغة مجسّدة مناسبة للحركات الجسمية، أو نظاماً جيداً لتدوينها، ومردّ ذلك ايضاً أنّ للعبقرية العربية ثماراً ومعطيات جليلة بأي مقياس منصف قسناها.

إنّ تنصيص اللغويين العرب القدماء على اعتبار الاشارة عنصراً في حدّ الكلام حين عرّفوه بقولهم: « هو ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظاً او خطاً او اشارة او ما نطق به لسان الحال »[٢٦] أمر جدير بأن يُتوقف اليه، ويحتفى به، واذا كان يبلغ من تأثير عناصر الموقف الخارجي في استعمال اللغة أنّ « سبعين في المائة من درجة تأثير الكلام في مواقف الخطاب مرجعها الى ما يكون من النظرات المتبادلة عند الحديث، وان قيمة الدلالة التعبيرية وتأثيرها يتدنيان الى ثلاثين في المائة حسب اذا اقتصر على مجرد الكلام المنطوق، واذا كان ذلك كذلك في نتائج الدراسات المتعارفة عند الغربيين على هذا المستوى فانّه كان كذلك في حصيلة التقريرات التي انتهت للباحثين العرب الاقدمين، او انتهوا اليها في سبر وجوه الظاهرة اللسانية بمحض الاختبار وما يتهيأ في اطاره من الانظار »[٢٧] ولعل في حديث (ابن جنّي) ما يؤكّد هذه الحقيقة ويسندها فهذا العالم العربي الجليل هو الذي يقول: « وليست كلّ حكاية تروى لنا، ولا كل خبر يُنقل الينا يُشفع به شرح الاحوال التابعة له المقترنة ـ كانت ـ به، نعم ولو نقلت إلينا لم نُفِد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها.... فلو كان استماع الاذن مغنياً عن مقابلة العين، مُجزئاً عنه، لما تكلّف القائل، ولا كلّف صاحبه الاقبال عليه، والاصغاء إليه... وربّ اشارة ابلغ من عبارة »[٢٨].

ورُبّ متحدّث لا يحسن أن يكلّم إنساناً في الظلمة[٢٩].

(٢٦) شرح شذور الذهب. ابن هشام. تح.: محمد محي الدين عبد الحميد. الطبعة الثامنة مصر ١٣٨٠ هـ-١٩٦٠ م. ص. ٢٨-٢٩.
(٢٧) الاعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية. (بتصرف) ص٧.
(٢٨) الخصائص: ١/٢٤٦-٢٤٧.
(٢٩) انظر المصدر السابق. ١/٢٤٧.

- المبحث الاول -
(المستوى الاجتماعي والبنية اللغوية)

اللغة وانْ كانت نشاطاً جماعياً لشعب واحد، أو امة واحدة، لكنّ مستوياتها تتعدد وتتنوع تبعاً لتعدد الناطقين بها، وتنوّع ثقافاتهم، وطبقاتهم الاجتماعية، وتباعد الفوارق الزمانية والمكانية والمهنية بينهم، اذ أنّ السلوك الفردي ازاء اللغة يضيف اليها قدراً -وان كان ضئيلاً- خاصاً به، وهذا القدر الضئيل قد يخفى على المتحدثين العاديين، ولكنه لا يخفى على عالم اللغة فهو يتبينه من خلال نطق الاصوات، ونوع المفردات والتراكيب، بما يؤكد أن الاختلاف في المستويات اللغوية واقع بين افراد الشعب الواحد، او الامة الواحدة كما تختلف بصماتهم، بل أنّ بعض الباحثين المحدثين يذهب بعيداً فيقرر انه «يوجد من اللغات بقدر ما يوجد من الافراد»[1].

ومن المعروف أنّ الاستعمال اليومي للغة يختلف بعفويته، وعدم تكلّفه عن الاستعمال الكائن في المستويات النظرية التجريدية، او في الاوساط الاعلامية، او في المستويات الادبية والفنية، فهذه تقتضي نوعاً من الانقباض النفسي والفيزيولوجي؛ زيادة على انّ اللغة المنطوقة اكثر عفوية من لغة التحرير لما في الاخيرة من الحشو والزيادات والتصنع.

وقد مرّ القول إنّ تأثير المجتمع بمعناه الواسع على اللغة بيّن، ومن جانب

---

(١) اللغة. فندريس، ص٢٩٦.

آخر فان اللغة تتأثر بالمجتمعات والفئات الضيقة الكائنة داخل المجتمع الواحد اذ تنشعب لغة المحادثة في البلد الواحد، او المنطقة الواحدة الى مستويات لغوية متباينة تبعاً لتباين واختلاف طبقات وفئاتهم الاجتماعية، مع دخول الزمن عاملاً اساساً في هذا الاختلاف، اذ يؤدي انتشار اللغة في مناطق مختلفة واسعة، واستعمالها من لدن جماعات كثيرة وطوائف عديدة من الناس الى أن تتفرع اللغة الواحدة الى (لهجات محلية)، يتكلم بكل لهجة منها اصحاب منطقة خاصة من مناطق هذه اللغة، ولما كانت كلّ منطقة من هذه المناطق السكانية منقسمة بدورها على مجموعات صغيرة، بحسب مهنها، أو ثقافاتها، أو جنسها، أو انشطتها الحياتية المختلفة، فانّ اللغة تتأثر بهذه المجتمعات الضيقة، فتنشعب لغة المحادثة في المنطقة السكانية المعينة الى لهجات تبعا لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم. فتكون ثمة لهجة للمتعلمين تختلف عن لهجة الاميين، والمتعلمون يختلفون لهجة فيما بينهم باختلاف درجة تعلمهم، وباختلاف مهنهم، وباختلاف درجة ثرائهم وبسوى ذلك من الاسباب، ولهجة اخرى للطبقة الوسطى، ولهجات للجنود، وللرياضيين، وللنجارين، وللبحارة، ولذي المهن جميعاً، وفي المجتمعات التي تحكم فيها المرأة تقاليد واعراف خاصة تفصلها عن الرجل، تكون هناك لهجة مميزة للنساء.

وقد يكون هناك اتجاه في التعبير الخاص بطبقات المجرمين، والخارجين عن القانون، والمخنثين، «فمن الوان اللهجات الطائفية الموجودة في كل مجتمع تلك التي تسمّى (اللهجة السرية) او (الكلام السري). والمقصود بها تلك اللغة التي تستعملها طائفة تخشى سلطة المجتمع، وتهرب من عقابه، وتحاول أن تخفي عنه امرها؛ وذلك كلغة اللصوص، ولغة رجال العصابات، ولغة الحشاشين، ومن اليهم ممن يتعاطون مخدرات يحرمها مجتمعهم، ولغة القوادين.. الخ. فالملاحظ أنّ كلًّا من هذه الطوائف واشباهها تصطنع مفردات وتعبيرات لا يعرف معناها من ليس منها أو من لم يتصل بهم ويكشف عنها، والذي تلجأ اليه هذه اللغة في الاغلب أنها تعطي بعض الكلمات المستعملة في اللغة

المشتركة دلالات جديدة، وتعتمد على الاستعمالات المجازية؛ وقد تستعمل كلمات مأخوذة من لغات اجنبية محرّفة أو غير محرّفة، وقد تخترع بعض الكلمات والتعبيرات اختراعاً»[2].

وتعرف هذه الاقسام الفرعية داخل اللغة الواحدة باسم (اللهجات الاجتماعية) (Dialects Locaux) او (اللهجات الخاصة)، وهي في جملتها مستويات لغوية ناشئة عن الظروف الاجتماعية المختلفة باختلاف البيئة، او الحرفة، او الطائفة، فكلّ مجموعة من هؤلاء تصطلح لنفسها لهجة خاصة يشعر كلّ فرد من الافراد الناطقين بها «بانّ له في استعمال هذه اللهجة ذوقاً خاصاً متميزاً من الناحية الصوتية ومن نواحي الصرف والتركيب والدلالة يعرف به، ويسهل من خلاله تمييزه ونسبته الى جماعته الجزئية الخاصة»[3].

ومما يساعد على نشوء هذه المستويات اللغوية هو أنّ اللغة تتخذ كما هو معروف موقفاً محايداً ازاء الطبقات والفئات الاجتماعية، ولما كانت اللغة باهلها لا بنفسها فانا نجد مستعملي اللغة لا يتخذون جميعهم الموقف المحايد نفسه الذي تتخذه اللغة ازاءهم، اذ تجهد كلّ فئة أو مجموعة داخل المجتمع الواحد نفسها لاستعمال اللغة في مصالحها الخاصة، وانطلاقاً من معجمها، وتعابيرها، وطرق نطقها مما يساعد على ظهور هذه المستويات الفئوية، والالسن الخاصة، يزاد على ذلك ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق في البيئة الجغرافية، والثقافية ومناحي التفكير، والتربية، وحياة الإسرة، والمجتمع، والتقاليد، والعادات والاذواق. فهذه الفوارق بين الناس توجّه كلّ مجموعة وجهة خاصة في مناحي الحياة جميعها، ومن ابرزها اللغة، فكلّ زمن أو بيئة ذوق خاص في استعمال الالفاظ اللغوية، ويبدو ذلك في ادب الامة، ولا سيما في الجانب الشعبي منها، ولهذا لا يمكن أن نطبّق ما تواضع عليه الناس من

(٢) اللغة والمجتمع رأي ومنهج. د.السعران، بنغازي ١٩٥٨، ص٣٦.
(٣) اللسان والانسان. د.ظاظا، ص١٣٢.

اساليب الذوق في هذا الباب في زمن معين، على لغة، او لهجة في زمن آخر أو بيئة اخرى[٤].

ومن هنا يمكن القول إنّ اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها، بل تخلق خلقاً وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين افراد الطبقة او الفئة الواحدة.

ولقد اولى علم اللغة الاجتماعي اهتماماً متميزاً لدراسة الخصائص اللغوية العائدة لمجموعات مهنية أو فئات اجتماعية فدعا (هاريس) الى دراسة اثر النشاط الاجتماعي والمهني على الاسلوب اللغوي على وفق نوع ذلك النشاط من صحافة أو ادب، او علم، او حرفة[٥]. وراي (مالينوفسكي) ان اللغة ضرب من العمل، وان مواقف العمل هي التي تعمل على تنويع اللغة[٦]، وراى (ورف) «أنّ الانموذج اللغوي المعين يرتبط بالنماذج الثقافية المجتمعية»[٧] وهذا الانموذج اللغوي هو الذي يجعل بمقدور الانسان أن يتواصل مع امثاله بدقة بالغة ولهذا راى (ميبه) «ان من الواجب ان نحدد مع اي بنية اجتماعية تتفق بنية لغوية معينة كما انه من الواجب ان نحدد كيف تتمثل. تغيرات البنية الاجتماعية، بطريقة عامة في تغييرات البنية اللغوية»[١٨] وقبل أن نلقي الضوء على ما للغويين العرب القدماء من دارسات في هذا الميدان اللغوي الاجتماعي، لا بد لنا من توضيح امرين.

اولهما: ان اللهجة Dialect في الاصطلاح العلمي الحديث تعني «مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي الى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع افراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة اوسع واشمل تضمّ عدة لهجات ولكلّ منها خصائصها، ولكنّها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية

---

(٤) انظر: دراسات في علم اللغة ص١٩٣.

(٥) Zellin Harris Discourse analasis Language. London 1952, p. 18.

(٦) انظر دراسات في اللغة ص١٩٣.

(٧) الالسنية (علم اللغة الحديث) قراكات تمهيدية. ص١٦٤.

(آ٨) اللغة والمجتمع. د.السعرات ص٣٨.

التي تيسر اتصال افراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط هذه اللهجات، وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي أصطلح على تسميتها باللغة»[٨ب].

وقد أطلق اللغويون العرب القدماء على مصطلح اللهجة مصطلح (لغة) أو (لحن)، والواقع أن بين هذه المسميات فرقاً واضحاً وأقرب الحدود مناّلاً هو أن يقال: إنّه اذا كانت مجموعة من اللهجات تنتمي الى لغة أمّ، وكانت هذه اللغة الام نفسها ما تزال على قيد الحياة شائعة في الاستعمال، فانّ أية واحدة من فروعها غير جديرة بان تسمّى لغة، الى أن تموت اللغة نفسها، فحتى ذلك الوقت يسمّى كل فرع من فروعها لهجة، ومن ذلك اللهجات العربية، ومنها قديم مات بينا اللغة الام ما زالت حيّة. ومنها حديث هو هذه اللهجات العامية التي تعيش الى جانب الفصحى[٩].

اما (اللحن) فهو في الاصلاح اللغوي قسم او فرع صغير من فروع اللهجة يختص باقليم معين، او مدينة، أو بشعبة من قبيلة؛ فاللهجة العراقية مثلاً لهجة واسعة الحدود، اما نطق اهل البصرة، او الموصل، او البادية العراقية فكلّ منها (لحن) او (لغية)، (تصغير لغة)، بالنسبة للهجة او حتى اللغة، وهذه (اللغية) تتميز باختلافات في بعض مخارج الاصوات، او خطأ في الحركات الاعرابية، او اختلافات في النبرة الموسيقية للكلام، او الاختلاف في قوانين التقابل بين الاصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض، وما إلى ذلك من قيود صوتية يراعيها المتكلمون عند الكلام[١٠]. او في قواعد الصرف، او في استعمال بعض الالفاظ المحلية الضيقة الحدود.

(٨ب) في اللهجات العربية. د. ابراهيم انيس. مكتبة الانجلو، ط ٣، مصر ١٩٦٥، ص١٦.

(٩) اللسان والانسان، ص٢٣٣.

(١٠) انظر في ذلك: اللهجات العامية. لماذا والى اين. د.حسني محمود. مجلة اللسان العربي، العدد (٥)، الرباط ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص١٩.

وقد أستعمل اللحن عند العرب بمعنى الخطأ وترك الصواب اللغوي على مستوى الصوات والصرف والنحو ومعاني المفردات[١١]. وهذا اللحن قديم، وهو من مظاهر العامية التي سبقت شيوعه، وهو يعرض للغة في السنة الناس جميعاً، «وظهوره على السنة الصفوة المهذبة دليل على قدمه، وعلى تأثر هؤلاء بالالوان الدارجة العامة من اللغة»[١٢].

ويمكننا ببساطة أن نعدّ العاميات الشعبية في اللغة العربية تطوراً مستحدثاً تعرّبت فيه السنة العامة، وان اللغة العربية بصفتها لغة الحضارة كانت الاقوى تأثيراً والاوضح من سمات اللهجات المتطورة حتى ليمكن القول «إنّ هذه اللهجات المتطورة هي عبارة عن العربية على السنة اهل الاقطار المفتوحة، او أنّ هذه اللهجات العامية الدارجة هي لهجات محلية في (ثياب) اللغة الفصحى كما يدلّ الكثير من المفردات والتعبيرات والتراكيب احياناً[١٣].

وثانيها: إنّ اللهجات على اختلاف انواعها، ومسمياتها، لا تمتلك «حدوداً طبيعية» على حدّ تعبير (سوسور)[١٤]، بل أن هنالك تداخلًا في هذه الحدود، وهو شأن اللغات ايضاً بمعنى انّ الحدود اللهجية لا تنطبق على

---

(١١) انظر: المفردات في غريب القرآن. ص٤٤٩. وقد جاء فيه ما نصّه: «اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه اما بإزالة الاعراب، او التصحيف، وهو المزموم وذلك اكثر استعمالًا. وإما بإزالته عن التصريح وصرفه بمعناه الى تعريض وفحوى، وهو محمودٌ عند اكثر الادباء من حيث البلاغة...».

وانظر: البيان والتبيين ١/١٤٦.

ولحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة. د.عبد العزيز مطر، دار المعارف-مصر ١٩٨١.

(١٢) التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق. د.ابراهم السامرائي، بغداد ١٩٦٨، ص١٩٦٢.

(١٣) انظر: اللهجات العامية لماذا والى اين. ص٢٤.

والعربية ولهجاتها. د.عبد الرحمن ايوب، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٨، ص٢٥.

(١٤) علم اللغة العام. سوسور. تر.:د.يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية بغداد ١٩٨٥، ص٢٢٢.

وانظر علم اللغة العام. د.عبد الصبور شاهين، ص١٥١.

الحدود الطبيعية دائماً، وهذا الانفصال مما يألفه اللغوي بين حدود الدولة السياسية او الطبيعية، وبين حدود لهجتها او لغتها التي قد تزحف وراء الحدود، وقد اكّد (مابيه) حقيقة ما ذهب اليه سوسور وقرر «انّ اللهجات لا وحدة لها بالقدر الذي يبدو لاول وهلة، فالافراد المتكلمون في احدى القرى ولو كانت صغيرة تتنوع السنتهم غالباً تبعاً للسن، وللوضع الاجتماعي، وللاهتمامات... الخ. وليس كلّ المتعلمين من اصحاب القرى جميعاً متساوين في الولاء للعرف المحلي»[١٥].

ومن هنا فان المشكل الذي يبقى قائماً هو الحيرة بين مراعاة الفروق الفردية التي تنتهي بالدرس الى التعقيد، واهمال هذه الفروق الذي ينتهي الى عدم اعطاء الفكرة الصحيحة عن حالة اللهجة المعينة.

ومهما يكن من امر هذا المشكل فانا نرى أنّ (اللهجات) بانواعها، لا يمكن أن ترمي الى مصاف اللغة لانها بدون نظام قواعد، او ارومة لفظية اساسية تختص بها، كما هو شأن اللغة المشتركة التي تفرض نفسها على جميع الافراد في المجموعة الاجتماعية الناطقة، باعتبارها المستوى اللغوي الحضاري الاعم لتلك المجموعة. واذا كنا نألف في اللهجات نوعاً من النظام او القيود التي يراعيها الناطقون بتلك اللهجة عند تواصلهم، او نجد الفاظاً اساسية فيها، فانما ذلك في شكله العام استعارة من اللغة المشتركة في دائرة ضيقة خاصة بفئة اجتماعية معينة. ومن هنا لا يمكن لتلك اللهجة او تلك أن تسود المجتمع، ومن هنا ايضاً نجد من غير المقبول أن تسمى اية لهجة (لغة).

وان امكانية حلول اللهجة المعينة محل اللغة الام، والاخيرة على (قيد) الحيا[ة] لا يعني سوى فقدان الأفق التاريخي للقائلين بهذا المبدأ، وهو في ذات الوقت هجر للموقف العلمي الصحيح الذي تقرره القوانين اللغوية. وليس للهجات سوى التمركز في اللغة الام، لان الاخيرة مقوم من مقومات الامة الواحدة ا

---

(١٥) علم اللغة العام. د.عبد الصبور شاهين، ص١٥٤.

الشعب الواحد، ووجود اللهجات لا يعني عدم وجود لغة مشتركة. وانما يثبت هذه الحقيقة ويؤكدّها.

فمع اختلاف النطق باللغة المشتركة، ومع قرب الناطقين او بعدهم عنها يوجد قدر مشترك فيا بين ابناء الامة الواحدة في الاصوات، وفي الصيغ وفي التراكيب هو الذي يعمل على ربطهم بتلك اللغة النموذجية، وعلى الذي يساعدهم -إن شاءوا- على الارتقاء بلهجاتهم ورطاناتهم العامية الى مصاف تلك اللغة، وتضييق الهوة -ما امكن- بين مستويات الخطاب داخل الامة او الشعب الواحد.

- المبحث الثاني -
(جهود اللغويين العرب في دراسة المستويات اللغوية)

يبدو للناظر المنصف في تراث اللغويين والمفكرين العرب القدماء في هذا المجال أنهم قد تعجلوا قطع مسافة التطور التي وصل اليها الدرس اللغوي الحديث في كثير من وجوهها، ولعل اغلب ما اهتم به علماء اللغة الاجتماعيون اليوم وتوصلوا اليه في نطاق دراستهم المستويات اللغوية قد الفينا لغوينا القدماء يهفون اليه محققين بذلك نوعاً من السبق الذي يمكن للباحث المتأني تشخيصه وجلاء معطياته النظرية والتطبيقية، بما يكون اساساً وطيداً وايجابياً الى ابعد درجة في انصاف اولئك القدماء الذين ابلوا بلاء حسناً في بناء صرح العلوم العربية، فاذا كان العلماء اللغويون الاجتماعيون يدعون اليوم الى معرفة الوظيفة اللغوية على وفق الفئات والطبقات التي تستعملها، ويقررون انّ اللغة تؤدي وظيفتها الاجتماعية على مشتويات متعددة، لِكل مستوى لغوي منها تأثيره المباشر في اختيار مفردات اللغة المستعملة، وتراكيبها، فهناك مستوى لغوي تذوقي فني جمالي خاص بأهل الادب والفن، وهناك مستوى لغوي نظري تجريدي تستعمل في العلوم، وهناك مستوى اجتماعي عادي يستعمل في الصحافة والاعلام، الى ما هنالك من مستويات تمثّل انواع التأدية اللغوية[1]، فما احسب احداً يجاري في أن اللغويين العرب القدماء قد دعوا الى ذلك قبل

(١) انظر. اللغة والحضارة، ص٣٥٨. اللغة والمجتمع. د.وافي ص١١. اللسان والانسان. ص١١-١٢.

مئات السنين، سواء أكان ذلك صريحاً واضحاً، أم كان تلميحاً اقتضاه مقام الحديث في امور الادب أو البلاغة، او النقد. واذا كنا لا نستطيع أن نحكم لحلّ ما قيل، وأن نلمّ به فهو كثير، لكنّا نستطيع أن نقف عند نماذج واشارات متواضعة لإقامة الدليل على صحة ما نقول.

فمن خلال الدراسة النحوية القديمة يمكن أن نلمح الجهد العظيم الذي عرض للغة الفصحى محاولاً بجهد لا يعرف الكل تصويرها في جميع مظاهرها، وبيئاتها، واشكالها، الاكثر، والكثير، والاقل، والنادر، والشاذ، الى ما هنالك من مستويات.

ومن خلال التأليف المعجمي، لا تعرف امة من الامم تفتت في اشكال معاجمها وترتيبها كما فعل العرب، وقد كانوا منطقيين، حين لاحظوا جانبي الكلمة، وهما اللفظ والمعنى، فالفوا معاجم ترتب على حسب الالفاظ، واخرى ترتب على حسب المعاني او الموضوعات، وجمعوا ما عرفته بعض القبائل من الفاظ وتعبيرات، وفروق بين الالفاظ، فألّفوا كتباً في موضوعات الحياة البدوية المختلفة[٢]، ووضعوا معجمات تهدف الى ترتيب المعان بطريقة خاصة، وذكر الالفاظ التي تقال للتعبير في كلّ معنى[٣]. ولم يقتصروا في معاجم الالفاظ على طريقة واحدة، وانما اتبعوا عدة طرق لا مجال لتفصيلها هنا، ولكنها في جملتها تشير الى نوع من الادراك الصائب من لدن المعجميين العرب القدماء يتحدد في معرفتهم ان العمل المعجمي ليس علاقة اسم معين بمسمّى او مفهوم معين، وانما هو رصد للغة في حركتها الاجتماعية بملاحظة تنوع استعمالات، وتعدد ابنيتها قياساً إلى وظيفتها، او الطبقة التي تستعملها، ومن هنا تعدّ المعاجم العربية رصيداً لا يستهان به من حيث الكم والنوع لبيان

(٢) مثال ذلك ما فعله الاصمعي (ت.٢١٣هـ) في وصفه كتباً في موضوعات الحياة العربية في عصره من نحو كتبه في: خلق الانسان، والابل، والخيل، والنبات، والشجر. وكذلك فعل ابو زيد (ت.٢١٤هـ). وغيرهما.

(٣) من ذلك كتاب الالفاظ لأبن السكيت. والالفاظ الكتابة للهمذاني.

المعاني والدلالات اللغويه القائمة على ميدان التجربة عند المتكلمين في المحيط الاجتماعي المعين، بما يساعد على بيان الميول والحاجات التي يتواخاها المتكلمون عند التعبير عن اغراضهم، والتي تستنبط اساساً من مجموع العلاقات الاجتماعية المعاشة، وكذلك بيان المفهوم الذي تفيده الكلمة المعينة في جميع سياقاتها واستعمالاتها؛ وانْ كان المعجم العربي لا يهتم كثيراً باصل الكلمة وتاريخها، ولهذا كلّه لا نعجب ان نجد عالماً لغوياً اوروبياً هو (هاي وود) (Hay Wood) يبهر بجهود المعجميين العرب فينطلق لسانه بهذه الشهادة التي يقول فيها: «الحقيقة أن العرب في مجال المعاجم يحتلّون مكان المركز، سواء في الزمان أو المكان، بالنسبة للعالم القديم والحديث، وبالنسبة للشرق والغرب»[٤].

وفي الوقت الذي نجد فيه أنّ المعجميين العرب قد حاولوا بيان اثر الاستعمال في حياة الكلمة، وتعيين دلالتها، وتحديد معناها[٥]، (على) وفق المجموعة الناطقة بها، وبيان قربها او بعدها من اللغة المشتركة بما عرف عنها من نظام في الاصوات والبنى والتراكيب، نجد من جانب آخر فريقاً من اللغويين يحاول يرصد عيوب المستويات اللغوية بالقياس الى مستوى اللغة المشتركة. فعلى الرغم من انّ العامية كانت معروفة في ايام العربية الاولى، ولا اريد بالعربية الاولى العصور التي سبقت الاسلام وظهور النبوة. فتلك حقب لا نعرف من امرها الشيء الواضح الذي يمكن ان يكون اساساً للبحث[٦]، وانّ العامية قد عرفت في ايام (الخليل بن احمد) واضرابه من اللغويين، فانّ البحث في تاريخ العربية يدلنا على الجهود التي بذلت كي تسود اللغة

(٤) اللغة العربية بين الموضوع والاداة. د.احمد مختار عمر. مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الثالث ١٩٨٤، ص١٤٢.

(٥) يعدّ جار الله الزمخشري في كتابه اساس البلاغة رائداً في هذا المجال.
انظر: مقدمة كتاب مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والادب والتراجم. د.عمر الدقاق مكتبة دار الشرق، بيروت. (المقدمة لامين الخولي).

(٦) انظر: دراسات في اللغة. د.السامرائي ص١٩٧.

الفصيحة، في وضوحها. والتزامها الاعراب، وبعد أن شرّفها الله لغة لكتابه الحكيم، ولتكون هذه اللغة لغة عامة يعرفها كلّ العرب لا اثر فيها (اللغات الخاصة) التي اعتاد كلّ طائفة منهم استعمالها والقراءة بها[٧].

وسواء استطاع اللغويون العرب من النجاح في مساعهم الرشيد. هذا ام لم ينجحوا فانّهم قد قدّموا حالة مرضية من البحث لا يمكن تجاوزها اليوم لانها تشكل جوهراً في الدرس اللغوي الاجتماعي يوليها اصحابه اهتماماً كبيراً.

فبين ايدينا عشرات من الكتب التي تعالج ظاهرة (اللحن) ومظاهره في اللغة، ويعدّ (الكسائي) ت.١٨٩ هـ) رائداً في هذا المجال، فهو اول من وضع كتاباً في اللحن ضمّنه مجموعة من المفردات التي شاعت في زمانه تناقض المأثور عن لغة فصحاء البادية[٨]، وكان سيبويه (ت ١٨٠ هـ) من قبله قد اشار الى بعض اسباب اللحن[٩]، وكان (ابن السكيت) (ت. ٢٤٤ هـ) قد وضع كتابه (اصلاح المنطق) ليعالج داءً قد استشرى في لغة العرب، محاولاً ضبط هذه اللغة، فساق لنا كثيراً ما يغلط فيه العامة على المستويات الصوتية والصرفية، او ما يضعونه في غير مواضعه[١٠].

وضمن (ثعلب) (ت.٢٩١ هـ) فصيحة الالفاظ الفصيحة التي يودّ تقديمها لمن اراد تعلم الفصحى في صورتها المأثورة البدوية القديمة.

واوقف (الجاحظ) في البيان والتبيين باباً بعنوان (ومن اللحانين البلغاء)[١١] (وابن جني) باباً في (سقطات العلماء)[١٢].

(٧) انظر: نفسه. ص٢٧.
(٨) حققه الاستاذ عبد العزيز الميميني. وطبع في القاهرة عام ١٣٤٤ هـ.
(٩) سيبويه. ٢/٤٢٦.
(١٠) انظر: اصلاح المنطق. لابن السكيت. شرح وتحقيق. احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون. دار المعارف. مصر ١٣٦٨ هـ-١٩٤٩ م. الجزء الثاني، ص ٢٥١ وما بعدها.
(١١) البيان والتبيين: ٢/٢٢٠.
(١٢) انظر: الخصائص. ٣/٢٨٢-٣٠٩.

واوقف (الزبيدي الاشبيلي) (ت.٣٧٩ هـ) كتابه في لحن عامة الاندلس في القرن الرابع. ووضع (ابن الجوزي) (ت. ٥٩٧ هـ) كتابه (تقويم اللسان)[١٣] ليتمثل خلاله اخطاء عامة اهل المشرق التي بُدأ بتسجيلها مع بداية القرن الثالث وظلت تنتقل على الالسنة حتى انتهت الى بغداد في القرن السادس معتمداً في ذلك على اكتساب اللحون السابقة.

ووضع (ابن مكي الصقلي) (ت. ٥٠١ هـ) كتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان) في لحن عامة وخاصة صقلية في القرن الخامس الهجري. ذكر فيه ابواباً كثيرة من نحو: «ما العامة فيه على الصواب والخاصة على الخطأ»[١٤] و«ما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر»[١٥] و«ما خالفت العامة فيه الخاصة وجميعهم على غلط»[١٦]، وكذلك ضمّن كتابه مجالاً رحباً لاخطاء المتخصصين وما جرى على السنتهم، ومن هؤلاء قراء القرآن، واهل الحديث، واهل الفقه والوثائق، وكتاب العقود، والبيع، والاجازة، وما اليها من العقود التي تسجّل المعاملات بين الناس، وكذلك اهل الطب ومصطلحاتهم، واسماء عقاقيرهم، وما يطلقونه من مسميّات على الامراض[١٧].

بما يجعل هذا الكتاب مصدراً اصيلاً للهجات والمستويات اللغوية التي سادت في صقلية بين طوائف المتعلمين، واصحاب المهن كالاطباء، واهل الفقه والحديث وكتاب الوثائق وغيرهم. مما يساعد على رسم صورة واضحة للمجتمع الصقلي بعامته وخاصته.

وتعدّ هذه الكتب التي ذكرناها وعشرات لم تذكرها[١٨]. خير مصدر

(١٣) حققه الدكتور عبد العزيز مطر وطبعته دار المعارف بمصر ١٩٦٦.
(١٤) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان. تحقيق. د.عبد العزيز مطر، القاهرة ١٣٨٦ هـ-١٩٦٦ م ص٢٤٢ وما بعدها.
(١٥) نفسه: ص٢٢٧ وما بعدها.
(١٦) نفسه: ص٢٣٨ وما بعدها.
(١٧) نفسه: ضف الباب الخامس والثلاثين ص٢٤٧ الى الباب الاربعين ص٢٧٤ وما بعدها.
(١٨) انظر فيها: لحن العامة والتطور اللغوي. ص١٦١-٢٧٤.

لمعرفة اللهجات الخاصة في بيئات الشرق والغرب العربيين، ويتبين من خلالها ايضاً موقف اللغويين العرب من هذه اللهجات.

واذا كنّا نجد اغلب اللغويين العرب الذين تحدّثوا عن اللهجات، واللحن الواقع على السنة العوام او الخواص[١٩]، قد اتّخذوا جانباً معيارياً غايته التنبيه على الخطأ من اجل ألّا يقع فيه المتكلمون وقصداً الى المحافظة على اللغة وصيانتها من التجريف واللحن. فانا نجد من جانب آخر فريقاً آخر قد حاول أن يترسم لنفسه منهجاً وصفياً غايته وصف ما هو كائن مما يتكلمه الناس بالفعل لا ما يجب أن يتكلموه دون التورط في مسائل الصواب أو الخطأ وذلك بلا ريب منهج يبحث عن الحقيقة لذاتها، وهو منهج علمي موضوعي لا يغفل المحافظة على اللغة ومراعاة سلامتها، «ولكنه ينظر اليها على أنها ظاهرة متطورة، وان ما قد ينظر اليه على أنه لحن أو تحريف ليس إلا صورة من صور التطور والتغير اللذين يلحقان باللغة على فترات الزمن»[٢٠].

ويعدّ (الجاحظ) من ابرز الباحثين العرب ممن سلكوا هذا السبيل، ويعدّ لهذا خير مصدر لمعرفة لهجات العامة والخاصة، ومستويات الكلام وما يناسبها من المستويات الاجتماعية، فلكلّ شخصية من شخصيات كتابه (البخلاء) مثلًا الفاظها وتعابيرها، ومنطقها، وصيغها المطابقة لما هي عليه في الحياة، فالمتكلم يتحدّث ويناقش بكلام المتكلمين والقاضي ترد على لسانه

= ولحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة. د.عبد العزيز مطر. ط٢، دار المعارف ـ مصر ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م. ص٥ وما بعدها.

(١٩) العامة في نظر الجاحظ العرب الذين لم يبلغوا منزلة الخاصة اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً، والخواص او الخاصة تتفاضل عنده في طبقات ايضاً قال في البيان ١/١٣٧: «اذا سمعتموني اذكر العوامّ فاني لستُ اعني الفلاحين والحَشوَة والصنّاع والباعة، ولست اعني ايضاً الاكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار... وانما الامم المذكورة من جميع الناس اربع: العرب، وفارس، والهند، والروم. والباقون همج واشباه الهمج. واما العوام من اهل ملّتنا ودعوتنا ولغتنا واخلاقنا فالطبقة التي عقولها واخلاقها فوق تلك الامم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منّا. على أن الخاصة تتفاضل في طبقات ايضاً».

(٢٠) دراسات في علم اللغة. د. كمال محمد بشر. دار المعارف. مصر ١٩٧٣، ص٥٠.

التعبيرات الفقهية، والتاجر يستعمل الالفاظ المتداولة في السوق، والمكدّي يستعمل الالفاظ التي يستعملها المكدّون، واللصوص يستعملون تعابير اللصوص. فعنده إنّ كلام الناس طبقات كما أنّ الناس أنفسهم طبقات، يقول: «وكلام النّاس في طبقات كما أنّ الناس انقسم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن، والقبيح والسَّمج، والخفيف والثقيل؛ وكلّه عربيّ، وبكلٍّ قد تكلّموا، وبكلٍّ قد تمادحوا وتعايبوا»[٢١]. ولكل شخصية او جماعة يعرض لها الجاحظ في البخلاء او في غيره من آثاره الخالدة لغتها واطارها المكاني والزماني المحددين، ولها مع ذلك الوانها المميزة لنماذجها، وشخصياتها، بما يجعلها تعكس الحياة بكامل معانيها ومظاهرها، وهذه الالوان تقوم على جانبين اساسيين.

اولها: جانب وصفي نلمسه في اسهاب (الجاحظ) في التفاصيل تصويراً وتعداداً فهو يصور الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها وملامحها من عادات وتقاليد، وينتقل الى وصف مسهب للآلات والادوات المادية، وتسميات الاطعمة واصنافها واوصافها في عصره الى ما هنالك من مظاهر الحياة.

وثانيهما: جانب تعبيري يقوم على ملاحظة دقيقة لكلام الناس، وما يصاحب هذا الكلام من عادات وظواهر فطن (الجاحظ) اليها وأولاها نصيباً من عنايته كما سنرى.

وحسبنا ان نعرف أنّ (الجاحظ) قد اشار الى (لغة الاطفال)، وما تتصف به من الفاظ معينة يطلقها الاطفال على مسميات معينة، فالطفل يرمز للكلب مثلًا بلفظ (واوا و) كما يرمز للشاة بلفظ (ماه)، قال: «والصبيان هم الذين يسمّون الشاة: ماه، كانهم سموها بالذي سمعوه منها حين جهلوا اسمها. و «قيل لصبي يلعب على بابهم: من ابوك يا غلام؟ وكان اسم ابيه كلباً، فقال: وَوْوَوْ»[٢٢].

(٢١) البيان والتبيين. ١/١٤٤.

(٢٢) الحيوان. ٥/٢٨٨. وانظر البيان والتبيين. ١/٦٢-٦٤.

وساق (الجاحظ) كثيراً من استعمالات ولهجات الطبقات الدنيا في ايامه، فقد عرض لشعر المتكسبين المتسولين[٢٣]، وتحدّث عن لغة الجواري والكواعب والشواب[٢٤] والساكون واخبارهم[٢٥]، وكتب عن الحياة الخاصة لطائفة اللصوص في كتاب سماه (كتاب اللصوص)[٢٦].

وإذا كان من ابرز ما يدرسه علم اللغة الاجتماعي هو مدى ما تحمله اللغة من طوابع الحياة التي يحياها المتكلمون، واثر هذه الحياة في وسم اللغة بسمات خاصة من حيث المفردات والاساليب، فانّا نرى (الجاحظ) كثيرا ما يعرض لمثل هذه الظواهر محاولًا بيان ما تحمله اللغة من الحياة التي يعيشها مستعملوه هذه اللغة، ولعل ابرز دليل على ذلك ما ساقه (الجاحظ في بعض (رسائله) عارضاً جماعة من اصحاب الحرف الذين «ادخلت الحرفة الضيم على لغتهم» يسألهم عن معركة دارت في بلاد الروم بعد أن قدم (المعتصم)، فيصفها كلّ واحد باسلوبه الذي يأخذ مادته اللفظية من مادة حرفته، ثم يذكر عدة ابيات في الغزل، والجاحظ يؤكّد مهنة كلّ واحد من هؤلاء، ويذكرها ليشير الى اثر ذلك في اصناف كلامهم، وهم. طبيب، وخياط، وزراع، ومؤدب وصاحب حمّام، وكنّاس، وطباخ، وفرّاش، وخباز. ومن المفيد أن ننظر في طرف من حديث (الجاحظ) اذ يقول: «فخص يا امير المؤمنن اولادك بان يتعلموا من كلّ الادب. فانك إن افردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه، وذلك اني لقيت (حزاماً) حين قدم امير المؤمنين من بلاد الروم، فسألته عن الحرب، كيف كانت؟ فقال: لقيناهم في مقدار (صحن الاصطبل) فما كان إلا بمقدار ما (يحس) الرجل دابته حتى تركناهم في اضيق من (ممرغة) فقتلناهم، وجعلناهم كانهم (انابير سرجين) فلو طرحت (روثه) ما سقطت

(٢٣) البيان والتبيين: ٢/١٣.
(٢٤) الكواعب: النواهد. والشواب. جمع شابة. انظر البيان والتبيين. ١/١٤٦.
(٢٥) الحيوان: ٦/١٩.
(٢٦) دراسات في اللغة. د. السامرائي، ص١٦٣. وانظر: الحيوان: ٢/٣٦٦، ٤/٤٩١-٤٩٢.

إلا على ذنب دابة. وعمل ابياتاً في الغزل فكانت:

إن يهدم الصبر من جسمي (معالفه)
فإن قلبي (بِقَتّ الوجد) معمور
اني امرؤ في وثاق الحب يكبحه
(لجام هجر) على الاسقام معذورُ
لبستُ بُرقع هجر بعد ذلك في
(اصطبلُ حبٍّ) (فروث) الحب منثورُ

قال: وسألت (بختيشوع) الطبيب عن مثل ذلك، فقال: لقيناهم في مقدار صحن (البيمارستان) فما كان إلا بمقدار ما يختلف الرجل مقعدين حتى تركناهم في اضيق من (محقنة)، فقتلناهم، فلو طرحت (مبضعاً) ما سقط إلا على (اكحل) رجل....

قال: وسألت (جعفر الخياط) عن مثل ذلك فقال: لقيناهم في مقدار (سوق الخلقان) فما كان إلا بمقدار ما (يخيط) الرجل (درزاً) او (درزين) حتى تركناهم في اضيق من (جُرُبّان) فقتلناهم، فلو طرحت (ابرة) ما سقطت إلا على رأس رجل... وسألت (ابراهيم بن اسحق) عن مثل ذلك وكان ذراعاً فقال: لقيناهم في مقدار (جربين) من الارض، فما كان إلا بمقدار ما (يسقي) الرجل من (ساقية) حتى تركناهم في اضيق من باب، وكأنهم (انابير سنبل) فقتلناهم فلو طرح (فدان) ما سقط إلا على ظهر (ثور)... قال وسألت (فرجاً الرُّخجي)، عن مثل ذلك ـ وكان خبازاً ـ فقال: لقيناهم في مقدار (بيت التنور) فما كان إلا بمقدار ما يخبز الرجل خمسة (ارغفة) حتى تركناهم في اضيق من (حجز تنور)، فقتلناهم، فلو سقطت (جرة) ما وقعت إلا على (جفنة) خباز..»[٢٧].

وهكذا تجد المؤدب وقد ضمّن حديثه كلمات من نحو: الكتاب، والقراءة،

(٢٧) رسائل الجاحظ. (من رسالته في صناعة القوّاد) ص ٢٦١ وما بعدها.

والدواة، وصاحب الحمام ترد على لسانه كلمات من نحو: يغسل، الاتون، ليفه. وترد على لسان الخمار كلمات من نحو: صحن الشراب، الدن، سكران وغير ذلك مما يوضح ويحدد مع أية بنية اجتماعية معينة تتفق بنية لغوية معينة ويحدد ايضاً كيف تتمثل تغيرات البنية الاجتماعية بطريقة عامة في تغيرات في البنية اللغوية، مما اهتم به اليوم علماء اللغة الاجتماعيون كلّ اهتمام وحرصوا على تقديم الامثلة العديدة على اثبات وجود علاقة بين البنية الاجتماعية والبنية اللغوية، وسواء أكانت هذه الامثلة قاصرة او متعسفة، او لم تؤدِ اليها مقدمات علمية يقينية، أم انها فاعلة في ابراز تلك العلاقة فانّ هذا الضرب من الدرس اللغوي لا يزال اليوم في اوائله «وهو بطبيعته محوج الى فضل استقصاء، وزيادة احتراز، وإنّ النتائج التي توصّل اليها قليلة قلة بالغة»[28] ومن هنا يبدو لنا خطورة ما ألمح اليه (الجاحظ) في هذا المجال قبل مئات السنين مما يشير الى فهمه البيّن الى أنّ المستويات المهنية التي يزاولها المتكلمون تمثل الواناً من العلاقات بين اللغة والمجتمع، فالغالب إنّ الكلام الذي يستعمله اصحاب المهن، بما فيه من الفاظ وتراكيب وامثال، بل بما فيه من طريقة نطق الكلمات دال على عمل صاحبه وعلى طبقته الاجتماعية، وان اختلفت نسبة الدلالة باختلاف الافراد والظروف والعصور، ومن واجب اللغوي الاجتماعي اليوم أن يربط الكلام بمستواه الاجتماعي، ويدلل على اسباب هذا الارتباط واوجهه.

ويحاول (الجاحظ) أنْ يستعيد البيئة العامية بملحها، وظرفها وتقاليدها، فيروي ما يثير الضحك والمرح من لهجات اولئك العامة[29].

وقد اكدّ (الجاحظ) ضرورة ألّا نكلّم الآخرين إلا بما يفهمونه، وبما دأبوا على استعماله في تواصلهم، فانّ التواصل السليم ما يتمّ بواسطة ما هو شائع

(٢٨) اللغة والمجتمع. د. السعران، ص ٤٠.

(٢٩) انظر: البيان والتبيين. ١/٧٣ وما بعدها.

في عرف الجماعة الناطقة، بغضّ النظر عن صحته قياساً الى النظام اللغوي العام المقرر في اللغة المعينة، ولقوم، او امة معينة، ولعل هذا المبدأ فيه ما يضارع مبدأ (الشيوع اللغوي) الذي نادى به بعض روّاد المدرسة اللغوية الامريكية[30]، ولهذا اجاز (الجاحظ) لنفسه رواية اللحن والخطأ في النادرة اذا كانا في كلام قائلها، مراعياً بذلك حال المتكلم، ومناسبة الكلام. يقول في مقدمة (البخلاء): «وانْ وجدتم في هذا الكتاب لحناً، او كلاماً غير معرب، ولفظاً معدولا عن جهته، فاعلموا انّا تركنا ذلك لانّ الاعراب في هذا الباب يخرجه من حدّه من ان احكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء، واشحاء العلماء كسهل بن هارون واشباهه». ويقول: «ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الاعراب، فإيّاك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فانك إن غيّرتها بأن تلحن في اعرابها، وأخرجتها مخارج كلام المولّدين والبلديّين، خرجتَ من تلك الحكاية، وعليك فضلٌ كبير، وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، ومُلحة من مُلح الحشوة والطغام، فاياك أنْ تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظاً حسناً، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سَرِيًّا، فإنّ ذلك يفسد الامتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويُذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها»[31].

والى مثل هذا اشار (عبد الرحمن بن علي) المعروف بـ(ابن الجوزي) (ت. ٥٩٧ هـ) بقوله: «حلفت ألّا اكلّم عاميًّا إلّا بما يوافقه ويشبه كلامه، ووقفت على نجار فقلت له: بكم هذا البابان؟ فقال: بسلمتان يا مصقعان. فحلفت ألّا أكلّم عامياً إلا بما يصلح»[32].

وقد اوقف الامام اللغوي الخوارزمي (ت. ٣٨٢ هـ) جلّ كتابه المرسوم بـ(مفاتيح العلوم) على ذكر المصطلحات والالفاظ المتداولة عند كلّ طبقة

(٣٠) انظر: الفصل الاول. المبحث الثاني، هامش رقم ١٣٤.

(٣١) البيان والتبيين: ١/١٤٥-١٤٦.

(٣٢) اخبار الظراف والمتماجنين. ابن الجوزي، دمشق ١٩٢٨، ص ٧٧.

من العلماء واصحاب الحرف والصناعات الخاصة بعلومهم وصناعاتهم، والشائعة على السنتهم، فهناك ما يتواضع عليه كتاب الرسائل والمؤرخون، وارباب الآراء والمذاهب، والاطباء والمنجمون، والموسيقيون، وهناك ما يتواضع عليه العاملون في ديوان البريد، أو ديوان الخراج، او ديوان الجيش، وهناك ما يستعملُ من الفاظ في دواوين الضياع والنفقات والماء. فكلٌّ له الفاظه الشائعة في كلامه دون سواه[٣٣]، بما يجعل (مفاتيح العلوم) مدخلًا ومفتاحاً الى معرفة علوم كثيرة؛ زيادة على ذلك نبّه (الخوارزمي) على دلالة اللفظ المعين عند الطبقة الاجتماعية المعينة، مثال ذلك لفظة (الرّجعة) فانّها عند (اصحاب اللغة) (المرّة الواحدة من الرجوع) لا يكاد يعرفون غيرها. وهي عند (الفقهاء) (الرجوع في الطلاق) الذي ليس ببائن. وعند (المتكلين) ما يزعمه بعض (الشيعة) من (رجوع الامام) بعد موته او غيبته. وعند (الكتاب) (حساب) يرفعه المعطي في العسكر لطمع واحد. وعند (المنجمين) (سير الكواكب) من الخمسة المتحيرة على خلاف نضد البروج[٣٤]. وغير ذلك مما يفيد ما يسمّى (بتخصيص الدلالة) وتضييقها الى ابعد الحدود مما تكون فيه هذه الدلالة كالدلالة في الاعلام واسماء الاشخاص، وهذا ما يؤثره الناس في حياتهم العامة اذ ينفرون عادة من تلك الكليات التي لا وجود لها إلا في الاذهان ويستعملون الدلالات الخاص التي تعيش معهم فيرونها ويسمعونها، ويلمسونها، ولذا يسهل عليهم تداولها والتعامل بها في حياة العملية تلك الحياة التي يكثر فيها ما يتعاملون به ويلمسونه ويحسونه، وهم لقصور في الذهن حيناً، او بسبب الكسل والتماس ايسر السبل حيناً آخر، يعمدون الى بعض الدلالات العامة فيضيقون دائرتها ويستعملونها استعمالًا خاصاً، وقد لا يتردد الفرد في بيئة معينة وفي زمان معين أنْ يضع لفظاً جديدً دالًا على حاجة

---

(٣٣) انظر على سبيل المثال. مفاتيح العلوم. المقالة الاولى. الباب الرابع، ص٣٦ـ٥١. والمقالة الثانية. الباب الثالث، ص٩٢ـ١٠٧.

(٣٤) نفسه. ص٣.

جديدة في محيطه العملي، قد يقدّر لها الاستعمال من لدن الآخرين أن تشيع بينهم وتذيع، حتى تصبح وقفاً على تلك الجماعة دون غيرها.

إن تطور اللفظ في دلالته من العموم الى الخصوص هو الذي يصيب كثيراً من الفاظ اللغات في العالم[٣٥].

ومما يلاحظ في كتاب (الف ليلة وليلة) إنّ صاحب الحكايات أو كل اصحاب الحكايات على علم بدقائق اللغة والاسلوب، وإنهم يعيرون كلّ طبقة من الناس لغتها الخاصة فكلام الامير، او الوزير، أو من على شاكلتهم الخاصة فصيح رفيع تسير فيه الجملة في نظام مرتب مقصود، يجعل منها لغة خاصة ليست لغة التخاطب، كما إنّ الحوار في هذه الحكايات يميل الى الاسلوب العامي، وكأنّ كاتب الحكاية يريد في ذلك أن ينقل الحكاية كما تدور على السنة شخوصها ولا سيّما اذا كانوا من الطبقة العامية[٣٦].

ولما كانت الامثال قسمات واضحة بينة لوجه الامة التي صدرت عنها، ووصف ضمني لوسائل حياتها، وطرق معيشتها، وهي زيادة على ذلك تكشف القناع عن نفسية الشعوب، وترفع الحجب عن طبائع الامم، فترى النفس البشرية في صفاتها، وفطرتها الاولى، فانا نجد في كتاب (ابي منصور الثعالبي) (ت.٤٠٩ هـ) الموسوم بـ(التمثيل والمحاضرة)[٣٧]. مجاميع من الامثال في ازمنة وامكنة مختلفة، فمنها ما هو اسلامي جاهلي، وعربي عجمي، وملوكي سوقي، وخاصيّ عاميّ، وامثال القضاة والعدول والسّؤال والمكدون والشطرنجيون، والنبيذيون، والمغنون والعشاق، والنساء، والصبيان، والعبيد، والخدم، والاماء، واللصوص ونجد ايضاً نثراً ما يجري مجرى هذه الامثال من الفاظهم، وما يأخذ مأخذها من فرائد النثر، وقلائد النظم، وفوائد الجدّ،

---

(٣٥) انظر: تفاصيل ذلك في: دلالة الالفاظ، ص١٥٢ وما بعدها.

(٣٦) التطور اللغوي التاريخي. د. ابراهيم السامرائي، مصر ١٩٦٦، ص١٥٨.

(٣٧) حققه. الاستاذ عبد الفتاح الحلو، القاهرة ١٣٨١ هـ ــ ١٩٦١ م.

ونوادر الهزل، ويوجد في هذا الاثر العربي ايضاً ما يتمثّل به من القرآن، والتوراة، والانجيل، والزبور، وجوامع الكلم النبوي الشريف، وكلام الانبياء عليهم الصلاة والسلام، وكلام الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وعيون امثال العرب والعجم، وما يناسبها وما يشاكلها من نتف الخلفاء، وفِقر الملوك والوزراء، ونكث الزهاد والحكماء، وغيرهم، وما تختص به كلّ طبقة من هؤلاء وما ينفرد به كلّ فرقة من التجار، وسائر اهل الصناعات المتباينة الاقدار.

مما يشير ذلك كلّه الى الفوارق اللغوية بين الطبقات الاجتماعية، وامتلاك الافراد رصيداً لغوياً معيناً يتباين بتباين انتماءاتهم الاجتماعية والمهنية. ومستوياتهم الثقافية، مما يساعد على تصنيف الافراد حسب ملكاتهم اللغوية تبعاً للعوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية التي تميز مجموعة ناطقة عن مجموعة ناطقة اخرى.

ويقوم الوصف اللساني للدلالات اللغوية اليوم على ميدان التجربة عند المتكلمين في المحيط الاجتماعي المعين، ويلاحظ في هذا المجال ان في سلوك المتكلمين (مراكز اهتمام) معينة بالفاظ معينة تستنبط من مجموعة العلاقات بالحياة المعاشة، ومركز الاهتمام هذا يرتبط بالاختيار الذي يتوخاه المتكلمون ولذلك يختلف من مجموعة الى اخرى، فكل حاجة اجتماعية مهما كانت ضيقة يقابلها ردّ فعل في الرصيد اللغوي، بما يعمل على تجلّي بعض الالفاظ وتحيّرها للتعبير بها عن دلالات خاصة بتلك الحاجة، فكلمات من نحو (نقابة) أو (جوع) أو (كفاح) توكّد كلّ منها (طبقية) اجتماعية معينة، بما يجعل هناك اختلافاً بين سياقات الكلام من لغة الى اخرى، ومن استعمال اجتماعي الى آخر، ولا يمكن لهذا السبب أن تعمّ ما تفيده كلمة معينة عند مجموعة معينة على ما قد تفيده في مجموعة اخرى.

ـ المبحث الثالث ـ

(نظرية السياق او الاشارة اللغوية والموقف الكلامي)

تخضع الكلمة فيما تخضع الى بعدين اساسين يمكن في ضوئهما مجتمعين او منفردين تحديد دلالتها، اول هذين البعدين بُعد واقعي، واعني به المحيط الاخباري الذي تستعمل فيه الكلمات، وثانيهما بُعد (سياقي)، حيث ترد فيه الكلمات وقد ارتبط بتركيب أو موقف معينين. معنى ذلك أنّ دلالة الكلمة دلالة مزدوجة؛ اجتماعية ونظرية تتجاوز الاعتباطية، فهي في جدل دائم قائم بين النظام الاجتماعي والنظام الاخباري.

وما دامت اللغة «نظام من العلاقات أو الدلائل اللغوية Signe Linguistique»[1] تعمل كما تعمل الآلة التي بواسطتها يتناقل الناس الخبر عن الاشياء، أو «انها ليست إلا نظاماً من القيم والعناصر المعتمد بعضها على بعض، تنتج قيمة كلّ عنصر من وجود العناصر الاخرى في وقت واحد»[2]، اقول ما دام الامر كذلك فان فهمنا لوظيفة اللغة من حيث انها (آلة) يتطلب امرين معاً.

اولهما: توكيد اهمية (الموقف الكلامي) او (المقام) او (السياق) الذي تباشر فيه اللغة عملها.

---

(١) البنائية في اللسانيات. ص١٨.

(٢) علم اللغة العام. سوسور. ص١٣٤.

وثانيها: النظر الى العوامل الرئيسة التي ينتظمها هذا الموقف، وهي (المتكلم) أو (الباث) و(المستمع) او (المستقبل)، والاشياء.

وتقوم الإشارة اللغوية على التواؤم وهذه العوامل، فهناك اشارة لغوية متوائمة والمتكلم، ومتوائمة والمستمع، ومتوائمة وعناصر الموقف الكلامي بكل ابعاده، واوضاعه وظروفه، وسياقه المتعلق بلكَ ما قيل أو ما سيقال وغير ذلك [٣]. وقد اشتهر ما اصطلح عليه بـ(سياق الحال) لدى (مالينوفسكي) و(فيرث) وسياق الحال هذا يقوم عند هذين العالمين وعند غيرهما على تحليل اللغة في ضوء رصد علاقاتها بالسمات والمتغيرات الذي تجري فيه، و(سياق الحال) يعني فيما يعني: جملة العناصر المكوّنة للموقف الكلامي او (الحال الكلامية) ومن هذه العناصر المكونّة للحال الكلامية نذكر [٤].

اولاً: شخصية المتكلم او السامع، وتكوينها الثقافي، وانتائها الاجتماعي او المهني وشخصيات من يشهد الكلام من غير المتكلم والسامع -إن وجدوا- وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم أيقتصر على الشهود أم يشاركون من آن الى آخر بالكلام، والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم.

ثانياً: موضوع الخطاب، او ما يدور حوله الكلام.

ثالثاً: هدف النص الكلامي وغايته المتوخاة في المشتركين في الكلام، كالاقناع او الاغراء او السخرية، أو الالم، او النقد... الخ.

رابعاً: العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة، والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، كحالة الجو، -إن كان لها دخل- والوضع السياسي، ومكان الكلام، وجنس المتحدثين، وكل ما يطرأ اثناء الكلام ممن

---

(٣) انظر تفاصيل ذلك في: البنائية في اللسانيات. ص٤٨ وما بعدها.

(٤) في تحليل الخطاب. د. رضا السويسي ندوة اللسانيات الثالثة، تونس ١٩٨٥، ص٣.
وعلم اللغة. د. السعران. دار المعارف، مصر ١٩٦٣، ص٣٣٩.
والاعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية. د. نهاد الموسى، ص٥.

يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكلّ ما يتعلق بالموقف الكلامي أيّاً كانت درجة تعلّقه.

خامساً: موقع الكلمات من التركيب اللغوي، ومستوى ذلك التركيب من حيث قربه او بعده من القواعد المقررة في النظام اللغوي المعين.

وهكذا يتضح أنّ من اهم خصائص (سياق الحال) ابراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلم وسائر المشتركين في الموقف الكلامي، وبيان اهمية موقع الكلمات من المسلسلة اللغوية المعينة.

ومن دون هذه العناصر المكونة للحال الكلامية لا يستقيم الرمز اللغوي ولا يتم التواصل الصحيح الناقل للافكار والمعبّر عن الحاجات «سواء اختلف المتكلم ام المستمع ام عناصر الموقف واحواله، لان هذه العناصر المتوائمة هي الوظائف الاساسية للغة عند المتحدثين» [٥].

وهذا ما يؤكّد أن ثمة اطار اجتماعي تستعمل ضمنه اللغة فتتأثر بمعطياته، وتتكيف عناصره وهي كما ذكرنا: «عنصر بشري في موقف لغوي ما، وعنصر موضوعي، يعمل على تحديد نوع الكلمات المستعملة، وعنصر هادف تحدث من اجله العملية اللغوية» [٦]. ومثلما دعا اللغويون الاجتماعيون الى دراسة اثر النشاط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي وغير ذلك من مظاهر الحياة الانسانية على الاسلوب اللغوي كما بيّنا فيما مضى، فانّهم من جهة ثانية قد دعوا الى دراسة اثر الموقف الكلامي المعين، ومناسبته، وظروفه في الاستعمال اللغوي، ويقتضي ذلك ملاحظة الكلمات والتعابير التي يستعملها

---

(٥) Paul Garvin. The Prague School of Linguistics, in Linguistics, edited by Hill A.A. 1969. p. 261 – 262.
وانظر: الاعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية. ص٣.

(٦) انظر: Personality and Language in Society in Papers in Linguistics. 1934 – 1951. by: J.R. Firth.
London Oxford University. 1959 p. 119 – 158.

المتكلم في مواقف الفرح، او الحزن او الاستقبال والتوديع او في مواقف تعليمية، او ادبية، او سياسية، أو دينية، وغير ذلك من المواقف[٧]. ورصد اثر المستمع في تحديد الخصائص اللغوية، كأن يكون من جنس النساء أو المثقفين كي يتحاشى المتكلم نوعاً معيناً من الكلمات، أو كأنْ يكون المستمع طفلًا يحدّثه احد والديه في حديث قد لا يستخدم المتحدّث الفاظه او اسلوبه في مخاطبة الجيران، أو غيرهم.

وزيادة على ذلك فانّ المرافقة القانونية الموجهة الى القضاة مثلًا تختلف عن الخطبة الدينية، وتختلف عن الحوار الذي يقوم بين المحامي وموكله، ككلّ منها يفترض اشكالًا لغوية معينة، فالانسان انّما يتخاطب مع غيره ضمن مواقف اجتماعية، وانشطة انسانية متعددة تحدد شكل الاسلوب اللغوي الذي يعتمده المتكلم، ونوعية الكلمات التي يختارها. فالخطاب السياسي بحكم قصده التأثير على ا لمخاطبين لا بُدّ له من اعداد وتصوّر في ذهن المتكلم قبل القائه، ومثل ذلك الخطاب الادبي الذي يقتضي استعمال وسائل لغوية معينة. اما الخطاب التعليمي فهو متارجح بين التلقين والتواصل اللساني، اذ يعمد صاحبه الى تحقيق التواصل بينه وبين طلابه بتوفير بعض المعطيات اللغوية والنفسية والتربوية لتحقيق التفاهم والاقتناع، والادراك الجزئي أو الكلّي لخطابه من لدن المستمعين.

في حين نجد ان الخطاب اليومي الآني هو وحده الذي تتضح فيه ظاهرة التلقائية. ومن هنا فقد عكف كثير من اللغويين الاجتماعيين على وضع منهجية تستجيب للمعايير العلمية قصد تحليل الخطاب من جهة نظر لسانية اجتماعية، «ولعل اول من اهتدى الى وضع معالم هذا الطريق هو (لابوف) (Labove) في كتابه (علم اللسانيات الاجتماعية» وثمة دراسات في هذا الصدد ايضاً قدّمها (البرت) (Albert) و(فريك) (Frake) و(سانكوف) (Sankoll) وغيرهم[٨]

(٧) انظر: اللغة العربية في اطارها الاجتماعي. ص٦٣ وما بعدها.
(٨) تحليل الخطاب. ص٤. والاثنوميثودولوجيا ص١٥٧.

وتبرز في هذا المجال مبادئ اساسية لا مناص منها في تحليل الخطاب، فلا بُدّ أن يتساءل من يتصدّى الى ذلك عن:

هوية المخاطب، وموضوع خطابه، وكيفية افراز الموضوع في الخطاب، وظروف فهم السامع وتأويله، ودخل هذه الظروف في علاقة الخطاب باللغة، وكيفية انعكاس العناصر غير اللغوية في التنظيم اللغوي لعناصر الخطاب، وغير ذلك مما يؤكّد دور الفرد متكلماً او مستمعاً في العملية اللغوية، فاللغة مجال لابراز امكانات الفرد اللغوية، وذلك بحكم الادوار التي يؤديها على مسرح الحياة الاجتماعية، بما يحتّم عليه استعمال لغة معينة او طريقة معينة لكل دور، فما يستعمله وهو يؤدي دور الابوّة من الفاظ واساليب لغوية، غير التي يستعملها وهو يؤدي دور الزوج او العضو في النادي، او الموظف المرؤوس، او الرئيس، أو المصلي في احد المساجد، او ذي النشاط السياسي المعين، أو البائع او الشاري، او لاعب الشطرنج، او الذي يستحيل الناس للقيام بعمل اجتماعي معين. كلّ اولئك ادوار ذات تخصص فيما يستعمل من لغة، وتتأثر اللغة بشخصية الفرد في كل دور من هذه الادوار، فالذي يستشهد بآية من آيات الذكر الحكيم في خطبة سياسية يقرأ تلك الآية بطريقة غير الطريقة التي يقرؤها للتعبد، فللآية الواحدة من آيات القرآن الكريم استعمالات مختلفة يتطلب كلّ منها طريقة اداء خاصة، لان شخصية الخطيب غير شخصية المتعبد، او المقرئ، ولكل منهم مقامه الخاص الذي يباشر فيه اللغة.

وعلى الرغم من انّ اللغويين العرب قد تحدّثوا في الغالب عن «حالات لا عن شخصيات، والكلام عن الحالات انكار واضح للعنصر الاجتماعي الذي يعترف بالتطور لا بالحالة الثابتة»[٩]، إلا اننا نلحظ بوضوح تفطنهم الدقيق إلى (نظرية السياق) او ما يطلقون عليه (مقتضى الحال) او (المقام)، بما يتفق في كثير من اوجهه ومعطياته مع ملاحظات وآراء اللسانيين الاجتماعيين

(٩) اللغة بين المعيارية والوصفية. ص٨٦-٨٧.

المعاصرين. فمن الكتب العربية الاولى التي حاولت أن تبين اثر السياق في تحديد الدلالة وتوضيحها مع بيان اثر اختلاف الموقع في اختلاف المعنى هو كتاب «الاشباه والنظائر في القرآن الكريم» (لمقاتل بن سليمان): اللغوي المفسّر، (ت. ١٥٠ هـ)(١٠).

ويمكن أن نستخلص من بعض ما كتبه (الجاحظ) مجموعة من الحقائق العلمية التي تتعلق بموضوع مناسبة اللغة للمقام على نحو يشبه فكرة (سياق الموقف) Context of Situtation التي اوردها المعاصر (برونسلاف مالينوفسكي)، فمداد الامر عند الجاحظ أنّ «لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع م ن الاسماء، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والافصاح في موضع الاوضاع»(١٠آ) وانه يجب على راي الجاحظ «افهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على اقدار منازلهم»(١١) «فالوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات» وعليه لا يجوز أن يكلّم الخطيب البليغ «سيد الأمّة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السُّوقة»(١٢).

وأنت «اذا اعطيت كلّ مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وارضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو»(١٣) ويقرر الجاحظ بعد هذا حقيقة لغوية علمية اخرى تؤكد حتمية العلاقة بين الموقف المعين او الموضوع، وبين اللغة المستعملة، من اجل الوصول الى الغرض الحقيقي الذي يقام على اساسه التواصل وما يرافق هذا التواصل

(١٠) ظاهرة المشترك اللفظي ومشكلة غموض الدلالة. د. احمد نصيف الجنابي. فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي، جـ ٤، المجلد ٣٥. ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤ م. ص ٣٧٧.

(١٠آ) الحيوان: ٣/٧١.

(١١) البيان والتبين. ١/٩٣.

(١٢) نفسه: ١/١٤٤.

(١٣) نفسه: ١/١١٦.

من ملابسات الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها مما يُشبع الكلام بالكثير من المعاني والدلالات التي تخلعها على اللغة تلك الملابسات والظروف. يقول (الجاحظ): «ينبغي للمتكلم أن يعرف اقدار المعاني، ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين، وبين اقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسمُ اقدار الكلام على اقدار المعاني، ويقسم اقدار المعاني على اقدار المقامات، واقدار المستمعين على اقدار الحالات. فان كان الخطيب متكلّمًا تجنّب الفاظ المتكلمين، كما أنّه إنْ عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً او مجيباً أو سائلًا، كان أولى الالفاظ به الفاظ المتكلمين، اذا كانوا لتلك العبارات افهم، والى تلك الالفاظ اميل، واليها أحنّ وبها اشغف، ولانّ كبار المتكلمين ورؤساء النظّارين كانوا فوق اكثر الخطباء، وابلغ من كثير من البلغاء. وهم تخيّروا تلك الالفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفاً لكلّ خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا: العَرَض، والجوهر، وأيْس وليس، وفرّقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهذبّة والهويّة والماهية، واشباه ذلك»(١٤).

ويسعى (الجاحظ) ايضاً الى تأكيد حقيقة اخرى من حقائق الدرس اللغوي الاجتماعي حين يُزيد في ايضاح العلاقة بين اللغة والمقام الذي تستعمل فيه آخذاً بالاعتبار كلّ العوامل التي تحكم العملية اللغوية، وهي عوامل متداخلة ومعقدة الى حدّ بعيد. فالمعنى عند (الجاحظ) «ليس يشرف أن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضعُ بان يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشَّرف على الصواب، واحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصيّ. فان امكنك أنْ تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مَداخلك، واقتدارك على نفسك،

(١٤) نفسه: ١/١٣٩. والنسبة الى: هذا، وهو، وما هو.

الى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الالفاظ الواسطة التي لا تلطُف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكْفاء، فانت البليغ التام »[١٥].

ومن اشارات اللغويين العرب الى مناسبة اللغة للمقام ما عرض له (ابن جني) في غير موضع من كتبه، كتقريره أنّ اللغوي لا ينبغي أنْ يكتفي « بالسماع » بل عليه أن يجمع اليه « الحضور والمشاهدة »، اي: عليه أن يحيط بظروف الكلام[١٦].

وكذلك ما عرض اليه (الخطيب القزويني) (ت.٧٣٨ هـ) بقوله إنّ « مقامات الكلام متفاوته فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه... ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبيّ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب، وهذا اعني: تطبيق الكلام على مقتضى الحال »[١٧].

ولعل من خير علمائنا اللغويين الذين مثّلوا تأثير الاحساس والمواقف العينة على البناء اللغوي هو القاضي الجرجاني (ت.٣٩٢ هـ) الذي لخصّ رأيه في هذه المسألة بقوله: « وقد كان القوم يختلفون في ذلك (يعني التعبير الشعري) وتتباين فيه احوالهم، فيرقّ شعر احدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ احدهم، ويتوعر منطق غيره، وانّما بذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق، فانّ سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، وانت تجد ذلك ظاهراً في اهل عصرك، وابناء زمانك، وترى الجافي الجلف

(١٥) نفسه: ١/١٣٦.
(١٦) انظر: الخصائص: ١/٢٤٨. وانظر: الاثنوميثودولوجيا. ص١٥٦.
(١٧) الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع. الخطيب القزويني. ط٢، مطبعة الجمالية الحديثة ـ مصر، ص٨ـ٩.

منهم كزّ الالفاظ، معقد الكلام، وُعر الخطاب، حتى انك ربما وجدت الفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته ومن شأن البداوة أن تُحدث بعض ذلك، ولاجله قال النبي ﷺ :ـ من بدا جفا ـ ولذلك تجد شعر (عدي) وهو جاهلي، اسلس من شعر (الفرزدق)، ورجز (رؤبة) وهما آهلان، لملازمة (عدي) الحاضرة وايطانه الريف، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الاعراب، وترى رقة الشعر اكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم، والغزل المتهالك، فـان انقصت لك الدماثة والصبابة، وانصاف الطبع الى الغزل، فقد جمعت لك الرقة من اطرافها »[١٨].

والمتامل لهذا النص يقف عند ثلاث حقائق اساسية هي مما يهتم بـه علم اللغة الحديث[١٩].

الاولى: تظهر في قوله: ان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع. والجرجاني لا يقصد بالسلامة هنا كما يقصد غيره الذين آثروا لغة البادية لفصاحتها أو لبعدها عن لين لغة الحواضر والامصار، انه يريد العبارة التي تتفق مع الموقف النفساني للمتحدث، مما يُحدث عنه سلامة النظم أو التاليف.

الثانية: « ربما وجدت الفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته » واظن أنّ الجانب الذاتي الذي يتميز به كل انسان يتضح في هذه اللحمة، والدراسة الصوتية المعاصرة ما عادت تكتفي بشرح مخارج الحروف واوصاف اجراسها، انها تريد الكشف عن النظام الصوتي، وهو متفاعل مع الالفاظ التي يختارها المتكلم، ثم هو مرئي من خلال النغم والجرس. ولو تذكرنا ما أثارْ (سوسور) عن الحديث عن (الكلام) (La Parole)[٢٠] فلن يضيق علم اللغة بملاحظة الجرجاني الذكى.

(١٨) الوساطة بين المتنبي وخصومه. القاضي الجرجاني. تر.:وشرح: محمد ابو الفضل ابراهيم ومحمد البجاوي، ط٢، البابي الحلبي. مصر، ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م.
(١٩) انظر: اللغة بين العقل والمغامرة. ص١٩ـ٢٠.
(٢٠) انظر: علم اللغة العام. سوسور ص٣٢.

والثالثة: إن رقة الكلام تأتينا من قبل المتحدّث الذي ينضاف طبعه الى حديثه، وهو توكيد لاثر الموقف النفساني للمتحدث على لغته، وعن هذا الطريق يمكن أن نعرف بعض ما في الاعماق.

ومن الاسس التي بنى عليها الامام عبد القادر الجرجاني (ت. ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ) منهجه في دراسة المعنى اللغوي: بربط الكلام بمقام استعماله، ومراعاة مقتضى حاله، وقد توّج عبد القاهر نظريته هذه حينما تكلّم عن ابعاد ثلاثة للمعاني وهي: المعنى المعجمي، ومعاني النحو واحكامه، والمعنى الدلالي[٢١].

وتكلّم ايضاً عن تغير الدلالة على مستوى الكلمة المفردة، وتغيرها على مستوى التركيب او العبارة. فما يعرف عنده (بالمجاز اللغوي) و(المجاز العقلي) اذ يقول: «اننا اذا وصفنا الكلمة المفردة بالمجاز كقولنا: اليد مجاز في النعمة، والاسد مجاز الانسان، وكلّ ما ليس بالسبع المعروف، كان حكماً اجريناه على غير ما جرى عليه من طريق اللغة، لانّا اردنا أنّ المتكلم قد جاز باللفظة المفردة اصلها الذي وقعت له ابتداءً، واوقعها على غير ذلك، إما تشبيهاً وإمّا لصلة وملابسة بين ما نقلها اليه، وما نقلها عنه»[٢٢]. اما تغير الدلالة على مستوى الجملة والعبارة (المجاز العقلي) فهي عنده: «الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها، من مقتضيات النظم وعنها يحدث»[٢٣].

ولعل ما تورده كتب التراث حول مدح الشاعر البدوي (علي بن الجهم) الخليفة في بغداد بقوله:

---

(٢١) انظر: عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني، المفتن في العربية ونحوها. الدكتور زهران البدراوي، ط ٢، دار المعارف ـ مصر ١٩٨١، ص٢٢٤، ونظره في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة. ص٢٨.

(٢٢) اسرار البلاغة. ٢/٢٧٩.

(٢٣) دلائل الاعجاز ص ٢٠٠.

انت كالكلب في حفاظك للود   وكالتيس في قراع الخطوب

وانّ الخليفة ادرك اثر البيئة والظروف الاجتماعية على الشاعر، لعل ذلك يدلّ على أنّ العرب ادركوا اهمية السياق او المقام في فهم المعنى المقصود.

وكذلك فهناك ما يثبت أنّ اللغويين العرب تنبّهوا الى خطورة المقام واثره في فهم دلالة النص، وهو أن الاصوليين اشترطوا اموراً لا ينبغي أن يغفل عنها في استخراج الاحكام من القرآن وهي:

١ ـ ألا يغفل عن بعضه في تفسير بعضه.
٢ ـ ألا يغفل عن السنّة في تفسيره.
٣ ـ أن يعرف اسباب نزول الآيات.
٤ ـ أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب.

فهذه العناصر الاربعة يمكن اختصارها في كلمة «المقام»[٢٤].

واذا تجاوزنا حدود المادة اللغوية موضع النظر من حيث (الدلالة الصوتية) واعني بها ما تستمده الكلمة من معنى من خلال طبيعة الاصوات التي تشكلّها، وقد فطن (ابن جني) وغيره من اللغويين العرب القدماء الى هذه الدلالات[٢٥].

وتجاوزناها من حيث (الدلالة الصرفية) حيث العلاقة بين البنية الصرفية ومعناها، وتجاوزنا ايضاً ما يكتنف المادة اللغوية من ملابسات خارجية في موقف المتكلم، وحال الخطاب، والمتغيرات التي يجري فيها المقام[٢٦]؛ وجدنا انّ (الدلالة النحوية) نظام الجملة أو هندستها، وموقع الكلمة المعينة من ذلك

---

(٢٤) انظر: اللغة العربية مبناها ومعناها، ص٣٤٨. ونظره في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة ص٣٠.

(٢٥) انظر على سبيل المثال: الخصائص. ٢/١٣٣، ١٣٩، ١٤٥، ١٥٢، ١٧٧ وما بعدها وجرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب. د.ماهر مهدي هلال دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨٠، ص٢٨٨ وما بعدها.

(٢٦) انظر: الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية، ص٤.

النظام من حيث التقديم او التأخير، او الذكر او الحذف او التعريف او التنكير مظهراً سياقياً فاعلًا، اذا لا يمكن عزل الكلمة عن العلاقات النحوية التي تظمها الى غيرها، بما نلحظ من خلاله تعدد استعمالات الكلمة، وابنيتها المختلفة، مع ضبط الوظيفة التي تقوم بها داخل التركيب المعين.

ومن هنا فقد الحّ (النحويون التحويليون) اليوم وعلى رأسهم (تشومسكي) على ضرورة ضبط الظواهر اللغوية، من حيث المبدأ، بشروط نحوية خالصة، وأنّ العوامل غير النحوية مما يلابس النحو، ويتداخل وإياه، كمثل عقيدة المتحدّث ازاء العالم الذي يعيش فيه، والفروض القبلية، وآثار موقف الخطاب، وغير ذلك لا تلعب إلّا ادواراً فرعية في تشكيل المستويات المتفاوتة لأصولية الجملة، أو كونها مقبولة لدى ابناء اللغة.

ويزيد التحويليون قولهم: « إنّ التفسير غير النحوي خطيئة لا يجوز لنا أن نفارقها إلا أن تفشل التشكيلات النحوية المحكمة، وأنّ العوامل غير النحوية مما لا يمكن تشكيله باحكام قليلة الاهمية في نظرية النحو »[٢٧].

وبذلك يعرض التحويليون الى حدّ ما عما ينادي به غيرهم من (الوظيفيين) من ضرورة تحليل اللغة في ضوء رصد علاقاتها بالسمات والمتغيرات في العالم الخارجي، اذ ثمة وجوه عريضة من الظواهر تحكمها في الحقيقة عوامل غير لغوية.

وقد فطن اللغويون العرب القدماء الى انّ للالفاظ اطارها التركيبي وكونها الخاص من خلال هذا التركيب، وتعلّقها ببعض على نحو يجسّد حركتها الداخلية ويدلّ بالتالي على قدرة التركيب على ابراز المعنى المراد دون غيره.

وفي التراث العربي مئات الشواهد والاشارات التي تظهر بوضوح فهم اللغويين والادباء والنقاد العرب الى دور (نظام الجملة) او ما يسمّى بـ (نظرية النظم) او التأليف في بيان المعنى المراد دون غيره، وانّ أي اختلال في هذا

(٢٧) نفسه: ص٤.

النظام يؤدي الى ضياع المعنى الدقيق من الجملة المعينة؛ وقد قام احد الباحثين المحدثين بأول احصاء شامل مرتب ترتيباً زمنياً يشير الى بذور فكرة النظم عند النحاة والبلاغيين والادباء ومؤلفي كتب الاعجاز[٢٨]، نجد من المفيد أن نسوق اطرافاً من اشارات النحاة التي تشتمل على اختبارهم الدقيق لفعل النظم في العملية اللغوية. من ذلك ما ذكره (سيبويه) من أنّ مدار الكلام على تأليف العبارة وما فيها من حسن أو قبح، ووضع الالفاظ في غير موضعها دليل على قبح النظم وفساده، قال: « هذا باب الاستقامة من الكلام والاحالة: فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب فأمّا المستقيم الحسن فقولك: اتيتك امس وسآتيك غداً. وأمّا المحال فان تنقض أوّلَ كلامك بآخره، فتقول: آتيك غداً وسأتيك أمس، واما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت البحر ونحوه. وامّا المستقيم القبيح فان تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكي زيداً يأتيك، واشباه هذا. وأمّا المحال الكذب، فان تقول: سوف اشرب ماء البحر امس »[٢٩].

وكان اهتمام (سيبويه) بنظم الكلام وتنسيق العبارات واضحاً في مواضع كثيرة من كتابه فمنها: اهتمامه بحروف العطف وأثرها في صحة النظم وفساده، وتقديم المسؤول عنه بعد اداة الاستفهام، واخبار النكرة عن النكرة، وغير ذلك مما يرى فيه (سيبويه) أنّ لكلّ استعمال معناه، وتغيير الاستعمال لا بد أن ينشأ عنه تغيير المعنى[٣٠].

فتغيير لفظ عن رتبته الاساسية يفيد في تغيّر الدلالة المتأتية من تغير نظام الجملة وموقع اللفظ، وسبب ذلك عند سيبويه هو أن المتحدثين « يقدمون الذي بيانه اهم لهم، وهم ببيانه اعني »[٣١].

(٢٨) هو الدكتور (حاتم الضامن) انظر متابه: نظرية النظم. بغداد ١٩٧٩.
(٢٩) سيبويه: ٨/١. وانظر: نظرية النظم. ص٨.
(٣٠) نظرية النظم: ص٩.
(٣١) سيبويه. ٣٤/١.

ويبدو (عبد القاهر الجرجاني) اكثر وضوحاً من سيبويه في هذا المجال حين يقرر: «إنّ تقديم المفعول به حصل لان مقام الاستعمال تطلّب تقديم المفعول، فهو الذي يهم الناس، ويعنيهم، ويتّصل بمسرتهم، وكل الذي هم متوقعون له، ومتطلعون إليه»(٣٢) ويوضح (عبد القاهر الجرجاني) موقفه من نظرية النظم واهمية تركيب الكلام في السياق بربطه كلّ كلام بمقام استعماله، وعنده أنّه لا يمكن أن نضع قاعدة واحدة تستوعب كل الحالات، وانما لكل موقف ومقتضي حال تركيب يتلاءم معه «فلا نظم في الكلم، ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس»(٣٣). «واعلم أن ليس النظم إلا أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه، واصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها.. فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأً الى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد اصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فازيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كرماً قد وصف بصحة نظم او فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجسد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل الى معاني النحو، واحكامه ووجدته يدخل في اصل من اصوله ويتّصل بباب من ابوابه»(٣٤).

و«متى رايت اسم فاعل او صفة من الصفات قد بدئ به فجعل مبتدأ، وجعل الذي هو صاحب الصفة في المعنى خبراً، فاعلم أنّ الغرض اذا كان اسم الفاعل أو الصفة خبراً»(٣٥).

(٣٢) دلائل الاعجاز ١ ـ بتصرف ـ ص١٤٣.
(٣٣) نفسه: ص ٤٧.
(٣٤) نفسه: ص ٦٤.
(٣٥) نفسه: ص ٢١٣.

ومقام الحال عند (الجرجاني) هو الذي يقتضي المتكلم أن يحذف، أو يقدّم، أو يؤخر، ولكي يدرك الجرجاني هذه الفكرة ينقل تمثيل النحويين عليها بقوله: «كمثل ما يعلم من حال الناس في حال الخارجيّ يخرج فيعبث ويفسد، ويكثر به الاذى أنهم يريدون قتله، ولا يبالون من كان القتل منه، ولا يعنيهم منه شيء، فاذا قُتِل، واراد مريدّ الاخبار بذلك، فإنّه يقدّم ذكر الخارجي فيقول: «قَتلَ الخَارجيَّ زيدٌ» ولا يقول: «قتل زيد الخارجيّ، لانه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له «زيد» جدوى وفائدة، فيغنيهم ذكره، ويهمّهم، ويتّصل بمسرتهم..»(٣٦).

وفيما ذكرناه للجرجاني، وغيره كثير مما لم نذكره يؤكّد أن هذا الباحث العربي الجليل قد اعطى النحو معنى واسعاً عندما جعل علم المعاني جزءاً منه، ووضع اساساً عاماً، ومقياساً عاماً في النقد(٣٧)، هو النظر الى نظم الكلام نظراً يؤدي ما تريد من معان على خير وجه واجمله(٣٨)، زيادة على جهوده اللغوية المختلفة، وخاصة فيما يتعلّق بعلم المعنى اللغوي(٣٩)، الذي يعدّ فيه مؤصلًا مبتكراً يوازي آخر ما جاءت به النظريات اللغوية المعاصرة ـ تقريباً(٤٠).

ومما نستحضره من اقوال النحاة في مجال (الدلالة النحوية) يحتاج الى بحث مستفيض فمواضع الحذف، والتقديم والتأخير، والتنكير والتعريف، واساليب العربية في التعليل والطلب، والنفي، والتعجب، والنداء، والتوكيد، وغيرها مما استطلعه النحاة العرب من خلال اللغة العربية، تبرز لنا بوضوح استعداد اولئك النحاة للوصول بالتحليل اللغوي الى حدود يكونون فيها سابقين الى

(٣٦) دلائل الاعجاز: ص١٤٣.
(٣٧) النقد المنهجي عند العرب. د. محمد مندور، القاهرة ١٩٦٩، ص٣٨٧.
(٣٨) نفسه: ص٣٩١.
(٣٩) انظر: علم اللغة العام. ١. سوسور، ص ١٠ وما بعدها.
(٤٠) انظر: نظرة في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة.

جملة من الافكار التي يقرّها الدرس اللغوي المعاصر، ذلك انّ النحاة العرب قد كانت لديهم نظرية عامة في الجملة، ويظهر ذلك اولًا من تعريفهم الكلام أو الجملة[٤١] بانه «الكلام المفيد المستقل بنفسه»[٤٢] واشتراطهم أن تتركب من عنصرين اساسين اولهما المسند، وثانيهما المسند اليه، وهما «ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدأ»[٤٣]، والافادة مقترنة باستقلال الجملة وعدم احتياجها الى ما يتم معناها وقد عبّر عنها بالمعنى الذي يحسن السكوت عليه، وغاية الامر عند النحاة العرب في الجملة أن تؤدّي معنى مفيداً وذلك بتركيب المفردات على نحو معين، وهذا الترتيب متوقف على ابنية عامة، او قل على قوالب ـ يمكن للمتكلم أن يسبك فيها الكلمات حسب اختياره.

ويعللون سبب تقسيم الكلم العربي على ثلاثة اقسام بقولهم: «لانّا وجدنا هذه الاقسام الثلاثة يُعبّر بها عن جميع ما يخطر بالبال، ويُتوهمُ في الخيال، ولو كان ها هنا قسم رابع لبقي في النفس شيء لا يمكن التعبير عنه، ألا ترى أنّه لو سقط آخر هذه الاقسام الثلاثة لبقي في النفس شيء لا يمكن التعبير عنه بازاء ما سقط»[٤٤].

---

(٤١) من النحاة من يستعمل مصطلح الجملة مرادفاً لمصطلح الكلام. ومنهم من يحاول أن يفرّق بين المصطلحين. وعندهم أن الكلام اخص من الجملة، والجملة اعم وتشمل الافادة وعدمها. ومن المحدثين من يحاول التوفيق بين المصطلحين. ونرى أن لا فرق بين المصطلحين، فكلاهما مما يشترط فيه الافادة وحسن السكوت عليه. انظر تفاصيل ذلك في:
اللمع في العربية. ابن جني. تر.: فائز فارس، الكويت ١٩٧٢، ص٢٦.
شرح المفصل: لابن يعيش، ١٨/١.
مغني اللبيب. لابن هشام. دار الاصفهاني، ط ١، مصر، ص٣٥.
النحو الوافي. عباس حسن، دار المعارف، ط ٤، مصر ١٩٧٦، ص١٥/١.

(٤٢) اللمع: ص٢٦. «بتصرف».

(٤٣) ليس لها شرح

(٤٤) اسرار العربية. للانباري. تر.: محمد بهجة البيطار. دمشق ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م، ص٣ ـ ٤.
وانظر: الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية. ص٧.

وتمتد أنساق الكلام عندهم وتتسلسل هو وَفْق امتداد الفرد في المجتمع فالتحقيق ـ عندهم ـ في ترتيب احرف المضارعة «أن تقدّم الهمزة، ثم النون، ثم التاء، ثم الياء، وذلك لان الهمزة للمتكلم وحده، والنون للمتكلم ومن معه، والتاء للمخاطب والياء للغائب، والاصل أن يخبر الانسان عن نفسه، ثم عن نفسه وعمن غيره، ثم للمخاطب ثم الغائب..»[٤٥].

ولا بُد أن يكون علم السامع هو المسوغ المعقول والمقبول للحذف، وهو يجري في كتبهم كالاصل الثابت المتواتر، وهو يصرّحون به تصريحاً غير ملتبس ويمتد هذا المسوغ للحذف، فهو يسوّغ حذف المبتدأ، وحذف كان واسمها، وخبر إنّ واخواتها، وصلة الموصول، والعائد في صلة الموصول، والمعطوف، والموصوف، والمفعول، والمستثنى، وغير ذلك مما يجوز فيه الحذف لعلم السامع به، وشهادة الحال عليه[٤٦].

يقول (ابن السراج): «والمحذوفات في كلامهم كثيرة، والاختصار في كلام الفصحاء كثير موجود، إذا آنسوا بعلم المخاطب ما يعنون»[٤٧].

واعلن المبرد مسألة مما تقدّم تحت عنوان عريض هكذا: هذا باب ما حُذف من المستثنى تخفيفاً واجتزئ بعلم المخاطب، وذلك قولك: عندي درهم ليس غير. اردت: ليس غير ذلك»[٤٧آ].

ويتخرّج عند (المبرد) حذف فعل الحلف في القسم وذلك «أن للقسم ادوات تُوصِل الحلف الى المقسم به؛ لأنّ الحلف مُطّرح لعلم السامع به»[٤٨].

---

(٤٥) اسرار العربية. ص٢٤.

(٤٦) انظر في ذلك: الخصائص. ٣٦٠/٢ وما بعدها. باب (شجاعة العربية).

(٤٧) اصول النحو. لابن السراج. تر.: د. عبد الحسين الفتلي. النجف الاشرف ١٩٧٣ ٣٤١/٢.
وانظر: الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية ص٩.

(٤٧آ) المقتضب: للمبرد. تر.: عبد الخالق عضيمة، القاهرة ١٣٨٥ هـ ـ ١٣٨٨ هـ. ٤٢٩/٤.

(٤٨) نفسه: ٣٠٨/٢.

ويمثّل على السامع عندهم دليلًا على اختلاف جهات الكلام وخروج العبارة عن مدلولها النحوي الظاهري الى معنى مختلف، فعندهم أنّ قولك: غفر الله لزيد، ورحم الله زيداً، ونحو ذلك «لفظه لفظ الخبر ومعناه الطلب، وانّما كان كذلك لعلم السامع أنك لا تخبر عن الله عزّ وجل وانما تسأله...»[٤٩].

ومن ذلك ما يخرج فيه الطلب الى الدعاء كقولهم: «سقياً لك ورعياً» ومعناه: سقاك الله سقياً ورعاك رعياً. على سبيل الدعاء.

ومن المعروف عند النحاة ان النعت تابع متمم لمتبوعه، لدلالته على معنى فيه وهو النعت الحقيقي، او في متعلّق به وهو النعت السببي، والمراد بقول النحاة: متمم لمتبوعه هو أن الغاية من النعت توضيح المنعوت اذا كان معرفة أو تخصيصه إذا كان نكرة. غير أن النعت قد يرد لمجرد المدح او ضدّه، او الترحم فكثيراً ما يكون المنعوت غنياً عن الايضاح، او التخصيص، فيدلّ النعت حينئذ على غرض آخر كالمدح والتعظيم كما في نحو: الحمد لله مالك الملك. او الذم نحو: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم. او الترحم نحو: اللهم انا عبدك المسكين.

ومما يقوم على اساس ادراك السامع للمعنى المراد، بعد مراعاة التركيب العام ما يرجى اغلب النحاة من اعتبار جملة (يسبني) نعتاً لا حالا في قول الشاعر:

ولقــد امــرّ على اللئيم يسبني　　فمضيــتُ ثمّةَ قلــت لا يعنيني

اذ أن المراد منه أنّه لا يعني لئيماً بعينه، وانما المراد باللئيم الجنس، وذو التعريف الجنسي يقرب في المعنى من النكرة، وذلك ابلغ في المعنى[٥٠].

ويؤكد النحاة العرب من التركيب الفعلي المعلوم فرعاً مبنياً للمجهول،

(٤٩) نفسه: ٢/١٣٢، ٣٢٥.
وانظر: الاعزاف او نحو اللسانيات الاجتماعية. ص١٢.

(٥٠) انظر في ذلك: سيبويه: ٣/٢٤. شرح شذور الذهب. ص١٣.
خزانة الادب. للبغدادي ١/١٧٣.

فالاصل عندهم كما هو معروف أن يسند الفِعل الى الفاعل، غير أنّ مراعاة حال المتكلم، او المتحدّث عنه، تقتضي احياناً ضرورة عدم ذكر الفاعل، فتقع عملية التحويل حسب شروط ثلاثة معروفة، اذ يحذف الفاعل، ويقام المفعول مقامه، وتغير صيغة الفعل، ومن اليسير استنتاج قواعد التحويل انطلاقاً من المراحل الثلاثة، فحذف الفاعل ضرورة يقتضيها حال الخطاب، واقامة المفعول مقامه تعني تطابق صيغة الفعل بالمفعول، وتغير صيغة الفعل عملية تعويض صيغة معلومة بصيغة مجهولة الفاعل.

وهذا التحويل المنطقي هو الذي يمنح الحرية للمتكلم في أن لا يذكر اسم الفاعل إنْ كان يخافه، أو يحتقره، او يجهله، او كان ذلك الفاعل مجهولًا أو مبهماً، أو كان معروفاً لا يحتاج الى ذكر أو بيان، أو كان منزهاً كما في قول الرسول الكريم ﷺ «من بُلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر» فقد ترك ذكر المبتلي سبحانه تعظيماً له، وتنزيهاً أن يذكر مع هذا المبتلى به[٥١].

ويتخذ ابن مالك تنوعات حال المتكلم حجة على مَنْ ذهب الى أنّ المنادى محذوف في نحو: ياليتني كنت معهم، وأنّ التقدير: يا قوم ليتني كنت معهم. قال ابن مالك: «وهذا الرأي عندي ضعيف، لان قائل (يا ليتني) قد يكون وحده فلا يكون معه منادي ثابت ولا محذوف، كقول (مريم) عليها السلام: يا ليتني مت قبل هذا»[٥٢].

ويطول بنا المقام لو أردنا بيان ما استقصاه النحاة العرب مما يعرض لحال كلٍّ من المتكلم والمخاطب في مواقف الخطاب، أو ما تخصصت به تراكيب معلومه لمواضع معلومه دون غيرها، أو ما يصح وما لا يصح من التراكيب اللغوية على وفق تصورنا للموقف اللغوي الخارجي، وعناصره، وغير

(٥١) انظر: شرح اللحمة البدوية في علم العربية. لابن هشام الانصاري. تر.:د.هادي نهر. بغداد ١٣٩٧ هـ-١٩٧٧ م. ١/٣٤٧.

(٥٢) شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح. لابن مالك. تر.:وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي. مصر. ١٣٧٦ هـ-١٩٥٧ م، ص ٤.

ذلك [٥٣]. مما يؤكّد لنا أنّ النحاة العرب قد فهموا اللغة دائماً على انها ظاهرة ثنائية ذات مستويين، وان مستوى الابنية المقدّرة (العميقة) من خلال النظر الى المواقف الخارجية واحوال الخطاب عندهم اهم من مستوى اللفظ أو (الابنية السطحية).. باعتبار أنّ الابنية العميقة هي اسس التفكير وهي التي تستوعب المفاهيم والافكار، وما دور الابنية السطحية إلا القيام بصوغ المفهوم على شكل تراكيب اصولية؛ وانّ منهج النحاة العرب في ترتيب الظواهر والاصوات اللغوية، ووضعها في نظام معين يعتبر مجهوداً للعقل البشري جديراً بالاعجاب، يمكن للباحث المنصف أنْ يعدّه سبقاً على كثير من معطيات المدارس اللغوية الحديثة، مدعياً بلا دليل اذا قررت أنّ النحاة العرب القدماء قد سبقوا (تشومسكي) مثلًا الى بعض النقاط الجوهرية في النظام النحوي التوليدي أو ما يسمّى (بالقواعد التحويلية) Transformationnelles الذي انتشرت خلال السنوات العشرين الاخيرة، ومن هذه النقاط او الفرضيات الاساسية عند اصحاب المدرسة التحويلية تلك الفرضية القائلة: «إنّ ما يبلغ اسماعنا أو ما تراه عيوننا من الظواهر اللغوية لا يعدو أن يكون من ظواهر البنية السطحية Surface Structure المتفرعة عن البنية العميقة Deep Structure [٥٤]، وانّي لواثق أنّ نحويّي العرب القدماء لن يلحظوا غرابة في هذا الكلام لو سنحت لهم الفرصة بالاطلاع عليه، بل أنّهم سيجدون فيه حججاً وطرقاً في اللغة مألوفة لديهم.

---

(٥٣) انظر في ذلك. الاعراف او نمو اللسانيات الاجتماعية. ص١٥ وما بعدها.

(٥٤) إنّ التمييز الحاصل بين البنى السطحية والبنى العميقة يثير مجموعة من التساؤلات: لماذا تتضمن اللغة بنية سطحية وبنية عميقة تختلفان في طبيعتها، ولماذا لغة معينة (العربية مثلًا) طريقة خاصة للتعبير دون غيرها؟ ولماذا تنتظم هذه اللغة أو تلك على هذا النمط وتعزف عن سواه؟ وكيف يمكن وضع نظام من القواعد التي تمكننا من وصف لكل الجمل النحوية، وذلك انطلاقاً من ابنية الجمل في مستوى الابنية العميقة.
انظر: «البنيوية». جان بياجية. تر.: عارف منيمنة وبشير اوبري.، ط٢، بيروت ١٩٨٠، ص٦٨ وما بعدها.
البنائية. محمد الحناش. ص٣٨٦-٣٨٧.

- المبحث الرابع -
(لغة السلوك وقواعد التصرف الاجتماعي)

من بين نظم الاشارات الاكثر متعة الذي أولاه المهتمون بدراسة وسائل التواصل بين الناس ومنهم علماء اللغة هو دراسة ما اطلقنا عليه (لغة السلوك)، ونعني به مجموعة قواعد التصرف الاجتماعي او قواعد السلوك اللغوي التي يتعارف عليها الناس في مجتمع ما، وهذه القواعد نتاج للحضارة الانسانية تألفها الشعوب والامم وتتعارف عليها، وتتداولها انطلاقاً من الموضع الذي هي فيه.

وهي ايضاً مما يتطلب دائماً منفذاً للتصرف او السلوك المعين، وتتطلب في الوقت ذاته مستلماً لذلك التصرف او السلوك، وهي بهذا الاعتبار تتفق واللغة المحتاجة دائماً الى باث للكلام ومستقبل له. هذه اللغة السلوكية الخاصة هي التي تعرف اليوم عند علماء الدلالة بلفظة (اتيكيت) Etiquette، وهو أحد نظم التواصل والتعبير في المجتمعات والمتأمل فيها يمكنه تقسيمها على قسمين.

اولها: افعال مادية خارج الحقل اللغوي كأن تكون حركات أو تصرفات معينة دالة.

وثانيها: افعال داخل الحقل اللغوي يقتضيها النظام اللغوي المعين في اللغة المعينة ليحكم من خلالها «مقاييس اللياقة وعدم اللياقة في المجتمع الكلامي الواحد» [١] وهي مقاييس متعددة ومعقّدة.

---

(١) انظر: علم اللغة. د. السعران. ص٧٩.

فمن القسم الاول. نذكر مثلًا تنازل رجل عن مقعده لرجل مسنّ أو امرأة أو ضيف (حتى لو كان اقل عمراً) دلالة على الاحترام أو الشعور بالمسؤولية الانسانية أو الاخلاقية تجاه رجل ضعيف القوى أو امرأة لا تصبر على الوقوف، أو ضيف نحاول اكرامه، وهذا التصرف الاجتماعي المتعارف عليه وسيلة من وسائل الابلاغ والتواصل لاننا نستخدمه «عندما تحلّ افعالنا محل كلماتنا»[٢]، فهو نظام خاص من نظم الاشارات، ولغة تستعمل في المجتمع، ويؤديها سلوكنا، وتكتسبها الاجيال تتوارثها وتورثها، وقد تنقص منها أو تزيد.

ومن هنا فقد اختلفت هذه القواعد من مجتمع الى آخر، ومن زمن الى زمن، ومن مكان الى مكان تبعاً للمستوى الحضاري أو الفكري أو الاجتماعي أو الديني الذي يعيشه الشعب المعين، أو الامة المعينة.

ففي المجتمعات العربية مثلًا يكون الشخص الممتطي جواداً هو السبّاق الى تحية احد السابله بغض النظر عن الفرق في العمر أو المركز، أو الجنس، والشخص القادم يحيي الشخص الواقف، والواقف هو السبّاق الى تحية الجالس.

واذا بادر احد الشباب الى تحية رجل مشهور مسنّ يهتم بدخول الغرفة فانّه يعتبر سلوكاً يفتقر الى الذوق، رغم أن عكس هذا التصرف في رأي الاوربيين يفتقر الى الذوق، لو أنّ الرجل المسنّ كان السبّاق الى تحية الشاب[٣].

وفي مجتمعنا العربي كان العرف وما يزال في بعض الاقطار العربية يوجب أن تمشي المرأة وراء الرجل وعلى مسافة معينة، ولا يسمح لها بأنْ تصافح رجلًا التقاه زوجها في الطريق، بل يعدّ من المحرمات تقبيل يد المرأة من شخص آخر غير زوجها أو ابنها أو اخيها، في حين يعدّ ذلك دلالة على الاحترام عند الاوربيين.

(٢) اصوات واشارات. ص٢٢.

(٣) اصوات واشارات: ص٢٢.

وهكذا نجد «أن الافتقار الى الذوق أو انتهاك حرمة (الاتكيت) هو الذي - رغم انه يبدو متناقضاً - يجعل من (الاتكيت) نظاماً للاشارة، وفي الحقيقة اننا عندما نلتزم بقواعد السلوك في المجتمع فان قيمة «سلوكنا الاشاري» تكون صفراً. (إنّ كلّ شيء هو كما يجب أن يكون) لنفرض انك صافحت اصدقاءك لدى زيارتهم ثم جلست بعد استئذانهم الخ. لكن في اللحظة التي ترفض مدّ يدك للتحية، او تجلس دون أنْ تستأذن فان القيمة العدمية تتلاشى مباشرة، لان تصرفاتك ستبدأ مباشرة «بالحديث» عند ابداء الاحترام لاصدقائك الذين رفضت مصافحتهم وللمضيفين عندما ارتميت على الكرسي دون أن تستأذن»[٤].

وقد كان للعرب علم بقواعد السلوك والتصرف الاجتماعي معروفة لدى الجميع، وكان للباحثين العرب اهتمام في دراسة وتسجيل مثل هذه القواعد، ويُعدّ (ابو الحسن هلال بن المحسن الصابئي) (٣٥٩ هـ - ٤٤٨ هـ) خير مثال على ذلك، فقد وضع كتابه المرسوم بـ (رسوم دار الخلافة) ليضمنه مجموع العادات المتبعة في شؤون الالفة، واداب المعاشرة والتواصل، ومجموع القواعد التي يعتمدها الناس في امور الاحتفاء والسياسة والقيام بها، وفي مقابلة الملوك والسياسة وهو ما يعرف اليوم باسم (بروتوكول) Protocole، وما يدور بحضرة اولي الامر، وفي مكالمتهم، ومقابلتهم، ومسايرتهم، ومنادمتهم، ونحو ذلك[٥].

ومن القسم الثاني الذي يُباشر الحقل اللغوي ما لمحنا الى شيء منه عند الحديث عن السياق النحوي، ونزيد هنا الامر وضوحاً فنقول: إنّ لغتنا وكلامنا العادي يخضعان الى قواعد وانماط السلوك والتصرف الاجتماعي، فالطريقة التي يخاطب بها الصغير غير التي يخاطب بها الكبير، وما يخاطب به

(٤) نفسه: ص٢٢.

(٥) انظر: رسوم دار الخلافة. ابو الحسين هلال بن المحسن الصابئي. تر.: ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م.

الرئيس غير ما يخاطب به المرؤوس، وهكذا الامر بالنسبة الى المخاطب المحترم، والمخاطب العادي، والطالب والمطلوب، والسائل والمسؤول، والقريب والبعيد، والرجل والمرأة.

ففي كل لغة من اللغات المنطوقة الفاظ وعادات لغوية خاصة بها، يقتضيها نظام تلك اللغة، وهو نابع اساساً مما تعارف عليه المجتمع العين من عادات وتقاليد تحكم عملية التواصل اليومي بين الناس.

«ففي الروسية كما في الالمانية يستعمل اللفظ (Du) لضمير المخاطب العادي و(Sie) لضمير المخاطب المحترم... وفي لغة (التبت) يتمّ التعبير عن الافكار بكلمتين مختلفتين تبعاً للشخص المخاطب، فمثلًا يسمّى الرأس (go) في الكلام الاعتيادي، و(a) في الكلام المحترم، وتسمّى الفكرة (Sampa) في الحالة الاولى و(Gongpa) في الحالة الثانية، أما في اليابانية فان «حالات الاحترام» و«درجات التأدب» تختلف كثيراً. هناك عبارات نحوية خاصة تستعمل لدى مخاطبة الندّ والاعلى مرتبة، والادنى مرتبة سواء في اللقب أم في المركز الاجتماعي»[٦].

وقد ساق اللغويون العرب القدماء كثيراً من الانماط والعادات اللغوية التي تتفق مع العادات وقواعد السلوك العامة التي عرفها المجتمع العربي فقد خصّوا تراكيب معينة لمواضع واحوال معينة، فلا يجوز عندهم مثلًا أن «يخبر عن الله - عزّ وجل - إلا على خلاف ما تخبر به عن المعنى في غيره، وجنس الفعل واحد في الاعمال، نحو قولك: رحم الله الناس، ورحم زيد عمراً. فالرحمة من زيد رقّة وتحنّن، والله - عزّ وجل - يجلّ عنها. وكذلك علم الله وهو العالم بنفسه ونقول: علم زيد علماً، وانما ذلك علمٌ جعل فيه، وأدب اكتسبه، وكذلك جميع ما تخبر به. فمخارج الافعال واحدة في الاعمال، والمعاني تختلف»[٧] على وفق اقدار المخاطبين أو المخبر عنهم.

(٦) اصوات واشارات: ص٢٣.
(٧) المقتضب: ٤/١٧٦-١٧٧.

وكذلك لا يجوز في كلّ شيء التعظيم، ولا كلّ صفة يحسن أن يعظّم بها، فلو قلت: مررت بعبدالله اخيك صاحب الثياب، أو البزاز لم يكن هذا مما يعظّم به الرجل عند الناس ولا يفخّم به[٨].

والصفات عندهم «لا تتساوى احوالها في قيامها مقام موصوفاتها، بل بعضها في ذلك أحسن من بعض، فمتى دلّت الصفة على موصوفها حسنت إقامتها مقامه ومتى لم تدلّ على موصوفها قبحت إقامتها مقامه. فمن ذلك قولك: مررت بظريف فهذا احسن من قولك مررت بطويل، وذلك أنّ الظريف لا يكون إلا انساناً مذكراً ورجلًا ايضاً، وذلك أنّ الظَّرف انما هو حُسن العبارة، وأنّه أمر يخصّ اللسان، فظريف إذاً مما يختص الرجال دون الصبيان، لانّ الصبيّ في غالب الامر لا تصح له صفة الظرف، وليس كذلك قولنا: مررت بطويل؛ لأنّ الطويل قد يجوز أن يكون رجلًا، وأن يكون رمحاً، وأن يكون حبلًا وجزعاً، ونحو ذلك. فهذا هو الذي يقبح، والاول هو الذي يحسن، فانْ قام دليل من وجه آخر على ارادة الموصوف ساغ وضع صفته موضعه»[٩].

وليس كلّ شيء من الكلام يكون تعظيماً لله - عزّ وجل - يكون تعظيماً لغيره من المخلوقين. فلا يجوز عندهم أن يقال: الحمد لزيد على ارادة العظمة. لانّ التعظيم كما يقول (السيرافي) (ت. ٣٦٨ هـ) «يحتاج الى اجتماع معنيين في المعظّم؛ احدهما أنْ يكون الذي عظّم به فيه مدح وثناء ورفعة. والآخر أن يكون المعظم قد عرفه المخاطب وشهر عنده بما عظم به، أو يتقدّم من كلام المتكلم ما يتقرر به عند المخاطب حال مدح وثناء وتشريف في المذكور يصح أن يورد بعدها التعظيم»[١٠].

(٨) سيبويه: بتحقيق عبد السلام محمد هارون. ٢/٦٩.
(٩) المحتسب: ابن جني. تر.: علي النجدي ناصف، والدكتور عبد الفتاح شلبي، القاهرة ١٣٨٩ هـ-١٩٦٩ م. جـ٢/١٠١.
(١٠) سيبويه: ٢/٦٩.

ومن الصور اللغوية المعروفة التي تبرز من خلالها المستويات الاجتماعية تصرّف الضمائر والصيغ المسندة اليها، واللغات في هذا الشأن متفاوتة فمنها والا يفصل ولا يميز في الضمائر كبير تفصيل وتمييز للتعبير عن المستوى الاجتماعي للمتكلم والمخاطب والغائب؛ ومنها ما يميز شيئاً من التمييز في ضمائر الخطاب على وجه الخصوص؛ ومنها ما يبلغ باستعمال الضمائر درجة كبرى من التفصيل والتمييز، والتعقيد، فيتغير كلّ من ضمير المتكلم والمخاطب والغائب حسب درجة المتكلّم في السلّم الاجتماعي من المخاطب والغائب.

وقد عرض بعض الباحثين المحدثين(١١) تخطيطاً عاماً لدراسة الضمائر في العربية الفصحى من حيث اظهارها للمستوى الاجتماعي للمتكلمين والمخاطبين والغائبين، مستخلصاً بحذق الدلالات الاجتماعية للضمائر العربية في العصور المختلفة، ومن خلال انواع كلامية متعددة فهناك القرآن الكريم، والشعر، والخطب، والامثال، والوصايا، ولغة التخاطب العادي، بما أكّد كثيراً من مقولات اللغويين القدماء في ضرورة تنوع العبارة على وفق منزلة المتكلّم «فان كان المتكلم من سواء الناس حدّث عن نفسه بمثل (انا) و(اقرأ) «أما الله تعالى فيخبر عن نفسه بلفظ ملك الاملاك نحو (نحن قسمنا) و(إنّا اعطيناك) وهو وحده لا شريك له؛ لان القرآن نزل بلغة العرب، والملك والرئيس والعالم يخبرون عن أنفسهم بلفظ الجماعة فيقول: قد أمرنا لك بكذا، وهو الامر وحده..»(١٢).

«ويتوقف النحاة الى حقيقة المتكلم وحاله ويكشفون عن علاقتها بحقيقة المتكلم واحواله» فابن جنّي يقرر أنّ الندبة «اكثر ما يتكلّم بها النساء» متنبهاً إلى ما يشبه حسابَ تواتر اسلوبٍ من الاساليب الكلامية وفقا: لجنس المتكلّم(١٣).

(١١) انظر: اللغة والمجتمع. د. السعران. ص٨١ وما بعدها.

(١٢) اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم. لابن خالويه، القاهرة ١٣٦٠هـ-١٩٤١م ص٢٠٨.

(١٣) اللمع في العربي. ص١٢٠ وانظر: الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية: ص١٤.

ومما يشير الى وجوب تغير صفات الخطاب وعناصره على وفق منزلة المخاطب والاحوال التي تعتريه في مباحث النحاة العرب الاقدمين ما يمكن اجماله بالآتي(١٤).

اولاً: تقسيمهم الطلب الى امرٍ، ونهي، ودعاء، وعرض، وتحضيض، واستفهام فالامر عندهم لمن هو دون، والطلب ممن انت دونه، والدعاء طلب لمن هو فوقك «لانك تأمر من هو دونك وتطلب من انت دونه»(١٥) «واصل الدعاء أن يكون على لفظ الامر، وانما استعظم أن يقال: امر والامر لمن دونك، والدعاء لمن فوقك، واذا قلت: اللهم اغفر لي. فهو كلفظك اذا أمرت فقلت: يا زيد اكرم عمراً...»(١٦).

والعرض طلب برفق ولين، والتحضيض طلب بشدة.

ثانياً: والتنكير عندهم ضرب من الكفّ والتصغير، كما أن التعريف ضرب من الاعلام والتشريف ولاجل ذلك «لم تندب العرب المبهم ولا النكرة لاحتقارها، وانما تندب باشهر أسماء المندوب ليكون عذراً لها في اختلاطها وتفجعها»(١٧).

ثالثاً: ملاحظتهم حال المخاطب من حيث قربه أو بعده، أو اقباله وانصرافه، ولذا قسّموا حروف النداء على اقسام «فالهمزة المقصورة للمنادى القريب الذي لم ينزل منزلة البعيد، وبقية الالفاظ(١٨) للمنادى البعيد حقيقة أو حكماً وهو الغافل، والنائم والثقيل السمع، وغيرهن اذا أُريد المبالغة في ايقاضه»(١٩)

(١٤) انظر غيرها في: الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية، ص١٩ وما بعدها.

(١٥) المقتضب: ٢/٤٤.

(١٦) اصول النحو: ٢/١٧٧. وانظر: سيبويه بتحقيق عبد السلام هارون: ٢/٤٤، ١٣٢.

(١٧) المحتسب: ١/١٦٨-١٦٩.

(١٨) البقية المقصودة هن: الهمزة الممدودة، و«أي» مقصورة وممدودة، و«أيا» و«هيا» و«وا» و«يا».

(١٩) شرح اللمحة البدرية. ٢/١٠٣.

« واذا قصدت الى خطاب الرجل وهو غير مقبل عليك غير متنبه اليك قلت: يا فلان انت تفعل. فتبدأ بالنداء حتى يقبل عليك اما اذا كان مقبلًا عليك بوجهه، منصتاً لك، فانك تقول: انت تفعل، فتترك يا فلان، استغناءً باقباله »[٢٠].

رابعاً: و« لا » حرف جواب بالنفي، و« كلّا » مثلها غير أنّ فيها معنى الجواب الزاجر الرادع وفيها ايضاً معنى التهديد والوعيد[٢١].

خامساً: وكانوا يرون أنّ « على المتحدّث أنْ يحدّث الناس ما حَدَجوه بابصارهم »[٢٢] وأذنوا له باسماعهم، ولحضوه بأبصارهم، فاذا رأى منهم فترةً فليمسك لان « من لم ينشط لحديثك فارفع مؤونة الاستماع منك »[٢٣].

سادساً: واذا كان من عادة بعض المتحدثين أن يكثر من تكرار بعض الالفاظ أو العبارات اثناء الحديث، فانّ جملة الامر في ذلك على رأيهم « أنّه ليس فيه اي التكرار حدٌ ينتهي إليه، ولا يُؤتى على وصفه، وانّما ذلك على قدر المستمعين، ومَن يحضره من العوامّ والخواصّ »[٢٤].

سابعاً: واختفى النحاة بالمواضع المتّفقة بين النظام اللساني ونظام الوجود الخارجي فاعتبروا المؤنث الحقيقي اقوى من المؤنث المجازي، لانّه اجتمع له التأنيث من وجهين: داخلي لغوي، وخارجي وجودي. يقول (الزمخشري) (ت. ٥٣٨ هـ) « والتأنيث على ضربين: حقيقي كتأنيث المرأة والناقة ونحوهما مما بازائه ذكر في الحيوان، وغير حقيقي كتأنيث الظلمة والنعل ونحوهما مما يتعلّق بالوضع والاصطلاح، والحقيقي اقوى، ولذلك امتنع في حال السعة: « جاء هند » وجاز « طلع الشمس »، وان كان المختار « طلعت.. » »[٢٥].

(٢٠) سيبويه: ٢/٢٣٥.
(٢١) انظر مغني اللبيب: ١/١٦٠.
(٢٢) البيان والتبيين: ١/١٠٤ « بتصرف ».
(٢٣) نفسه: ١/١٠٥.
(٢٤) نفسه: ١/١٠٥.
(٢٥) شرح المفصل: ٥/٩١. وانظر: الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية: ص ٢٠.

ثامناً: وتمثّل الحال المشاهدة التي يقع فيها الحدث الكلامي كالعنصر من عناصر الكلام لديهم، وتشكّل مسوغاً للحذف ـ وهو باب واسع من ابواب العربية ـ اثراه اللغويون بحثاً وتمحيصاً على وجوه متعددة ـ والتعبير بالحال المشاهدة مصطلح صريح من مصطلحهم واتخاذه دليلًا على الحذف خاصة اصل متواتر في كتبهم، بل تجاوزوا ذلك الى اعتبار « حال الطقس » فلا تستعمل « إنْ » عندهم إلا في المعاني المحتملة الشكوك في كونها، ولذلك قَبُح أن يقال: إنْ طلعت الشمس آتِك، إلا في اليوم المغيم[٢٦].

فاذا زيد على ذلك كله ما نجده. في كتب البلاغة من تقسيم الكلام على قسمين: « قسم يدلّ لفظه على معناه من غير واسطة، وقسم لا يدل لفظه على معناه ولكن يدلّ على معنى ثان هو المراد، وهو ما يتسابق فيه البلغاء، ويتبارى فيه فحول الكلام، وزمّان البلاغة، والاول الحقيقة، والثاني هو المجاز والكناية بالتمثيل اثبات للمعاني.. »[٢٧].

واذا تأملّنا ما افاض به الدرس البلاغي من بيان ضروب المجازات، والكنايات والاستعارات، وكيفيات القاء المتكلم الخبر للمخاطب، والمعاني التي يخرج اليها الطلب، والاستفهام، وصور المحسنات البديعية من تورية[٢٨]، واستطراد[٢٩]، وحسن التعليل[٣٠]، والمشاكلة[٣١]، وغير ذلك[٣٢]. بان لنا ما

(٢٦) شرح المفصل: جـ٩/٥. وانظر: الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية، ص١٩.
(٢٧) دلائل الاعجاز: ض ٥١ وما بعدها.
(٢٨) هي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان؛ احدهما قريب غير مقصود ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد مقصود، ودلالة اللفظ عليه خفية، فيتوهم السامع: أنه يريد المعنى القريب، وهو انما يريد المعنى البعيد بقرينة تشير اليه ولا تظهره، وتستره عن غير المتيقظ الفطن.
انظر: جواهر البلاغة. للمرحوم احمد الهاشمي. الطبقة الثانية عشرة. مصر ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م، ص ٣٦٢.
(٢٩) هو خروج المتكلم من الغرض الذي هو فيه الى غرض آخر لمناسبة بينهما. انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٣٦٥.
(٣٠) هو أن ينكر الاديب صراحة أو ضمناً علة الشيء المعروفة ويأتي بعلة اخرى ادبية طريفة لها اعتبار لطيف، بحيث تناسبُ الغرض الذي يرمي اليه. المصدر نفسه: ص ٣٧١.

للنحاة والبلاغيين العرب القدماء من صدور تلقائي في تفسير الظواهر اللغوية بما يهيئ لنا أن نستصغي أصلًا خالصاً في التحليل يستمدّ معطياته من اعمال النحاة واعمال البلاغيين، ولكنّه يمثّل نقطة التقاء مشترك بينهم ثم يفترقون. «وهكذا يصبح هذا البعد الخارجي أصلًا في النحو على مستوى، واصلًا في البلاغة على مستوى آخر، ولكنه يظلّ ينتسب الى مبادئ التحليل اللساني الاجتماعي، حتى يتميّز تميّزه الخاص، ويُصرِّح بقواعده المستخرجة أو المستشعرة لدى النحاة والبلاغيين»(٣٣) وغيرهم ممن اهتموا بالدرس اللغوي من معجميين، وادباء ونُقاد.

واذا كان اللغويون العرب لم ينّظروا اقوالهم بما يجعلهم السبّاقين في مجال ربط السلوك اللغوي بالمحيط الاجتماعي على مستوياته كافة، فانّا نرى فيما مثلنا به ـ وغيره كثير ما زلنا نأمل أن نتصدّى أو غيرنا له بالبحث والاستقصاء ـ نماذج بيّنة واضحة تؤكّد تفطن اللغويين العرب القدماء الى الرابط الجدلي بين السلوك اللغوي، ومجمل مظاهر الحياة التي يحياها الناطقون بما فيها من اعراف وتقاليد، ومثل اخلاقية أو دينية، او اجتماعية أو غيرها.

---

(٣١) هو ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته. المصدر نفسه: ص ٣٧٥.

(٣٢) انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٣٦٧ وما بعدها.

(٣٣) الاعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية: ص ٣٠.

ـ فهارس عامة ـ

اولاً : فهرس المصطلحات التي وضحت مفاهيمها عبر البحث مع مقابلها الاجنبي

ـ أ ـ

اتصال	Communication
اتكيت	Etiquette
انتروبولوجيا اللغة	Anthropological Linguistic
اجتماعي	Social
احداث كلامية	Language Actions
الاداء الكلامي	Performance
الادراك (العقول)	Cognition
ازدواجية لغوية	Diaglossia
استعارة	Borrowing
اشارة	Sign, (Gesture)
اشارة لغوية	Linguistic Sign
اصطلاح	Convention
اطلس لغوي	Etymology
اعتباطي	Arbitrary
اقتراض لغوي	Emprunt Linguistic
الانثروبولوجيا اللغوية	Linguistic Anthropology

الانثروبولوجيا الاجتماعية	Social Anthropology

- ب -

الباث	Disseminate
الباعث	Impulsion
بروتوكول	Protocol
بنية اجتماعية	Sociale Structure
بنية سطحية	Surface Structure
بنية صوتية	Sound Structure
بنية عميقة	Deep Structure
بنية لغوية	Linguistic Structure

- ت -

التقابل اللغوي	Contrastive Language
التشارك الاجتماعي	Communion
ترادف (مترادف)	Synonym
تضاد (متضاد)	Antonym, (opposition)
تطور لغوي	Linguistic Development
التعبير التمثيلي	Drama
تعريب	Arabization
تغير صوتي	Phonetic Change
تغير لغوي	Linguistic Change
التكرار	Redundancy
تواصل	Communication
تورية	Concealment

- ث -

الثنائية اللغوية	Biolinguisme, Bilingualism

- ج، ح، خ -

الجغرافية اللغوية	Linguistic Geography
الجرْس	Timbre
الحال الكلامية. انظر: السياق.	
حدث كلامي	Speech Event
الحضارة	Culture
الحقائق الاجتماعية	Social Facts
الحقائق اللغوية	Lingual Facts
الخط	Graphic

- د، ر -

الدال	Signifer
الدال البصري	Visual - Singnifer
الدراسة اللغوية التاريخية	Historical Linguistics
الرمز	Symbol, (Signifiant)

- س، ص -

الساميات. انظر: (الفصيلة السامية)	
السلوك الجماعي	Choric Behaviour
السلوك اللغوي	Linguistic Behaviour
السليقة (ملكة الكلام)	Faculty of Speech
السياق	Context

سياق الحال	Context of Situation
السيمية (السيميائيات)	Semasiology, (Sema)
الصم ـ البكم	Deaf - Mutes

ـ ط ـ

الطبيعة الاجتماعية للغة	Social Nature of Language

ـ ع ـ

العادات اللغوية	The Language Habits
عالم لغوي	Linguist
علم الاجتماع	Sociology
علم الاجتماع اللغوي	Sociology of Language
علم الاشارات	Semiology
علم الاعراف الاجتماعية	Ethnology
علم الانسان (المجتمعات البشرية	Anthropology
علم التراكيب	Syntax
علم الحركة الجسمية	Kinesice
علم الدلالة	Semantics
علم الصوت (الاصوات اللغوية)	Phonetics
علم اللغة الاجتماعي	Sociolinguistics
علم اللغة العام	Linguistics General
علم اللغة المقارن	Comparative Linguistics
علم اللغة النفسي	Psychological Linguistics
علم اللهجات	Dialectology
علم النفس اللغوي	Psychology of Language
علاقة	Relation

علامة	Sign
العمليات	Processes
العيوب الكلامية	Speech Defects

ـ ف، ق ـ

فردية الكلام	Individuality of Speech
الفردي	Individual
فرضية سابير ـ فورف	Sapir - Whorf Hypothesis
الفصيلة السامية	Semitic Family
فقه اللغة المقارن	Comparative Philology
القانون اللغوي	The Law of Language
قدره	Competence
قطبات اللغة	Polars of Language
اللغة القياسية	Standard Language
القواعد التحويلية	Transformations
القياس (اللغوي)	Linguistic Analogy

ـ ك ـ

الكلام	Speech
الكلام الحرام	Taboo
اللغة السرية	Secret Language
كناية	Antonomasia

ـ ل ـ

لحن	Melody
لغة	Language, (Lague)

اللغة الام	Parent Language
لغة البدن	Body Language
اللغة الصغيرة (لغة الطفل)	Little Language
لغة الطقوس	Rites Language
اللغة المشتركة	Common Language
اللغة اليدوية	Hand Language
لهجة	Dialect
اللهجات الاجتماعية	Social Dialects
اللهجات الخاصة	Dialects Locaux
لهجة طبقية	Class Dialect
اللهجات المحلية	Local Dialects

- م -

مجاز	Metaphor
المدرسة اللغوية العنجهية	Jingoistic Linguistics
مدلول	Singnificance
الجمهور (المستمع)	The Audience
المصاحبات اللغوية	Gesture
معجمي	Lexicological
المعنى	Meaning
المعنى السياقي	Contaxtual Meaning
تنويع لغوي	Variety of Language

- ن، و -

نظم	Syntax

النظم الاجتماعية	Institution
نظام من العلاقات	System of Signes
نغمة	Tone
وظيفة ما لغوية	Language Function

ثانياً : ـ فهرس الاعلام ـ

ثالثاً : ـ فهرس الشعوب والقبائل والطوائف ـ

رابعاً: ـ فهرس البلدان والأماكن ـ

خامساً : - فهرس اللغات واللهجات -

٩ ـ اسرار العربية. للانباري. تحقيق محمد بهجة البيطار. دمشق ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م.
١٠ ـ الاسس النفسية للتكامل الاجتماعي. دراسة ارتقائية تحليلة. د. مصطفى سويف. الطبعة الثالثة. دار المعارف ـ مصر.
١١ ـ اشتان ومجتمعات في اللغة والادب. عباس محمود العقاد. الطبعة الثانية دار المعارف ـ مصر.
١٢ ـ اصلاح المنطق. ابن السكيت. شرح وتحقيق: احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون. دار المعارف. مصر ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ هـ.
١٣ ـ اصوات واشارات ـ دراسة في علم اللغة. أ. كوندرانوف. نقله عن الانكليزية ادور يوحنا. بغداد ١٩٧٠.
١٤ ـ اصول البنائية في علم اللغة والدراسات الاثنولوجية. د. محمود فهمي حجازي. دار الفكر. بيروت. ١٩٧٢.
١٥ ـ اصول النحو. ابن السراج. تحقيق. د. عبد الحسين الفتلي. النجف ١٩٧٣.
١٦ ـ اصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث. د. محمد عيسر. عالم الكتب. القاهرة. ١٩٧٣.
١٧ ـ اعراب ثلاثين سورة من القران الكريم. ابن خالويه. القاهرة ١٣٦٠ هـ ـ ١٩٤١ م.
١٨ ـ الاقتراح في علم اصول النحو. جلال الدين السيوطي. طبعة حيدر آباد الدكن.
١٩ ـ الانتروبولوجيا الاجتماعية. ابريتشارد. ترجمة. د. احمد ابو زيد.
٢٠ ـ الالسنية. (علم اللغة الحديث) الطبعة الثالثة. الهيئة العامة للكتاب. مصر ١٩٧٢. قراءات تمهيدية. د. ميشال زكريا. بيروت ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.
٢١ ـ الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع. محمد عبد

الرحمن القزويني. الطبعة الثانية. مطبعة الجمالية الحديثة ـ مصر.
٢٢ ـ البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضيته التأثر والتأثير. د. احمد مختار عمر. دار المعارف ـ مصر ١٩٧١.
٢٣ ـ البخلاء. ابو عثمان عمرو الجاحظ. مطبعة الساسي. مصر ١٣٢٣ هـ.
٢٤ ـ البنائية في اللسانيات (الحلقة الاولى). د. محمد الحناش. دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨٠.
٢٥ ـ البنيوية. جان بياجيه. ترجمة عارف منيمنة وبشير اوبري. الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٨٠.
٢٦ ـ البيان والتبيين. الجاحظ. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م.
٢٧ ـ تاريخ ابن خلدون المسمّى العبر وديوان المبتدأ والخبر وايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر. عبد الرحمن محمد بن خلدون. بيروت ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م.
٢٨ ـ تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين. جورج مونين. ترجمة. د. بدر الدين القاسم. دمشق ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م.
٢٩ ـ تأملات في اللغة واللغة. محمد عزيز الحبابي. ليبيا ـ تونس ١٩٨٠.
٣٠ ـ تثقيف اللسان وتلقيح الجنان. ابن مكّي الصقلي. تحقيق. د. عبد العزيز مطر. القاهرة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م.
٣١ ـ الترادف في اللغة. حاكم مالك لعيبي. بغداد ١٩٨٠.
٣٢ ـ التطور اللغوي التاريخي. د. ابراهيم السامرائي. مصر ١٩٦٦.
٣٣ ـ التعريفات. الشريف الجرجاني. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٣ م.
٣٤ ـ تفسير الالفاظ الدخيلة في العربية مع ذكر اصلها بحروفه. طوبيا العنيسي. القاهرة ١٩٦٥.

٣٥ ـ تفسير الجلالين. جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي. دار القلم. القاهرة: ١٩٦٦.

٣٦ ـ التمثيل والمحاضرة. ابو منصور الثعالبي. مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م.

٣٧ ـ التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق. د. ابراهيم السامرائي. بغداد ١٩٦٢

٣٨ ـ جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب. د. ماهر مهدي هلال. بغداد ١٩٨٠.

٣٩ ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. السيد المرحوم احمد الهاشمي. الطبعة الثانية عشر. مصر ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م.

٤٠ ـ الحروف. ابو نصر الفارابي. تحقيق. د. محسن مهدي. دار المشرق ـ بيروت.

٤١ ـ الحيوان. الجاحظ. تحقيق. عبد السلام محمد هارون. دار الكتاب العربي بيروت. ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م.

٤٢ ـ خزانة الادب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية. عبد القادر البغدادي. طبعة بولاق ـ مصر.

٤٣ ـ الخصائص. ابو الفتح عثمان ابن جنّي. حققه. د. محمد علي النجار الطبعة الثانية ـ بيروت.

٤٤ ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون. المرحوم ساطع الحصري. مكتبة المثنى بغداد ١٩٦١.

٤٥ ـ دراسات في علم اللغة. د. كمال محمد بشر. دار المعارف ـ مصر ١٩٧٣.

٤٦ ـ دراسات في اللغة. د. ابراهيم السامرائي. مطبعة العاني ـ بغداد ١٩٦١.

٤٧ ـ دراسات في فقه اللغة. د. صبحي الصالح بيروت ١٩٧٠.

٤٨ ـ دلائل الاعجاز. الامام عبد القاهر الجرجاني. تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي القاهرة. ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م.

٤٩ ـ دلالة الالفاظ. د. ابراهيم انيس. الطبعة الثالثة. مصر ١٩٧٢.

٥٠ ـ دور الكلمة في اللغة. ستيفن اولمان. ترجمة وقدّم له وعلّق عليه: د. كمال محمد بشر. القاهرة ١٩٧٥.

٥١ ـ ديوان الاعشى الكبير. ميمون بن قيس. شرح وتعليق. محمد حسين. الاسكندرية ١٩٥٠.

٥٢ ـ رسائل الجاحظ. جمعها ونشرها. حسن السندوبي. الطبعة الاولى ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م.

٥٣ ـ الرواية والاستشهاد باللغة. د. محمد عيسر. القاهرة.

٥٤ ـ رسوم دار الخلافة. ابو الحسين الصابئ تحقيق. ميخائيل عواد. مطبعة العاني ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م.

٥٥ ـ الزينة في الكلمات الاسلامية العربية. الشيخ ابو حاتم احمد بن حمدان الرازي عارضه باصوله وعلّق عليه: حسين فيض الله. القاهرة ١٩٥٧.

٥٦ ـ الساميون ولغاتهم تعريف بالقرابات اللغوية الحضارية للعرب. د. حسن ظاظا القاهرة ١٩٧١.

٥٧ ـ سر الفصاحة. ابن سنان الخفاجي. شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي مطبعة محمد علي صبيح. مصر ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م.

٥٨ ـ شرح درة الغواص في اوهام الخواص. (للحريري). لاحمد شهاب الدين الخفاجي. مطبعة الجوائب. قسطنطينية ١٢٩٩ هـ.

٥٩ ـ شرح ديوان امريء القيس. ابو بكر بن عاصم البطليوسي. مصر ١٣٠٧ هـ.

٦٠ ـ شرح الرضي على الكافية. الرضي الاستراباذي. طبعة جديدة وصححة ومذيلة بتعليقات مفيدة من عمل يوسف حسن عمر. ليبيا ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

٦١ ـ شرح شذور الذهب. ابن هشام الانصاري. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد الطبعة الثامنة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م.

٦٢ - شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية. لابن هشام الأنصاري. تحقيق: د. هادي نهر. بغداد ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.
٦٣ - شرح المفصل. ابن يعيش. طبعة المنيرية - مصر.
٦٤ - شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح. ابن مالك. تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي. مصر ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧.
٦٥ - الصاحب في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. ابو الحسين احمد بن فارس حققه وقدّم له مصطفى الشويمي. بيروت ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م.
٦٦ - الصهيونية واللغة. د. فاروق محمد جودي. القاهرة. ١٩٧٧.
٦٧ - ضحى الاسلام. احمد امين. الطبعة السادسة. القاهرة ١٩٦١.
٦٨ - الضرورة الشعرية - دراسة اسلوبية - السيد ابراهيم محمد الطبعة الثانية دار الاندلس. بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
٦٩ - طبقات فحول الشعراء. ابن سلّام. تحقيق محمود محمد شاكر.
٧٠ - طبقات النحويين واللغويين. الزبيدي. القاهرة ١٩٧٣. تحقيق. محمد ابو الفضل ابراهيم. القاهرة ١٩٧٣.
٧١ - الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز. يحيى بن حمزة العلوي. مطبعة المقتطف. مصر ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م.
٧٢ - طرق تنمية الالفاظ. د. ابراهيم انيس القاهرة ١٩٧٦.
٧٣ - عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوها. د. زهران البرداوي الطبعة الثانية. دار المعارف - مصر. ١٩٨١.
٧٤ - عبث الوليد ابو العلاء المعري. دمشق ١٩٣٦.
٧٥ - علم اللغة. د. علي عبد الواحد وافي. دار نهضة مصر للطبع والنشر. الطبعة السابعة. القاهرة.
٧٦ - علم اللغة العام. فردينان دي سوسور. ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز

مراجعة النص العربي. د. مالك المطلبي. دار آفاق عربية بغداد ١٩٨٥.
٧٧ - علم اللغة - مقدمة للقارئ العربي - د. محمود السعران. دار المعارف. مصر ١٩٦٣.
٧٨ - فصول في فقه العربية. د. رمضان عبد التواب. دار التراث. القاهرة ١٩٧٧.
٧٩ - فقه اللغة. ابراهيم محمد نجا مطبعة الازهر مصر ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٦.
٨٠ - فقه اللغة. د. علي عبد الواحد وافي. مطبعة الرسالة. القاهرة ١٩٦٨.
٨١ - فقه اللغة في الكتب العربية. د. عبده الراجي. بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٩ م.
٨٢ - فقه اللغة وخصائص العربية. د. محمد المبارك. دار الفكر الحديث. بيروت ١٩٦٤.
٨٣ - في علم اللغة العام. د. عبد الصبور شاهين. مؤسسة الرسالة. الطبعة الثالثة. بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
٨٤ - في اللغة والادب. د. ابراهيم بيومي مدكور. دار المعارف ١٩٧١.
٨٥ - في اللهجات العربية د. ابراهيم انيس مكتبة الانجلو. الطبعة الثالثة مصر. ١٩٦٥.
٨٦ - الكتاب. سيبويه. بولاق ١٣١٦ هـ. وبتحقيق. محمد عبد السلام هارون. عالم الكتب. بيروت.
٨٧ - القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث. د. عبد الصبور شاهين القاهرة ١٩٦٦.
٨٨ - لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة. د. عبد العزيز مطر. الطبعة الثانية. دار المعارف - مصر ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
٨٩ - لحن العامة والتطور اللغوي. د. رمضان عبد التواب. مطابع البلاغ. القاهرة ١٩٦٧.

٩٠ ـ اللسان والانسان. مدخل الى معرفة اللغة. د. حسن ظاظا. القاهرة ١٩٧١.

٩١ ـ اللغة. فندريس. ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص القاهرة ١٩٥٠.

٩٢ ـ اللغة بين العقل والمغامرة. د. مصطفى مندور الاسكندرية ١٩٧٤.

٩٣ ـ اللغة بين المعيارية والوصفية. د. تمام حسان. مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٨.

٩٤ ـ اللغة العربية في اطارها الاجتماعي. مصطفى لطفي. معهد الانماء العربي الطبعة الاولى. بيروت ١٩٧٦.

٩٥ ـ اللغة العربية معناها ومبناها. د. تمام حسام. الهيئة العامة للكتاب مصر ١٩٧٣.

٩٦ ـ اللغة في المجتمع. تأليف. م. م. لويس. ترجمة. د. تمام حسان. القاهرة ١٩٥٩.

٩٧ ـ اللغة والاسلوب. عدنان بن ذريل. دمشق ١٩٨٠.

٩٨ ـ اللغة والتطور. د. عبد الرحمن ايوب. مطبعة الكيلاني. القاهرة ١٩٦٩.

٩٩ ـ اللغة والفكر بول شوشار. ترجمة صلاح ابو الوليد. باريس.

١٠٠ ـ اللغة والمجتمع. د. علي عبد الواحد وافي مصر. ١٩٧١.

١٠١ ـ اللغة والمجتمع رأي ومنهج. د. محمود السعران. بنغازي ١٩٥٨.

١٠٢ ـ اللغة والنحو بين القديم والجديد. عباس حسن. دار المعارف ـ مصر ١٩٧١.

١٠٣ ـ لغات البشر اصولها طبيعتها تطورها. ماريو باي. ترجمة. د. صلاح العربي. القاهرة ١٩٧٠.

١٠٤ ـ اللغات السامية. تخطيق عام، تيودور نولدكه. ترجمة د. رمضان عبد التواب. القاهرة ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م.

١٠٥ ـ اللغات في القرآن المنسوب لابن عباس. تحقيق. صلاح الدين المنجد القاهرة ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م.

١٠٦ ـ اللمع في العربية. ابن جنّي. تحقيق فائز فارس. الكويت ١٩٧٢.

١٠٧ ـ الماركسية وقضايا علم اللغة. ستالين. ترجمة حنا عبود. دمشق ١٩٥٠.

١٠٨ ـ مجالس العلماء. الزجاجي. تحقيق. محمد عبد السلام هارون. الكويت ١٩٦٢.

١٠٩ ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة تاريخه واعماله. محمد رشاد الحمزاوي.

١١٠ ـ محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية. امين الخولى. القاهرة ١٩٥٨.

١١١ ـ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القرآءات والايضاح عنها. ابن جنّي تحقيق. د. علي النجدي ناصف. و د. عبد الفتاح اسماعيل شلبي. القاهرة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩.

١١٢ ـ المدخل الى علم اللغة. د. محمود فهمي حجازي القاهرة ١٩٧٦.

١١٣ ـ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. د. مهدي المخزومي. القاهرة ١٩٥٨.

١١٤ ـ المزهر في علوم اللغة وانواعها. السيوطي. شرحه وضبطه وعنون موضوعاته وعلّق عليه: محمد احمد جاد المولى وجماعه. مطبعة عيسى البابي الحلبي. مصر.

١١٥ ـ معجم الفاظ القرآن الكريم. مجمع اللغة العربية. الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠.

١١٦ ـ المعجم العربي نشأته وتطوره. د. حسين نصار. القاهرة ١٩٥٦.

١١٧ ـ معجم علم الاجتماع. تحرير البروفسور دينكن ميشيل. ترجمة. د. احسان محمد الحسن. دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨٠.

١١٨ ـ المعرّب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم. ابو منصور الجواليقي. تحقيق. احمد محمد شاكر. دار الكتب المصرية. الطبعة الثانية مصر. ١٩٦٩.

١١٩ ـ مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام الانصاري. دار الاصفهاني. مصر.
١٢٠ ـ مفاتيح الالسنية. جورج مونين. عرّبه وذيله بمعجم عربي فرنسي. الطيب البكوش. منشورات الجديد. تونس ١٩٨١.
١٢١ ـ مفاتيح العلوم. الامام الاديب اللغوي ابو عبدالله محمد بن يوسف الخوارزمي. دار الكتب العلمية. بيروت.
١٢٢ ـ المفردات في غريب القرآن. ابو القاسم الراغب الاصفهاني. تحقيق وضبط محمد سعيد كيلاني. مصر ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١.
١٢٣ ـ المقتضب. المبرد. تحقيق عبد الخالق عضيمة. القاهرة. ١٣٨٥ هـ ـ ١٣٨٨ هـ.
١٢٤ ـ مقدّمة ديوان الادب. الفارابي. تحقيق. د. احمد مختار عمر. القاهرة ١٩٦١.
١٢٥ ـ مقدمه لدراسة فقه اللغة ـ محمد احمد ابو الفرج. دار النهضة العربية بيروت. ١٩٦٦.
١٢٦ ـ من اسرار العربية. د. ابراهيم انيس. الطبعة الخامسة. القاهرة ١٩٧٥.
١٢٧ ـ الموشح في مآخذ العلماء والشعراء. المرزباني. المطبعة السلفية مصر ١٣٤٣ هـ.
١٢٨ ـ النحو الوافي. عباس حسن. دار المعارف. الطبعة الرابعة. مصر ١٩٧٦.
١٢٩ ـ نزهة الالباء. ابو البركات عبد الرحمن بن محمد بن الانباري. تحقيق د. ابراهيم السامرائي. بغداد ١٩٧٠.
١٣٠ ـ نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والنحو. د. امجد الطرابلسي دمشق ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢.
١٣١ ـ نظرية البنائية في النقد الادبي. د. صلاح فضل. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة ١٩٧٨.
١٣٢ ـ نظرية النظم. د. حاتم صالح الضامن. بغداد. ١٩٧٩.
١٣٣ ـ النقد عند اللغويين في القرن الثاني الهجري. سنيه احمد محمد. بغداد ١٩٧٧.
١٣٤ ـ النقد المنهجي عند العرب. د. محمد مندور. القاهرة ١٩٦٩.
١٣٥ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه. القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. تحقيق وشرح. محمد ابو الفضل ابراهيم. وعلى محمد البجاوي الطبعة الثانية. البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١.

ثانياً: المجلات والبحوث

١٣٦ ـ مجلة ابحاث اليرموك. المجلد الثقافي. العدد الاول. عمان ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤. (نظرة في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة. علي الحمد).
١٣٧ ـ مجلة آداب المستنصرية. العدد الرابع بغداد ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م. (نشأة اللغة وتطورها في مباحث اللغويين العرب والاجانب). د. هادي نهر.
١٣٨ ـ مجلة أدب المستنصرية. العدد العاشر. بغداد ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤. (اللامات بين الهروي والنحاة. يحيى علوان حسون).
١٣٩ ـ مجلة الثقافة. السنة الثانية. العدد ٢١ مصر يونيه ١٩٧٥. (اللكنه والحركة الجسمية من خلال البيان والتبيين). د. فاطمة محجوب.
١٤٠ ـ مجلة حوليات الجامعة التونسية. العدد ١١ تونس ١٩٧٤. (مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة). د. عبد القادر المهيري.
١٤١ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي. الجزء الرابع مجلد ٣٥. بغداد ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤. (ظاهرة المشترك اللفظي ومشكلة غموض الدلالة). د. احمد نصيف الجنابي.

١٤٢ ـ مجلة المجمع العلمي القاهري. المجلد السابع. القاهرة ١٩٥٣. (صلات اللغة العربية واللغات الاسلامية). د. عبد الوهاب عزّام.
١٤٣ ـ مجلة المجمع العلمي القاهري. مجلد التاسع. القاهرة ١٩٥٩. (السيمية) عباس محمود العقاد.
١٤٤ ـ مجلة فصول. المجلد الرابع ـ العدد الثالث. مصر ١٩٨٤. (الاثنوميثودولوجيا. ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة). محمد حافظ دياب.
١٤٥ ـ مجلة اللسان العربي. العدد الخامس. الرباط ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣. (اللهجات العامية لماذا والى اين). د. حسني محمود.
١٤٦ ـ مجلة اللسان العربي. المجلد (١١) الرباط ١٩٧٦. (الاعلام ولغة الحضارة). عبد العزيز شرف.
١٤٧ ـ مجلة الموقف الادبي. دمشق ـ حزيران ١٩٧٨. (اللغة بين الانسان والعالم الخارجي). د. محمد خير الحلواني.
١٤٨ ـ بحوث الملتقى الثالث في اللسانيات. تونس ١٩٨٥
آ ـ الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية. د. نهاد الموسى.
ب ـ نحو مدخل علي لدراسة اللهجات العربية المعاصرة. د. حسن شقير.
ج ـ في تحليل الخطاب وبعض القضايا التواصلية من وجهة نظر لسانية. د. رضا السويسي.
د ـ من النظرية اللسانية الى تنظير الواقع. الاستاذة ليلى المسعودي.
١٤٩ ـ قضايا الادب وضرورة انتاجه. انطون مقدسي. ضمن منشورات الجامعة التونسية. الدراسات الادبية. تونس ١٩٧٨.

ثالثاً: المصادر والمراجع الانكليزية

150 — W. Baskin. English Translation. Course in General Linguistics. New York 1959.
151 — F. Bous. Hand Book American, Indian Languages 1907-1911.
152 — Ardener Edwin. Social-Anthropologiy and Language Taris tock Publications. London 1971.
153 — J.R. Firth. Personality and Language in Society in Papers in Linguistics 1934-1951. London-Oxford University 1969.
154 — R. Jakobson. Fandamentals of Language. The Itague Mouton 1956.
155 — Jasperson, Otto. Language, Its Nature Development and Origin.
156 — M.A.K. Halliday. Grammar, Society and Noun, London.
157 — H.K. Lewis for University College, London 1967.
158 — A. Rechards and C.K. Ogden. The Meaning and Meaning. London 1946.
159 — E. Sapir Language. New York Harcourt Brace and Company 1921.
160 — William Bright. International Encyclopedia of Soc. Sciences. Art. Language. Vol D X.
161 — The New Encyclopedia Britannica, Volume 5.

رابعاً: المصادر والمراجع الفرنسية

162 — Encyclopedie Larousse, Jean Baptiste Morcellesi L. & Linguistigue par un Nombre de Professeurs Universitaires.
163 — Essai d'une Theorie des Langues Speciales dans une Societe. (Revue des Etudes). Ethnographiques et Sociologiques, V. Van Gemep. Paris, Juin-Juillet 1908.
164 — Vendryes Joseph. Langage Oral et Langage par le Geste en Grammaire et Psychologie. Paris.